

قصة النهضة

ول وايريل ديورانت

النّهضة

وصو بروي تاريخ الفضاة في إيطاليا من تولد بتراركة
حتى مات تيشيان - من ١٣٠٤ إلى ١٥٧٦

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الخامس



تونس

٢٠



بيروت

الكتاب الرابع

النهضة في رومة

١٣٧٨ - ١٥٢١

الباب الرابع عشر

أزمة الكنيسة

١٣٧٨ - ١٤٤٧

الفصل الأول

الانشقاق البابوي ١٣٧٨ - ١٤١٧

أعاد جريجورى الحادى عشر البابوية الى رومة ؛ ولكن هل تستطيع البابوية البقاء فيها ؟ وكان المجمع الذى انعقد لاختيار من يخلفه مؤلفاً من ستة عشر كردنالا ، لم يكن منهم إيطاليين غير أربعة ، وقدم إليهم ولاية الأمور فى المدينة معروضاً يطلبون إليهم فيه أن يختاروا رجلاً من أهل رومة ، فإن لم يكن فلا أقل من أن يكون إيطالياً ؛ وأرادوا أن يؤيدوا هذا المطلب فاجتمعت طائفة منهم خارج الفاتيكان ، وأنذرت المجتهدين بأنها ستقتل جميع الكرادلة غير الإيطاليين إذا لم ينتخب للبابوية أحد أبناء رومة ؛ وارتاع لذلك المجمع المقدس ، فأسرع باختيار بارتولميو پرنيانو Bartolommao Prignano (١٣٧٨) كبير أساقفة بارى وتسمى باسم إربان السادس ، ثم ولوا هارين طلباً للنجاة ، ولكن رومة قبلت هذه الترضية^(١) .

وحكم إربان السادس المدينة والكنيسة بنشاط استبدادى عنيف ، فعين هو أعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفى البلدية ، وأخضع العاصمة الثائرة المضطربة للطاعة والنظام ، وروع الكرادلة بأن أعلن عزمه على إصلاح

الكنيسة ، وأنه سيدأ هذا الإصلاح من أعلى ؛ وبعد أسبوعين من هذا الإعلان أتى عظة عامة حضرها الكرادلة أنفسهم ندد فيها بفساد أخلاقهم وأخلاق كبار رجال الدين ، ولم يترك نقیصة إلا رماهم بها . وقد أمرهم فيها ألا يقبلوا معاشاً ، وأن يقوموا بجميع الأعمال التي تحال إلى المحكمة البابوية دون أجور أو هدايا أيا كان نوعها . ولما تذر الكرادلة وأخذوا يتهامسون مستائين قال لهم : « إياكم وهذا اللغو » ، فلما احتج عليه الكردينال أرسيني Orsini قال له البابا إنه أبله لا يعقل ، ولما اعترض عليه كردينال نيموج Limoges هجم عليه إربان يريد أن يضربه . وسمعت القديسة كثرين بهذا فبعثت إلى البابا الثائر تحذره وتقول له : « افعل ما تريد أن تفعله باعتدال . . . » وحسن نية ، وقلب مسالم ، لأن التطرف يدمر ولا يبني ؛ وإلى أستحلفك بحق الرب المصلوب أن تكبح بعض الشيء جماع هذه الحركات السريعة التي تدفعك إليها طبيعتك » (٢) . وأصم إربان أذنه عن سماع هذا النداء ، وأعلن عزمه على تعيين عدد من الكرادلة الإيطاليين يكفي لأن يجعل لإيطاليا أغلبية في مجلس الكرادلة .

واجتمع الكرادلة الفرنسيون في أنانبي ، ودبروا الثورة ، فلما كان اليوم التاسع من أغسطس عام ١٣٧٩ أصدروا منشوراً يعلنون فيه أن اتخاب إربان باطل لأنه تم تحت ضغط غوغاء رومة ، وانضم إليهم جميع الكرادلة الطليان ، وأعلن المجمع على بكرة أبيه في يوم ٢٠ سبتمبر أن ربرت الجنيبي هو البابا الحق . واتخذ ربرت مقامه في أفنيون وتسمى باسم كلمنت السابع ، أما إربان فقد تمسك بمنصبه الديني الأعلى وظل مقيماً في رومة . وكان الانقسام البارز الذي بدأ على هذه الصورة نتيجة أخرى من النتائج التي أسفر عنها قبة رلة القومية ، فقد كان في واقع الأمر محاولة من جانب فرنسا للاعتماد بعون البابوية الذي لا غنى لها عنه في حربها مع إنجلترا وفي كل نزاع مقبل مع ألمانيا أو إيطاليا . وحدثت نابلي ، وأسيانيا ،

واسكتلندة حذو فرنسا ، ولكن إنجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وهولندة ، وبوهيميا ، وهنغاريا ، والبرتغال رضيت بإربان ، وأضححت الكنيسة ألعوبة في أيدي المعسكرين المتنافسين . وبلغ هذا الاضطراب غايته ، وأثار ضحك الإسلام الآخذ في الانتشار وسخريته ؛ فقد كان نصف العالم المسيحي يرى أن النصف الآخر زنادقة مجدفون ، خارجون على الدين . ونددت القديسة كترين بكلمت السابع وقالت إنه هو يهوذا ؛ وأطلق القديس فنسنت فرر St. Vincent Ferrer الاسم عينه على إربان السادس (٢) . وادعت كلتا الطائفتين أن القربان المقدس الذى تقدمه الطائفة الأخرى باطل ، وأن الأطفال الذين تعمدهم ، والتائبين الذين تتلقى اعترافهم ، والموتى الذين تمسحهم ، يبقون فى حالة من الخطيئة الأخلاقية ، ملقين فى الجحيم أو فى الأعراف إذا عاجلهم الموت . وبلغت العداوة بين الطائفتين درجة لا تعادلها إلا العداوة فى أشد الحروب مرارة وعنفاً ، ولما أن ائتمر كثيرون من كرادلة إربان بالحدد عليه ليقتلوه لأنه عاجز شديد الخطورة أمر بالقبض على سبعة منهم ، وعذبهم ، ثم أعدمهم (١٣٨٥) .

ولم يحسم موته (١٣٨٩) هذا النزاع ، ذلك أن الأربعة عشر من الكرادلة الذين بقوا فى معسكره اختاروا بيرو توماتشيلي Piero Tomacelli لمنصب البابوية . وتسمى بعد اختياره بونيفاس التاسع ، وأطالت الأمم المنقسمة انقسام البابوية هذا ، ولما مات كلمنت السابع (١٣٩٤) رشح كرادلة أفينيون بيرو ده لونا Piero de Luna ليكون هو بندكت الثالث عشر ، واقترح شارل السادس ملك فرنسا أن يستقيل البابوان كلاهما ، ولكن بندكت لم يقبل هذا الاقتراح . فلما كان عام ١٣٩٩ أعلن بونيفاس التاسع إقامة عيد عام فى السنة التالية ؛ وإذ كان يعلم أن كثيرين ممن ينتظر منهم أن يقدموا للاشتراك فى هذا العيد سيقون فى أوطانهم بسبب ما يسود تلك الأيام من فوضى وأخطار ، خول وكلاءه فى

الأقاليم - أن يمنحوا كل ما يترتب على الحج للاحتفال بالعيد من غفران للذنوب وامتنيازات لكل مسيحي يعترف بذنوبه ، ويتوب ، ثم يهب الكنيسة الرومانية المال الذى يتطلبه السفر إلى رومة ؛ ولم يكن جباة هذه الأموال رجال دين ذوى ضائير حية نزيهة ، فقد كان كثيرون منهم يعرضون الغفران دون أن يلقوا اعترافا ما ؛ ولامهم بونيفاس على فعلتهم ، ولكنه كان يحس بأنه ما من أحد غيره يستطيع أن يفيد من المال الذى جمع بهذه الطريقة أحسن مما يفيده هو منه ، ولم « يرو بونيفاس تعطشه إلى الذهب » (٤) كما يقول أمين سره وسط ما كان يعانيه من آلام الحصوة المبرحة . ولما أراد بعض الجباة أن يغتالوا بعض هذا المال أمر بتعذيبهم حتى يردوه إليه . ومزقت جماهير رومة الغاضبة غرهم من الجباة لأنهم سمحوا لبعض المسيحيين أن ينالوا الغفران دون أن يأتوا إلى رومة لينفقوا فيها نقودهم (٥) . وبينما كانت الاحتفالات قائمة على قدم وساق حرضت أسرة كولنا الشعب على أن يطالب بعودة الحكم الجمهورى ، فلما رفض بونيفاس الطلب ، قادت هذه الأسرة جيشا مؤلفا من ثمانية آلاف محارب هجمت بهم عليه ؛ وقاوم البابا الطاعن فى السن الحصار بعزيمة ماضية فى سائنا أنجيلو ، وانقلب الشعب على آل كولنا ، وتفرق جيش المتمردين ، وزج بواحد وثلاثين من زعماء الفتنة فى غيابة السجون . ووعد واحد منهم بالعفو عنه والإبقاء على حياته إذا رضى بأن يكون جلاد الباقين ؛ فرضى بهذا العمل وشتق الثلاثين الباقين ومنهم أبوه وأخوه (٦) .

وشبت نار الفتنة من جديد لما مات بونيفاس واختير إنوسنت السابع لمنصب البابوية (١٤٠٤) وفر إنوسنت إلى قتيرو Viterbo وهجم الغوغاء من أهل رومة بقيادة جيوفنى كولنا على قصر الفاتيكان ، وأعملوا فيه السلب والنهب ، ولطخوا شارات إنوسنت بالوحل ، وبعثروا السجلات

البابوية والقرارات التاريخية في شوارع المدينة (١٤٠٥)^(١) ثم تراءى للشعب أن رومة إذا نخلت من البابوات حل بها الخراب والدمار ، فعقد صلحاً مع إنوسنت ، فعاد إلى رومة ظافراً ومات فيها بعد أيام قليلة من عودته (١٤٠٦) .

ودعا خلفه جريجورى الثانى عشر بندكت الثالث عشر إلى الاجتماع به فى مؤتمر . وعرض بندكت أن يستقيل إذا رضى جريجورى أن يقوم هو أيضاً بنفس العمل ، ولكن أهل جريجورى أشاروا عليه بالأبواب على هذا الاقتراح ؛ فما كان من بعض الكرادلة إلا أن انسحبوا إلى پيزا ، ودعوا إلى عقد مجلس عام يختار بابا يرتضيه العالم المسيحى قاطبة . وحث ملك فرنسا مرة أخرى بندكت على أن يستقيل ، فلما رفض ذلك للمرة الثانية أعلنت فرنسا عدم ولائها له ، واتخذت موقف الحياد بين الطرفين المتنازعين . ولما تخلى كرادلة بندكت عنه فر إلى أسبانيا ، وانضم هؤلاء الكرادلة إلى الذين تخلوا عن جريجورى ، وأصدروا جميعاً دعوة إلى مؤتمر يعقد فى پيزا فى الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٤٠٩ .

فصل الثمانى

المجالس والبابوات ١٤٠٩ - ١٤١٨

كان الفلاسفة الثائرون قد وضعوا منذ قرن أو يكاد أساس « الحركة -
المجلسية » . ذلك أن وليم الأكامى William of Occam قد احتج على القول
بأن الكنيسة هى رجال الدين ؛ وقال إن الكنيسة فى اعتقاده هى جماعة
المؤمنين ، وإن الكل ذو سلطان على أى جزء من أجزائه ؛ وإن فى مقدور
هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس عام يجب أن يكون له حق اختيار
البابا ، أو تعذيبه ، أو خلعه (٨) . وقال مرسلوس Marsilius أحد رجال
الدين فى يدوا إن المجلس العام هو عقل العالم المسيحى مجتمعاً ؛ ومنذا الذى
يجرؤ بمفرده على أن يضع عقله وحده فوق هذا العقل العالمى ؟ وأضاف أن
هذا المجلس العام يجب ألا يؤلف من رجال الدين وحدهم ، بل يجب أن
يضم إليهم غير رجال الدين يختارهم الشعب نفسه ؛ ويجب أن تكون مناقشاته
متحررة من سيطرة البابوات (٩) . وطبق هنريخ فـن لانجنشتين Heinrich von
Langenstein أحد علماء اللاهوت فى جامعة باريس هذه الآراء على
الانشقاق البابوى فى رسالة له عنوانها **مجالس السلام** (١٣٨١) : وقال
هنريخ فى هذه الرسالة إنه مهما يكن من قوة المنطق فى حجج البابوات الذين
يؤيدون بها سلطتهم ؛ لعبا المستمدة من الله نفسه ، فإن أزمة مد نشأت
لم يجد المنطق نفسه سبيلا للنجاة منها ، وليس منه وسيلة لنقد الكنيسة من
الفوضى التى أخذت تدك فواعدها إلا قيام سلطة غير البابوات ، تعلو على
سلطان الكرادلة ، وليست هذه السلطة إلا سلطة المجلس العام . وقال چان
جيرسن Jean Gerson مدير جامعة باريس فى موعظة له ألقاها فى نرسكون
Tarascon أمام بندكت الثالث عشر نفسه إنه وقد عجزت قوة البابا وحده -

عن عقد مجلس عام يقضى على انشقاق البابوية ، فإن هذه القاعدة يجب إلغاؤها في هذه الأزمة الحاضرة ، وأن يعقد مجلس عام بغير هذه الطريقة ، يعهد إليه بالسلطة التي يستطيع بها القضاء على هذه الأزمة (١٠) .

وعقد مجلس پزا بالنظام الذى وضع له . فقد اجتمع فى الكنيسة الفخمة ستة وعشرون من الكرادلة ، وأربعة من البطارقة ، واثنى عشر من رؤساء الأساقفة ، وثمانون أسقفاً ، وسبعة وثمانون من رؤساء الأديرة ، ورؤساء جميع طوائف الرهبان الكبرى ، ومندوبون عن جميع الجماعات الكبيرة ، وثلثمائة من رجال القانون الكنسى ، وسفراء من قبل جميع الحكومات الأوروبية ما عدا حكومات هنغايا ، وناپلى ، وأسبانيا ، واسكنديناوة ، واسكتلنדה . وأعلن المجلس أنه كنسى (مشروع حسب قانون الكنيسة) ومسكونى عالمى (أى أنه يمثل العالم المسيحى على بكرة أبيه) - وهى دعوى أغفلت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية . ودعا هذا المجلس بندكت وجريجورى إلى المثول أمامه ، فلما لم يلب كلاهما الدعوة ، وأعلن المجلس خلعهما ، ونادى بكردنال ميلان بابا باسم اسكندر الخامس (١٤٠٩) . وطلب هذا المجلس إلى البابا الجديد أن يدعو إلى الانعقاد مجلساً عاماً آخر قبل شهر مايو من عام ١٤١٢ ثم أعلن تأجيل جاساته .

وكان هذا المجلس يرجو أن يقضى على الانشقاق البابوى ، ولكن بندكت وجريجورى كلاهما رفضا أن يعترفا بسلطانه ، فإن النتيجة لم تسفر إلا عن وجود ثلاثة بابوات بدلا من اثنين . ولم يساعد موت اسكندر الخامس (١٤١٠) على إصلاح ذات البين ، فقد اختار كرادلته خلقاً له يوحنا الثالث والعشرين ، أسلس الرجال قياداً ، منذ أيام سلفه وسميه للجلوس على عرش البابوية . وكان بونيفاس التاسع قد عين باليسارى الكوسائى Baldassare of Cossa مندوباً بابوياً على بولونيا ، فحكمها ، كما يحكم رؤساء الجنود المغامرون ، حكماً مطلقاً لم يراع فيه ذمة

حولا ضميراً ، فرض فيه الضرائب على كل شيء ، بما في ذلك العهر ،
والميسر ، والربا ، وبتهم أمين سره الخاص بأنه أغوى مائتي عذراء ،
وامرأة متزوجة ، وأرملة ، وراهبة (١١) . ولكنه كان ذا مواهب عالية في
شئون السياسة والحرب ، جمع أموالا طائلة ، وقاد بنفسه قوة من الجند
تدين له هو نفسه بالولاء . ولعله كان يستطيع أن يستولى على الولايات
البابوية من جريجورى . وأن يرغم جريجورى نفسه على الخضوع لسلطانه
خضوع المفلس للدليل .

وتباطأ يوحنا الثالث والعشرون في دعوة المجلس العام إلى الانعقاد في
بيزا أكثر ما يستطيع . ولكن بحسبمند أصبح في عام ١٤١١ ملكاً على الرومان
والرئيس غير المتوج ، ولكنه الرئيس المعترف به ، للدولة الرومانية المقدسة ،
وقد أرغم يوحنا على أن يدعو مجلساً عاماً إلى الانعقاد ، واختار مدينة
كنستاس مكاناً لانعقاده لتحررها من الإرهاب الإيطالي وقابليتها للتأثر
بالنفوذ الإمبراطورى . واتخذ بحسبمند الكنيسة سنداً له ودعامة كما فعل
قسطنطين آخر من قبله ، فدعا جميع الأقباط ، والأمراء ، والوردية ، ورجال
القانون في العالم المسيحي إلى حضور المؤتمر . وأجاب الدعوة كل من كان
منهم في أوروبا عدا البابوات الثلاثة وأتباعهم . وبلغ عدد من لبوا الدعوة
وجاءوا حين سمحت لهم بذلك مراكزهم العالية ، من الكثرة مبلغاً اقتضى
جمعهم نصف عام . ولما رضى يوحنا الثالث والعشرون آخر الأمر أن يفتح
المجلس في اليوم الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ ، لم يكن قد قدم إلا جزء
صغير من البطارقة الثلاثة ؛ والتسعة والعشرين كرددنالا ، والثلاثة والثلاثين
من رؤساء الأساقفة ، والمائة والخمسين أسقفاً ، والمائة من رؤساء الأديرة ،
والثلثائة من علماء اللاهوت ، والأربعين من مندرى الجامعات ، والستة
والعشرين من الأمراء ، والمائة والأربعين من النبلاء ، والأربعة الآلاف من
رجال الدين ، نقول إنه لم يكن قد قدم إلا عدد صغير من هؤلاء . ولو أنهم

حضرُوا جميعاً لكان هذا المجلس أكبر المجالس في التاريخ المسيحي ، ولكان أعظمها شأناً بعد مجلس نيقية (٣٢٥) الذي قرر عقيدة الكنيسة المسيحية : وبينما كان سكان كنستانس في الأوقات العادية حوالى ستة آلاف نسمة ، فقد أفلحت وقتئذ في أن تأوى وتطعم خمسة آلاف مندوب حضروا المجلس وأن تمدهم فوق ذلك بحاجاتهم ، وبجيش من الخدم ، والأمناء ، والأطباء ، والباطعين الجائلين ، والدجالين ، والشعراء المداحين ، وبألف وخمسمائة من العاهرات (١٢) .

وما كاد المجلس يضع جدول أعماله حتى فوجئ بانسحاب البابا الذى دعاه إلى الانعقاد انسحاباً أشبه ما يكون بالأعمال المسرحية . ذلك أن البابا يوحنا الثالث والعشرين قد هاله أن يعلم أن أعداءه كانوا يتأهبون لأن يعرضوا على المجلس سجلاً يحوى تاريخ حياته ، وجرائمه ، وتبذله . وأشارت عليه إحدى اللجان بأنه يستطيع النجاة من هذه الفضيحة إذا وافق على الانضمام إلى جريجورى وبندكت وأن ينزل الثلاثة عن عرش البابوية في وقت واحد (١٣) ، ووافق يوحنا على ذلك ، ولكنه فر على حين غفلة من كنستانس متخفياً في زى سائس (٢٠ مارس عام ١٤١٥) ووجد له ملجأ فى قصر فى شافهوزن مع فردريك أرشدوق النمسا وعدو سجسمند . ثم أعلن فى التاسع والعشرين من شهر مارس أن جميع الوعود التى قطعها على نفسه فى مدينة كنستانس قد أرغم عليها لإرغاماً بالقوة الجبرية ، وأنها ليست لها من القوة ما يلزمه بالوفاء بها . وفى اليوم السادس من إبريل أصدر المجلس قراراً مقدساً وصفه أحد المؤرخين بأنه « أشد الوثائق الرسمية ثورية فى تاريخ العالم » (١٤) :

« إن مجلس كنستانس المقدس ، الذى هو مجلس عام ، والمنعقد انعقاداً قانونياً فى الروح المقدس ، لحمد الله ، وللقضاء على الانشقاق القائم الآن ولتوحيد كنيسة الله وإصلاحها بما ذلك رأسها وأعضاؤها - إن هذا المجلس يأمر ؛ ويعلن ، ويقرر ما يأتى : أولاً ، يعان أن هذا المجلس

المقدس . . . يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد معونته من المسيح رأساً ؛ وعلى جميع الناس مهما تكن طبقتهم ومنزلتهم بما فيهم البابوات أيضاً ، أن يطيعوا هذا المجلس في كل ما له صلة بشئون الدين ، وفي القضاء على هذا الانشقاق ، وإصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملاً في رياستها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن أى إنسان مهما تكن مرتبته ، أو صفته ، أو منزلته بما في ذلك البابا أيضاً ، يأبى أن يطيع الأوامر ، والقوانين ، والفروض ، والقواعد التي يقرها هذا المجلس المقدس ، أو أى مجلس مقدس آخر ينعقد انعقاداً صحيحاً بقصد القضاء على الانشقاق أو إصلاح الكنيسة ، يضع نفسه تحت طائلة العقاب الحق . . . وستتخذ إذا اقتضى الأمر وسائل أخرى للاستعانة بها في تطبيق العدالة (١٥) » ؛

واحتج كثيرون من الكرادلة على هذا القرار ، فقد خشوا أن يكون فيه قضاء على حق مجتمع الكرادلة في انتخاب البابا ؛ ولكن المجلس تغلب على معارضتهم ، ولم يكن لهم بعد ذلك إلا شأن صغير في نشاطه .

وأوفد المجلس وقتئذ لجنة إلى يوحنا الثالث والعشرين تدعوه إلى النزول عن عرش البابوية ، فلما لم تتلق منه جواباً صريحاً قبلت (في ٢٥ مايو) ما عرض عليها من التهم الأربع والخمسين التي وجهت إليه والتي تنص على أنه كافر ، كاذب ، متعجب بالمقدسات والمناصب الكهنوتية ، خائن ، غادر ، فاسق ، لص (١٦) ؛ وكانت هناك ست عشرة تهمة أخرى استبعدت لشدة قسوتها (١٧) . وفي اليوم التاسع والعشرين من مايو قرر المجلس خلع يوحنا الثالث والعشرين ، وقبل هو القرار بعد أن تحطمت آخر الأمر جميع آماله . وأمر سجنه بأن يُسجن في قلعة هيدلبرج طوال فترة انعقاد المجلس ، وأفرج عنه في عام ١٤١٨ ، ووجد في شيخوخته ملجأ ومقاماً عند كوزيموده ميديتشى .

واحتفل المجلس بانتصاره باستعراض طاف جميع أنحاء مدينة كنستانس ،

فلما عاد إلى العمل وجد نفسه في مأزق حرج ؛ ذلك أنه إذا اختار بابا آخر عاد إلى ما كان في العالم المسيحي من انقسام ثلاثي ، لأن كثيراً من أقاليمه كانت لا تزال تطيع بندكت أو جريجورى . وأنقذ جريجورى المجلس من ورطته بعمل دل على دهائه وشهامته معا : فقد وافق على أن يستقيل بشرط أن يسمح له بأن يدعو المجلس مرة أخرى ويخاع عليه الصفة الشرعية بما له من سلطة بابوية . ودعى المجلس إلى الانعقاد بهذه الصفة الجديدة ، وقبل استقالة جريجورى في الرابع من شهر يولييه سنة ١٤١٥ ، وأيد صحة من عينهم في مناصبهم . واختاره حاكماً من قبل للبابا على أنكونا حيث عاش في هدوء طيلة السنتين الباقيتين من حياته .

أما بندكت فقد أصر على المقاومة ، ولكن كرادلته تخلوا عنه وتصلحوا مع المجلس ، ولما حل اليوم السادس والعشرون من يولية خلعه المجلس ، فأوى إلى القصر الحصين الذي تقيم فيه أسرته في بلنسية ، حيث مات في سن التسعين ، وهو لا يزال يعدد نفسه بابا بحق . وأصدر المجلس في شهر أكتوبر قراراً يحتم دعوة مجلس عام آخر إلى الانعقاد في خلال خمس سنين ؛ وفي اليوم السابع عشر من نوفمبر اختارت لجنة المجلس الانتخابية الكردينال أودنى كولنا Oddone Colonna لمنصب البابوية ، وتسمى باسم البابا مارتن الخامس Martin V ؛ وارتضاه العالم المسيحي بأجمعه ، وبذلك انقضى عهد الانشقاق الأعظم بعد فوضى دامت تسعاً وتلاتين سنة .

وهكذا وصل المجلس إلى غرضه الأول ، ولكن نجاحه في هذه النقطة حال بينه وبين تحقيق غرضه الآخر وهو إصلاح المسيحية . ذلك أنه لما جلس مارتن الخامس على عرش البابوية استمسك بكل ما لحا من سلطان وامتيازات ، فأغضب بذلك سحسمنند الذى هو الرئيس الأعلى للمجلس ، ثم لجأ إلى الجمالة والدهاء فأخذ يخاطب كل طائفة من الجماعات القومية الممثلة في المجلس ويفاوضها في عقد معاهدة معها على حدة خاصة بإصلاح الكنيسة

وعمل على إثارة المنافسة بين كل طائفة والأخرى حتى أقنع كل واحدة منها بقبول أقل قدر من الإصلاح ، صاغه في عبارة عامة يستطيع كل حزب أن يفسرها تفسيراً يدعى فيه أنه هو الفائز ، وأنه صاحب الفضل في كل إصلاح . واستسلم المجلس له لأنه مل النزاع ، فقد ظل يكدح ثلاث سنين ، حن أعضاؤه بعدها إلى أوطانهم ، وشعروا بأن مجلساً مقدساً يعقد فيما بعد يستطيع أن يحل مشكلة الإصلاح بتفاصيل أوفى وأكثر دقة من هذا المجلس . وفي الثاني والعشرين من شهر إبريل عام ١٤١٨ أعلن المجلس فض جلساته .

الفصل الثالث

انتصار البابوية : ١٤١٨ - ١٤٤٧

لم يستطع مارتن الخامس أن يعود إلى رومة بعد انتخابه مباشرة وإن كان هو من أهل رومة . ذلك أن الطرق الموصلة إليها كانت في قبضة برانشيو دا منتوني Braccic da Montone الأفاق المغامر ، ولهذا رأى مارتن أن بقاءه في جنيف ، ثم في مانتوا ، وفلورنس آمن له وأسلم . ولما وصل أخيراً إلى رومة (١٤٢٠) روعته حال المدينة ، وما حاق بمبانيها من خراب وبأهلها من بؤس وشقاء ، فقد كانت عاصمة العالم المسيحي أقل بلاد أوروبا حضارة .

وإذا كان مارتن قد جرى على السنة السيئة التي جرى عليها أسلافه فعين في المناصب ذات المرتب الضخم والسُلطان الكبير أقاربه من آل كولنا ، فما كان ذلك إلا ليقوى أمرته ليضمن لنفسه السلامة في قصر القاتيكان . ولم يكن لديه جيش ، ولكن الولايات البابوية كانت تحيط بها من كل جانب جيوش نابلي ، وفلورنس ، والبندقية ، وميلان . وكانت هذه الولايات قد وقع معظمها مرة أخرى في أيدي طائفة من الطغاة الصغار ، يسمون أنفسهم نواب البابا ولكنهم كادوا في أثناء الانشقاق البابوي يكونون سادة مستقلين في ولاياتهم . وقد ظل رجال الدين في لمباردى قروناً طوالاً يناصبون أساقفة رومة العداء . وكان فيما وراء جبال الألب عالم مسيحي مضطرب أضاعت البابوية فيه معظم ما كان لها من احترام ، وكان يأبى أن يمدّها بشيء من العون المالي .

وواجه مارتن هذه الصعاب كلها وتغلب عليها بشجاعته وقوة عزمته ٤

فقد اعتمد بعض المال لبناء أجزاء من عاصمته . وإن كان قد ورث خزانة تكاد تكون خاوية ، وأفلح بما اتخذته من إجراءات قوية في طرد قطاع الطرق من رومة والطرق المؤدية إليها ، وهدم حصناً للصوف في منتيليو Monteipo ، وأمر بقطع رعوس زعمائهم^(١٥) ، وأعاد النظام إلى رومة ، وجمع في كتاب واحد قوانينها البلدية ، وعين رجلاً من أوائل الكتاب الإنسانيين هو بيجو برتشبوليني poggiori Barcciolin أميناً لسره ، وعهد إلى چنتيل دافريانو ، وأنطونيو پيزنيلو ، ومساتشيوان ينقشوا المظالم التي في كنيسة سانتا ماريا مجيوري والقديس يوحنا في اللاتران ، واختار رجلاً من ذوى المواهب والأخلاق الكريمة أمثال جوليانو تشيزاريني Guiliano Cesarini ، ولويس ألمانند Louis Allemand ، ودمينيكو كبرانيكا Domenico Capranica وپرسپيرو كولنا prospero Colonna أعضاء في مجمع الكرادلة . وأعاد تنظيم أداة الحكم القانونية حتى تؤدي مهمتها على أحسن وجه ، ولكنه لم يجد طريقة يحصل بها على ما يلزمه من المال إلا ببيع المناصب والخدمات الدينية . ولما كانت الكنيسة قد عاشت قرناً كاملاً بغير إصلاح ، ولكنها لا تستطيع البقاء أسرعاً واحداً بغير مال ، فقد حكم مارتن بأن المال ألزم للكنيسة من الإصلاح . ومن أجل هذا تذرع بمرسوم كنستانس فدعا مجلساً عاماً ينعقد في بافيا عام ١٤٢٣ . ولم يلب الدعوة إلى هذا المجلس إلا عدد قليل . وحتم انتشار الطاعون نقله إلى سينا ، ولما عرض أن تكون له السلطة المطلقة أمره مارتن بأن ينفذ ، وأطاع الأساقفة أمره لخوفهم أن يفقدوا كراسيهم . وأراد مارتن أن يترضى نزعة الإصلاح فأصدر في عام ١٤٢٢ قراراً بابوياً . فصل فيه بعض التغيرات الرائعة في إجراءات أداة الحكم البابوية وطريقة تمويلها ؛ ولكن قامت في سبيل ذلك الإصلاح مئات من العقبات والاعتراضات . وما لبثت هذه الاقتراحات أن غفا عليها الزمان وجر عليها النسيان ذبوله . وفي عام ١٤٣٠

جيئث مندوب ألماني في رومة إلى أميره برسالة تكاد تكون نذيراً بالإصلاح الديني الذي جاء فيما بعد :

« أصبح الشره صاحب السلطان الأعلى في البلاط البابوي ، وهو يتكرر في كل يوم لنفسه أساليب جديدة . . . لا يتراز المال من ألمانيا بدعوى أداء أجور رجال الدين . وهذا هو سبب الأصوات التي ترتفع بالتذمر والألم : هـ ، وستثار كذلك أسئلة خاصة بالبابوية ، وإلا فإن الناس سينفضون أيدهم آخر الأمر من طاعة البابا فرارا من هذا الابتزاز الظالم للأموال ؛ واعتقادى أن هذا المسلك الأخير سترتضيه كثير من البلاد (١٩) .

وواجه البابا الذي خلف مارتن ما تجمع لدى البابوية من مشاكل مواجهة الراهب الفرنسي التي الخاشع الذي لم يعد نفسه لتصريف الشؤون السياسية هـ ذلك أن البابوية كانت حكومة أكثر مما كانت دينا ؛ وكان لابد أن يكون البابوات رجال حكم ، ومحاربين في بعض الأحيان ، وقبلما كان في مقدورهم أن يكونوا من أولياء الله الصالحين . نعم إن يوجينيوس الرابع كان من هؤلاء الأولياء في بعض الأحيان ، وإنه كان عنيداً ، صلب القناة لا يلين ، وإن داء الرثية الذي كان يلزمه ويسبب له آلاماً مبرحة في يديه لا تكاد تفارقه قط ، مضافاً إلى متاعبه الجمة ، قد جعله ضجراً ملولاً ، محباً للعزلة ، منطوياً على نفسه . ولكنه كان يعيش معيشة النساك ، مقلداً من الطعام ، لا يشرب غير الماء ، قليل النوم ، مجداً كثير العمل ، حريصاً على أداء واجباته الدينية بإخلاص وضمير حتى ، لا يحمل الحق على أعدائه ، جواداً سخياً بماله ، لا يحتفظ بشيء لنفسه ، بلغ من تواضعه أنه كان لا يرفع عينيه عن الأرض (٢٠) . ومع هذا كله فقلما نجد من البابوات من كان له من الأعداء ما كان لهذا البابا .

وكان أول هؤلاء الأعداء هم الكرادلة الذين انتخبوه . فقد أرادوا أن يتقاضوا ثمن أصواتهم ، وأن يحموا أنفسهم من أن يحكمهم رجل بمفرده

كما كان يحكمهم مارتن ، فأقنعوه بأن يوقع مرسوماً Capitula ومعناها الحرفى عناوين - يعدمهم فيه بأن يطلق لهم حرية الكلام ، ويؤمنهم فى مناصبهم ، وأن يجعل لهم السيطرة على نصف إيرادهم ، وأن يشاورهم فى جميع الشئون الهامة . وأصبحت هذه « الامتيازات » سنة متبعة وسابقة جرى بها العمل فى الانتخابات البابوية طوال عصر النهضة . يضاف إلى هذا أن يوجنيوس جعل آل كولنا أعداء له أقوياء . فقد اعتقد أن مارتن أقطع هذه الأسرة كثيراً من أملاك الكنيسة ، فأمر بأن ترد إليها أجزاء كثيرة من هذه الأملاك ، وأمر بتعذيب أمين مارتن السابق تعذيباً كاد يفضى إلى موته لكى ينتزع منه معلومات عن هذا الموضوع . وشن آل كولنا الحرب على البابا ، ولكنه هزمهم بقوة الجند الذين أرسلوا إليه من مدينتى فلورنس والبندقية ، غير أنه أثار بعمله هذا عداوة رومة نفسها . واجتمع بمدينة بازل فى هذه الأثناء المجلس الذى دعا إليه مارتن ، وكان اجتماعه فى السنة الأولى من عهد البابا الجديد (١٤٣١) ؛ واقترح مرة أخرى تأييد المجلس الكنسية العامة على البابوات . فإكان من يوجنيوس إلا أن أمره بأن ينفذ ؛ ولكنه لم يطع أمره ، وطلب إليه أن يمثل أمامه ، وبعث بجند من ميلان يهاجمونه فى رومة . وانتهر آل كولنا هذه الفرصة ليثأروا لأنفسهم منه ، فدبروا ثورة فى المدينة ، وأقاموا حكومة جمهورية (١٤٣٤) . وفر يوجنيوس فى قارب صغير سار به نحو مصب التير ، بينما كان العامة يوشقونه بالسهام ، والحرا ب ، والحجارة (٢١) ، واتخذ له ملجأ فى فلورنس ، ثم فى پولونيا ، وظل هو وحكومته منفين عن رومة تسع سنين .

وكانت الكتلة الغالبة من المندوبين الذين حضروا مجلس بازل من الفرنسيين . وكان غرضهم ، كما قال أسقف تور فى صراحة ، إما أن ينتزعوا الكرسي الرسولى من الإيطاليين ، وإما أن يجردوه من سلطانه بحيث لا يهتم بعدئذ أين يكون مقره . وعملاً بهذه القاعدة استولى المجلس على

امتيازات البابوية واحداً بعد آخر : فأصدر هو صكوك الغفران ؛ ومنح الإعفاءات من الفروض الدينية ، وعين الموظفين الدينيين ، وطلب أن تؤدي له هو لالبابا باكورة مرتبات رجال الدين . وأصدر يوجنيوس قراراً آخر بجل المجلس ، فرد عليه بأن أعلن خلعه هو (١٤٣٩) ، واختار أمديوس الثامن من سافوى بابا في مكانه باسم فليكس الخامس ؛ وبهذا تجدد الانشقاق في البابوية مرة أخرى . وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم هزيمة يوجنيوس البادية للعيان ، فعقد في بوردج (١٤٣٨) جمعية من كبار رجال الدين ، والأمراء ، ورجال القانون ، كلهم من الفرنسيين ، وأعلنت هذه الجمعية سيادة المجالس على البابوات ، وأصدرت قرار بوردج التنظيمي الذي ينص على أن المناصب الكهنوتية يجب أن تملأ من ذلك الحين بمن تنتخبهم جماعات الرهبان أو القساوسة ، ولكن من حق الملك أن يصدر « توصيات » . وحرّم استئناف الأحكام إلى المجلس البابوي الأعلى إلا بعد أن تستنفذ جميع الاحتمالات القضائية في فرنسا ؛ ومنع جمع بواكير مرتبات القساوسة للبابا (٢٢) . وبذلك أوجد هذا التنظيم في واقع الأمر كنيسة فرنسية مستقلة رئيسها ملك فرنسا نفسه . واتخذ مجلس عقد في ميتر بعد عام من ذلك الوقت قرارات مماثلة لهذه أنشئت بمقتضاها كنيسة قومية في ألمانيا ؛ وكانت كنيسة بوهيميا قد انفصلت عن البابوية أثناء الثورة الهوسية Husite ؛ ووصف كبير أساقفة براج البابا بأنه « وحش سفر الروي » (٢٣) . ولاح أن صرح الكنيسة كله قد تحطم وأصبح لا يرجي شعب صده ، وأن الإصلاح القومي للكنيسة قد توطدت دعائمه قبل لوثر بمائة عام .

وكان الأتراك هم الذين أنقلوا يوجنيوس . ذلك أنه لما اقترب الأتراك العثمانيون من القسطنطينية قرر البيزنطيون أن مدينتهم خليقة بأن يكون فيما قداس روماني ، وأن عودة الاتحاد بين المسيحية اليونانية والرومانية تمهيد لآبد منه للحصول على معونة عسكرية من الغرب . وبناء على هذا بعث الإمبراطور

يوحنا الثامن ببيعة إلى مارتن الخامس (١٤٣١) تعرض عليه اجتماع مجلس من رجال الكنيستين . وبعث مجلس بازل بمندوبين إلى يوحنا (١٤٣٣) يقولون له إن المجلس أعلى سلطة من البابا ، وإنه تحت حماية الإمبراطور سيجسمند ، وإنه سيرسل المال والجند للدفاع عن القسطنطينية إذا ما تعاملت الكنيسة اليونانية مع المجلس لا مع البابا . وأرسل سيجسمند وفداً من عنده يعرض معونته بشرط أن يعرض الاقتراح الخاص باتحاد الكنيستين على مجلس جديد يدعو هو نفسه إلى الانعقاد في فيرارا . وقرر يوحنا أن يظهر يوجينوس ، واستدعى البابا إلى فيرارا من ثبوتوا على ولائهم له من رجال الدين ؛ وغادر كثيرون من كبار الأحرار ، ومنهم شيراريني ونقولا الكوزائي بازل وجاءوا إلى فيرارا ، لأنهم شعروا أن أهم ما في الأمر هو مفاوضة اليونان ؛ وطالت جلسات مجلس بازل ، ولكنها كانت مفعمة بالغضب المتزايد ، وأخذت مكانته تزداد انحطاطاً يوماً بعد يوم .

وأثار مشاعر أوروبا كلها ما تراهي إليها من الأنباء عن عودة الوحدة إلى للعالم المسيحي بعد انقسامه بين الكنيستين اليونانية والرومانية منذ عام ١٠٥٤ . وفي الثامن من فبراير عام ١٤٣٨ قدم إلى البندقية ، التي كانت لا تزال مدينة بيزنطية إلى حد ما ، الإمبراطور البيزنطي ، والبطريق يوسف بطريق القسطنطينية ، وسبعة عشر من رؤساء الأساقفة اليونان ، وعدد كبير من أساقفة الكنيسة اليونانية ، والرهبان والعلماء . واستقبلهم يوجينوس في فيرارا بأبهة لا نشك في أنها لم تكن لها قيمة كبيرة في نظر اليونان الذين اعتادوا الاحتفالات الفخمة في بلادهم . ولما افتتح المجلس جلساته اختيرت عدة لجان لإزالة ما بين الكنيستين من خلاف على حقوق البابا في الرئاسة ، وعلى استعمال الخبز القدير ، وطبيعة الآلام التي تعاني في المطهر ، وعلى انتقال الروح القدس من الأب والابن أو إليه . وظل العلماء ثمانية أشهر يجادلون في هذه المسائل ، ولكنهم لم يصالوا فيها إلى اتفاق . وانتشر الطاعون في بلدة

فبرارا في هذه الأثناء ، ودعا كوزيمو ده ميديتشي المجلس أن ينتقل إلى فلورنس ، على أن يستضيفه هو وأصدقائه . وتم هذا الانتقال بتلك الصورة ؛ ويؤرخ بعضهم بداية النهضة الإيطالية بدخول العلماء اليونان إلى فلورنس في ذلك الوقت (١٤٣٩) . وهنا تم الاتفاق على أن الصيغة التي يقبلها اليونان - وهي أن « الروح القدس يصدر من الأب عن طريق الابن » (٣) (ex Patre per filium Procedit) تعنى بالضبط ما تعنيه الصيغة الرومانية وهي أنه « يصدر من الأب والابن » ex Patre Filioque procedit ؛ ولم يستهل شهر يونية سنة ١٤٣٩ حتى تم الاتفاق كذلك على طبيعة آلام المطهر . أما حقوق البابا في الرياسة فقد أثارت نقاشاً حاراً ، حتى لقد أنذر الإمبراطور اليوناني أن يفض المجلس . غير أن بيساريون Bessaarion كبير أساقفة نيقية ، وهو بطبيعته رجل مسالم يسعى إلى الصلح ، استطاع التوفيق بين الطرفين إذ عثر على صيغة تعترف بسلطة البابا العامة ، ولكنها تحتفظ بما كان للكنايس الشرقية وقتئذ من حقوق وامتيازات . وقبلت هذه الصيغة ، ولما حل اليوم السادس من شهر يولية عام ١٤٣٩ قرأ بيساريون باللغة اليونانية كما قرأ سيزاريني باللغة اللاتينية في الكتدرائية الكبرى التي أقام فيها بروتياسكو منذ ثلاث سنين لا أكثر قبها الفخمة ، نقول قرأ هذا وذاك المرسوم الذي وحدت به الكنستان ، وقبل الحبران كلاهما الآخر ، وخر جميع أعضاء المجلس وعلى رأسهم الإمبراطور ركعاً أمام يوحنيوس الذي كان يبدو من وقت قريب إنساناً طريداً مرذولاً .

لكن ابتهاج المسيحية كان قصير الأجل . ذلك أنه لما عاد الإمبراطور اليوناني وحاشيته إلى القسطنطينية ، قوبلوا بالإهانات والشتائم ، فقد رفض رجال الدين والشعب الخضوع إلى رومة . وحافظ يوحنيوس على نصيبه في هذا الاتفاق ، وأرسل الكردينال سيزاريني إلى بلاد المجر على رأس جيش للانضمام إلى قوات لادسلاس Ladislas و هنيادي Hunyadi ،

وانتصرت هذه القوات عند نيش Nish على الأتراك ودخلت مدينة صوفيا
خافرة في مساء يوم عيد الميلاد عام ١٤٤٣ ، ثم بدد شملها مراد الثانى فى
وارنه عام ١٤٤٤ ، وسيطر الحزب المعارض للاتحاد فى القسطنطينية على
الموقف ، ولم ير البطريق جريجورى الذى أيد هذا الاتحاد بدأ من الفرار إلى
إيطاليا . واستطاع جريجورى بعدئذ أن يشق طريقه بالقوة عائداً إلى صوفيا :
ونىها قرأ مرسوم الاتحاد فى عام ١٤٥٢ ؛ ولكن الشعب ظل من ذلك الحين
يتجنب الاتصال بالكنيسة الكبرى ؛ ولعن رجال الدين المعارضون للاتحاد
كل من يؤيدونه ، ورفضوا أن يغفروا ذنوب كل من حضروا قراءة
المرسوم ، وأهابوا بالمرضى أن يموتوا دون تناول القداس بدل أن يتناولوه
من يد قس « اتحادى »^(٢٤) . ورفض بطارقة الإسكندرية ، وأنطاكية ،
وبيت المقدس قرارات « المجلس الناهب » الذى عقد فى فبراير^(٢٥) .
ويسر محمد الثانى الأمر باتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة التركية (١٤٥٣) ،
ومنح المسيحيين الحرية التامة فى العبادة ، وعين چناديوس Oennadius ،
وهو من ألد أعداء الوحدة بطريقاً فى القسطنطينية .

وعاد يوجينيوس إلى رومة فى عام ١٤٤٣ ؛ بعد أن قضى مبعوثه القائد
والكردينال فيتيليسكى Vitelleschi على الجمهورية المضطربة ، وعلى أسرة
كولنا المشاكسة بوحشية لا تضارعها وحشية الوندال أو القوط . وكان مقام
البابا فى فلورنس قد علمه تطور الآداب الإنسانية والفنون فى عهد
كوزيموده ميديتشى ، وكان العلماء اليونان الذين شهدوا مؤتمر فيرارا
وفلورنس قد أثاروا فيه الاهتمام بحفظ المحفوظات القديمة التى قد يضيعها
أو يتلفها سقوط القسطنطينية المرتقب . لهذا ضم إلى أمنائه بيجو ، وفلافيو
بيونديو ، وليوناردو برونى ، وغيرهم من الكتاب الإنسانيين الذين يستطيعون
مفاوضة اليونان باللغة اليونانية . وجاء بالراهب أنجيلكو إلى رومة ،
وعهد إليه نقش المظلمات فى معبد القداس بقصر الفاتيكان . وكان يوجينيوس

معجب بالأبواب البرنزية الكبرى التي صلبها جيبيرتي Ghiberti لمكان التعميد في كنيسة فلورنس ، ولهذا عهد إلى فيلارتي Filaarte أن يصب أبواباً مثلها لكنيسة القديس بطرس القديمة (١٤٣٣) . ومن الآن ذات البال ، أن هذا المثال لم يضع على أبواب أشهر الكنائس في العالم المسيحي اللاتيني تمثيل المسيح ، ومريم ، والرسول فحسب ، بل وضع معها أيضاً صور الماريخ ، ورومة ، وهيرون ، ولياندر ، وچوئتر ، وجنيميد ، ولم يكتف بهذا بل أضاف إليها ليدا والبجعة وإن كان عمله هذا لم يثر حتى في ذلك الوقت أى تعليق . وهكذا جاء يوجنيوس في ساعة انتصاره على مجلس بازل بالنهضة الوثنية إلى رومة .

الباب الخامس عشر

النهضة تستحوذ على إيطاليا

١٤٤٧ - ١٤٩٢

الفصل الأول

قصبة العالم

لما احتلى البابا نقولاس الخامس أقدم عرش في العالم (*) ، لم يكن حجم
أرومة يبلغ معشار حجم المدينة التي كانت تضمها أسوار أورليان (٢٧٠ -
[٢٧٥ م) ؛ وكانت أضيق رقعة وأقل سكاناً (٨٠,٠٠٠ نسمة) (١) من
البندقية ، وفلورنس ، وميلان . ولم يكن لها مورد لماء الشرب ثابت يعتمد
عليه بعد أن دمر البرابرة سقاياتها الكبرى ، نعم إنه قد بقي لها بعض
السقايات الصغيرة ، وبعض العيون ، وكثير من الأحواض والآبار ، ولكن
كثيرين من السكان كانوا يستقون من ماء التبر (٢) . وكانت كثرة السكان
تعيش في السهول غير الصحية ، معرضة لفيضان النهر وعدوى الملاريا
تتسرب إليها من المناقع المجاورة . وكان تل الكپتولين يسمى الآن منى
كبرينو Monte Caprino لأن المعز (Capri) كانت ترمى على سفوحه .
وكان تل البلاطين ملجأ ريفياً ، يكاد يخلو من السكان ، وأصبحت القصور
القديمة التي اشتق اسمها منها محاجر متربة ؛ وكانت البرجو فاتيكان Borgo

(*) هذا لأننا نعتقد أن القصة القائلة بأن الأميرة الإمبراطورية اليابانية قد تأسست في

عام ٦٦٠ ق . م خرافة لا تستند إلى دليل .

Vatican (مدينة الفاتيكان) ضاحية صغيرة على الضفة الأخرى من النهر مقابله لوسط المدينة مكدسة حول ضريح القديس بطرس المهتم . وكانت بعض الكنائس مثل كنيسة ساننا ماريا مجيورى (القديسة مريم الكبرى) أو ساننا تشيشيليا جميلة من داخلها ولكنها بسيطة من خارجها ؛ ولم يكن فى رومة كنيسة تضارع كنيسة فلورنس أو ميلان ؛ أودير يضارع التشيرتوزا دى پاڤيا Certosa di pavia ، كما لم يكن فيها قاعة عامة تسمى إلى مكانة الپلادسافيتشيو (قصر فيتشيو) أو الكاستيلوا اسفورديسكو Castello Sforzesco أو حتى الپلاتسا پيليكو (القصر العام) فى سينا . وكانت شوارع المدينة كلها تقريباً أزقة موحلة أو متربة ؛ وقليل منها مرصوف بالحصى ، ولا يضاء فيها أثناء الليل إلا عدد قليل ؛ ولم تكن تكنس إلا فى أخص المناسبات ، كعيد عام أو دخول شخصية جد خطيرة دخولا رسمياً .

وكان عماد المدينة من الناحية الاقتصادية يجرى بعضه من المراعى وإنتاج الصوف ، والماشية التى ترعى فى الحقول القريبة منها ، ولكن الجزء الأكبر منه يجرى من إيراد الكنيسة . وكانت الزراعة قليلة أو منعدمة ، والتجارة أقل من القليل ، أما الصناعة والتجارة الخارجية فقد كادت تختفيان من الوجود لافتقارهما إلى الحماية وتعريضهما لاعتداء اللصوص وقطاع الطريق . ولم تكن توجد فى المدينة طبقة وسطى — فلم يكن فيها إلا الأشراف ، ورجال الدين ، والعامه — وكان الأشراف يمتلكون كل ما لم يقع فى حوزة الكنيسة من الأراضى إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، وكانوا يستغلون الفلاحين بلا وازع من رحمة ولا ضمير خليقين بالمسيحى الصحيح . وكانوا يقضون على العصيان بقسوة ، ويتقاتلون فيما بينهم على أبهى الأوشاب السفاحين الأشداء ، الذين يحتفظون بهم وينربونهم على الضرب والفك لينفلوا أغراضهم . واغتصبت الأسر الكبيرة — وخاصة أسرة كولنا وأسرة أرسينى — المقابر والحمامات ، ودور التمثيل ، وغيرها من المنشآت القائمة

فى رومة أو بالقرب منها ، وحولتها إلى قلاع خاصة ؛ وكانت قصورها
الريفية مشيدة بحيث تؤدى الأغراض الحربية . وكان الأشراف فى العادة
يتناصبون البابوات العداء ، أو يبذلون جهدهم ليتولوا هم اختيار هؤلاء
البابوات والسيطرة عليهم . وكثيراً ما أشاعوا الاضطراب الذى أدى إلى
غرار البابوات من المدينة ، حتى لقد كان البابا بيوس الثانى يدعو الله أن
يجعل مدينة غير رومة عاصمة ملكه^(١) . ولما أن حارب سكستس الرابع
واسكندر السادس أولئك الأعيان كاث حروبهما مجهوداً يغتفر لهما للتمتع
ببعض الأمن الذى لا بد منه للكرسى البابوى :

وكان رجال الدين هم الذين يحكمون رومة عادة ، لأنهم كانت بأيديهم
الموارد الكنيسة على اختلاف أنواعها ينفقون منها . وكان الأهليون يعتمدون
على ما ينصب فى المدينة من الذهب الوارد من الأقطار المختلفة ، وعلى
ما يستطيع رجال الكنيسة أن يستخدموه فى من الأعمال بفضل هذا
الذهب ، وعلى الصدقات التى يستطيع البابوات أن يمدوهم بها منه . ولم يكن
من شأن أهل رومة أن يتحمسوا لأى إصلاح فى الكنيسة يقلل من انصباب
هذا الذهب فيها . ولما كانوا عاجزين عن العصيان الصريح فقد استبدلوا
به الهجاء اللاذع الذى لا يضارعه فى هذا هجاء آخر فى أية مدينة غير رومة
فى أوربا كلها . من ذلك أن تمثالاً فى البيانسا نافونا Piazza Navona ،
وهو فى أكبر الظن تمثال لهرقول ، قد أطلق عليه اسم پاسكوينو Pasquino
— ولعل هذا الاسم قد أخذ من اسم خياط قريب منه — واتخذ لوحة تلتصق
عليها أحدث عبارات القذف والطعن ، وكانت فى العادة عبارة عن نكت
باللغة الإيطالية أو اللاتينية ، وكانت توجه فى أكثر الأحيان إلى البابا الحاكم ،
وكان أهل رومة قوماً متدينين فى المناسبات الخاصة على الأقل ، فكانوا
يتزاحمون لتلقى البركة من البابا ، ويفخرون بأن يحذوا حلو السفراء فيقبلوا
قلميه ؛ ولكن لما أعجز داء الرثية البابا سكستس الرابع عن أن يظهر

أمامهم في الموعد المقرر لمنح هذه البركة وجهوا إليه أفترع ما في جعبة أهل رومة من السباب . يضاف إلى هذا أن البابوات أصبحوا ، بعد أن ألغى يوجينوس الرابع الجمهورية في رومة ، حكام المدينة الزمنيين ، وبذلك كان يوجه إليهم ما يوجه إلى الحكومات من شتائم . وكان سوء حظ البابوية أن يكون مقرها بين أكثر أهل إيطاليا خروجاً على القانون والنظام .

وكان البابوات يشعرون بأن لهم الحق كل الحق في أن يطالبوا لأنفسهم بقبسط من السلطة الزمنية ورقعة من الأرض يمارسون فيها هذه السلطة . ذلك بأنهم وهم رؤساء منظمة دولية ، لا يقبلون أن يكونوا أسرى في أيدي دولة بمفردها كما كانت حالهم في واقع الأمر في أفنيون . فإذا ما ضيق عليهم إلى هذا الحد عجزوا لا محالة عن أن يقدموا للناس جميعاً خدماتهم نزيهة من غير تفرقة بينهم ؛ وعجزوا أكثر من هذا عن أن يحققوا حلمهم العظيم وهو أن يكونوا الحكام الروحانيين لجميع الحكومات . ولقد كانت « هبة قسطنطين » المزعومة وثيقة واضحة التزوير (كما اعترف بملك نقولاس باستيجار فيلا) ، ولكن إهداء بين إيطاليا الوسطى للبابوية (٧٥٥) ، ذلك الإهداء الذي أيده شارلمان ، (٧٧٣) من الحقائق التاريخية التي لا شك فيها . وكان البابوات قد سکوا لهم عملة خاصة منذ عام ٧٨٢ إن لم يكن قبل ذلك التاريخ^(١) ، ولم يرتب أحد في حقهم هذا قروناً طوالاً . وكان توحيد السلطات المحلية ، الإقطاعية أو الحربية ، يسير في الولايات البابوية سيره في غيرها من الأمم الأوروبية . فإذا كان البابوات من أيام نقولاس الخامس إلى أيام كلمنت السابع قد حكموا الولايات الخاضعة لهم حكم الملوك أصحاب السلطة المطلقة ، فقد كانوا يتبعون في هذا ما جرى به العرف في زمانهم ، وكان من حقهم أن يشكوا إذا قام مصلحون ومثل جيرسن Gerson مدير جامعة باريس يطالب بالديمقراطية في الكنيسة ولكنه يستنكرها في الدولة ؛ والحق أنه لا الدولة ولا الكنيسة كانت مستعدة للديمقراطية في

الوقت الذى لم تكن الطباعة قد أخذت فيه تعم وتنتشر ؛ ذلك أن نقولاس الخامس قد ارتقى عرش البابوية قبل أن يطبع جوتنبرج الكتاب المقدس بسبع سنين ، وقبل أن يصل فن الطباعة إلى رومة بثلاثين سنة ، وقبل أن ينشر ألدوس مانوتيوس أول كتاب من كتب الآداب القديمة . وملاك القول أن الديمقراطية ترف لا يستمتع به إلا إذا تثقفت العقول وساد الأمن والسلام ؛

وكان حكم البابوات الزمنى ينبسط مباشرة على ما كان الأقدمون يسمونه إقليم لاتيوم (وهو إقليم لادسيو فى هذه الأيام) وعلى جزء صغير من الإقليم المحصور بين تسكانيا ، وأميريا ، ومملكة نابلى ، والبحر الترهينى . وكانوا فضلا عن هذا يدعون أنهم أصحاب أميريا نفسها وولايات الحدود ، ورومانيا Romogna (وهى رومانيا Romania القديمة) . ويتكون من هذه الأصقاع الأربعة منطقة عريضة تمتد فى عرض إيطاليا من البحر إلى البحر ؛ وتضم نحو ست وعشرين مدينة كان البابوات متى شاعوا يحكمونها بأيدي نائبين عنهم أو يقسمونها بين حكام الأقاليم الأخرى . وفصلا عن هذا وذاك كان البابوات يدعون أن صقلية ومملكة نابلى كلها لإقطاعيتان بابويتان ، مستندين فى ذلك إلى اتفاق عقد بين البابا إنوسنت الثالث وفردريك الثانى ؛ وأصبح أداء هاتين الدولتين جعلا لإقطاعياً للبابوية من أكبر أسباب النزاع بين حاكميهما والبابوات . يضاف إلى هذا كله أن الكوننة ماتلدا كانت قد أوصت للبابوات (١١٠٧) بتسكانيا كلها تقريباً ، بوصفها من ممتلكاتها الإقطاعية الخاصة ، عما فى ذلك فلورنس ، ولوكا ، وپستويا ، وپيزا ، وسينا ، وأردتسو ؛ وكان البابوات يطالبون بأن تكون لهم على جميع هذه الأملاك حقوق السيادة الإقطاعية ، ولكنهم قلما كانوا يستطيعون أن ينفذوا مطلبهم هذا ويجعلوه من الحقائق الواقعة .

وكانت البابوية تعاني الأمرين من جراء الفساد الداخلى ، وصجزهـ

الحربي والمالي ، واشتباك الأحوال السياسية الأوربية بالإيطالية ، والشئون الكنسية بالزمنية ؛ وظلت وتلك حالها تكافح قروناً طوالاً للمحافظة على ممتلكاتها التقليدية وتحول بينها وبين أن يمتلكها رؤساء العصابات الأفاقون المستأجرون ، وأن تعتدى عليها الدول الإيطالية الأخرى . مثال ذلك أن ميلان حاولت أكثر من مرة أن تملك بولونيا ، وأن البندقية استولت على رافنا ، وحاولت أن تضم إليها فيرارا ، وأن نابلي حاولت أن تبسط سلطانها على لاتيوم . ولقد كان البابوات يعتمدون في صد هذه الهجمات على جيشهم الصغير المؤلف من الجنود المرتزقين ، بل كانوا يشيرون هذه الدول الطامعة بعضها على بعض ؛ لينشئوا بذلك نوعاً من توازن القوى السياسية ، ويحاولون أن يحولوا بين أية واحدة منها وبين أن يصبح لها من القوة ما يمكنها من أن تلتهم الأملاك البابوية ؛ ولقد كان مكبفلي وجونشيارديني Guicciardini محقّقين حين أرجعا بعض أسباب تمزق إيطاليا إلى هذه السياسة البابوية ؛ ولقد كان البابوات على حق في الجرى عليها لأنها كانت سبيلهم الوحيدة للمحافظة على استقلالهم الروحي والسياسي عن طريق سلطانهم الزمني .

وأحسن البابوات بوصفهم حكاماً سياسيين أنهم مضطرون إلى استخدام نفس الأساليب السياسية التي يستخدمها أندادهم الحكام الزمانيون . فكانوا يوزعون - وأحياناً يبيعون - المناصب والرتب الكهنوتية إلى ذوي النفوذ ، حتى القصر منهم ، لكي يوفوا بما عليهم من الديون السياسية ، أو يحققوا أغراضاً سياسية . أو يكافئوا أو يعينوا رجالاً من الأدباء أو الفنانين . وكانوا يزوجون أقاربهم في الأسر ذات القوة السياسية ؛ وكانوا يستخدمون الجيوش كما فعل يوليوس الثاني ، أو أساليب الخداع كما استخدمها ليو العاشر (٥) ، للوصول إلى أغراضهم . وكانوا يفضون النظر عن قيام درجات من البروقراطية الخسيسة - كانوا يفيدون منها في بعض الأحيان - أكبر الظن

أنها لم تكن أشد خسة مما كانت تنصف به معظم حكومات تلك الأيام : ولم تكن شرائع الولايات البابوية أقل شدة من شرائع غيرها من الدول ، فكان مندوبو البابوات يشقون اللصوص ومزيفى النقود ويرون هذا شراً مريراً لا بد للحكومات أن تسلكه . وكان معظم البابوات يعيشون معيشة بسيطة إلى الحد الذى يميزه المظاهر والحفلات الرسمية الفخمة التى تتطلبها مناصبهم فى زعمهم ؛ وإن أسوأ القصص التى نقرأها عنهم هى أقاصيص غير مستندة إلى أساس صادق أذاعها عنهم هجاءون غير مسئولين مثل برنى Berni ، أو طلاب المناصب الذين لم ينالوا بغيتهم أمثال أرتينو Artino ، أو عملاء السلطات مثل آل إنفسورا Infessura المعادين للبابوية عداء شخصياً عنيفاً أو عداء دبلوماسياً . أما الكرادلة الذين كانوا يعرفون شئون الكنيسة الدينية والسياسية ، فكانوا يرون أنفسهم شيوعاً فى مجلس دولة غنية ، وينظمون حياتهم على أساس هذا الوضع ، وشاد الكثيرون منهم لأنفسهم قصوراً فخمة ، وناصر كثيرون غيرهم الآداب والفنون ، وأباح بعضهم لأنفسهم الاتصال بالمحاطى والعشيقات ، ولم يتحرجوا فى اتباع القانون الأخلاقى السائد فى أيام الاستهتار التى يعيشون فيها .

وواجه البابوات بوصفهم قوة روحية مشكلة للتوفيق بين النزعة الإنسانية الأدبية وبين المسيحية . ولقد كانت النزعة الإنسانية نصف وثنية ، وكانت الكنيسة قد أخذت على عاتقها اجتثاث أصول الوثنية وتقطيع فروعها ، سواء كان ذلك فى عقائدها أو فى فنها . وكانت قد شجعت تدمير الهياكل والتماثيل الوثنية أو أباحت هذا التدمير . مثال ذلك أن كنيسة أرفيتو الكبرى كانت قد شيدت توابلاً بالرخام الذى أخذ بعضه من كرارا وبعضه الآخر من الآثار الرومانية القديمة ؛ وأن مندوباً بابوياً باع كتل الرخام المأخوذة من الكلوسيوم لكى تحرق ويصنع منها الجير^(٦) ؛ وأن قصر البندقية قد بلى فى تشييده فى عام ١٤٦١ لاقبل بتدمير المدرج الفلاي . وقد استخدم نقولاس

نفسه ، في حماسته المعمارية حمل ألني عربية ونحماثة من الرخام وصخور
الترافرتين أخذها من الكلوسيوم ، ومن حلبة مكسيموس وغيرهما من المائر
القديمة لكي يعيد بها بناء كنائس رومة وقصورها^(٧). وكان انتهاج عكس هذه
الخطوة ، والاحتفاظ بما بقي من الآثار الفنية والأدبية الرومانية واليونانية
القديمة يتطلبان ثورة في التفكير الكنسي . وكانت منزلة النزعة الإنسانية في
الأدب قد علت علواً كبيراً ، وكانت الدوافع التي وراء الحركة الوثنية
الجديدة قد اشتدت وقويت ، والصيغة التي اصطبغ بها زعمائها قد عظم
تأثيرها ، بحيث لم تر الكنيسة بدءاً من أن تجد مكاناً لهذه التطورات التي
حدثت في الحياة المسيحية ، وإلا خسرت الطبقات المثقفة في إيطاليا ، ولعلها
تخسر بعد ذلك هذه الطبقات في أوروبا كلها . ومن أجل هذا احتضنت
النزعة الإنسانية في أيام نقولاس الخامس ، وانحازت بشجاعة ونبل إلى
جانب الأدب الجديد والفن الجديد وتولت زعامتهما ، وظلت مائة عام .
— تعد من أكثر الأعوام بهجة ورواء — (١٤٤٧ — ١٥٣٤) تنبع لعقل
إيطاليا قدراً عظيماً من الحرية — الحرية التي لا يفيد منها العقل كما يقول
فيليفو — والفن الإيطالي مناصرة ، وفرصاً ، ودوافع قائمة على التخصيص
والتمييز جعلت رومة مركز النهضة ، ومكنتها من أن تستمتع بعصر من أكثر
العصور لآلاء في تاريخ البشرية .

الفصل الثاني

نقولا س الخامس : ١٤٤٧ - ١٤٥٥

نشأ توماسو پارنتوتشيلي Fommosso parentucelli نشأة فقيرة في ساردسانا ، ولكنه استطاع بطريقة ما أن يلتحق بجامعة بولونيا ، وأن يقضى فيها ست سنين . ولما نفذ ماله غادرها إلى فلورنس واشتغل مربياً خاصاً في بيتي رينللو دجلي ألبتسي Rinaldo degli Albizzi وپلا ده استرنسي Palla de Strozzi . ولما كثر ماله عاد إلى بولونيا وواصل الدرس وحصل وهو في سن الثانية والعشرين على درجة دكتور في اللاهوت . وعينه نقولودجلي البرجاتي Niccolo degli Alberghati ، كبير أساقفة بولونيا مشرفاً على شئون بيت رياسة الأسقفية وأخذ به إلى فلورنس ليكون خدمة يوجينوس الرابع حين كان هذا البابا يقضى عهد منفاه الطويل : وأصبح هذا القس في السنين التي قضها بفلورنس من أصحاب النزعة الإنسانية ، دون أن يخرج بذلك على المبادئ المسيحية ، وصار صديقاً حميماً لبرقي ، ومارسويني ، ومانتي ، وأورسبا ، وپيجيو ، وانضم إلى مجتمعاتهم الأدبية . وسرعان ما التهب قلب تومس ساردسانا ، كما كان الإنسانون يسمونه ، بنار تحمسه للآداب القديمة ، فكان ينفق كل دخله تقريباً في شراء الكتب ، ويقترض المال لابتياح المخطوطات الغالية الثمن ، وجهر بأمله في أن يمكنه ماله يوماً ما من أن يجمع في مكتبة واحدة جميع الكتب العظيمة في العالم . وترجع نشأة مكتبة الفاتيكان إلى هذا المطمع العظيم^(١) . واستخدمه كوزيمو في عمل فهارس المكتبة المرقسية ، وابتهج توماسو لوجوده بين مخطوطاتها ، وقلما كان يعرف أنه يعد نفسه لأن يكون أول بابوات النهضة .

وظل عشرين عاماً يقوم بخدمة البرجاتي في فلورنس وبولونيا . فلما

مفات كبير الأساقفة (١٤٤٣) عين يوجينيوس پارتوتشيلي خلفاً له ؛ ثم عينه البابا بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت كردنالا متأثراً في ذلك بعامه ، موصلاحه ، ومقدرته الإدارية . وانقضى عام آخر ، ومات يوجينيوس ، ووجد الكرادلة أنفسهم في مأزق حرج بين أحزاب أرسيني وكولنا ، فرفعوا پارتوتشيلي إلى عرش البابوية ، وصاح هوتي وجه فسپازيانو دفا بستتشي *Vespasiano da Bisticci* قائلاً : « منذ الذي كان يظن أن عاملاً فقيراً يدق الجرس عند قسيس يصبح بابا ، ويسب بذلك الاضطراب في صفوف المبشرين ؟ » (١٠) وابتهج الإنسانيون في إيطاليا بهذا الاختيار . ونادى أحدهم فرانتشيسكو بربارو *Francesco Barbaro* بأن روئي أفلاطون . فقد تحققت : فقد أصبح الفيلسوف ملكاً :

وكان لنقولا الخامس - وهذا هو الاسم الذي اختاره لنفسه - ثلاثة أهداف : أن يكون بابا صالحاً ، وأن يعيد بناء رومة ، وأن يحيي الآداب والعلوم والفنون القديمة . وسلك في أعمال منصبه السامى مسلك التواضع والكفاية العظيمة ، لا يكاد ينقطع عن سماع شئونه ساعة من ساعات النهار ، واستطاع أن يحتفظ بعلاقات الود والصدقة بين كل من ألمانيا وفرنسا . وأدرك البابا المعارض فليكس الخامس أن نقولاس لن يلبث أن يكسب ولاء العالم المسيحي كله ، فتخلى عن جميع دعاواه ، وعفا عنه . فنقولا س فضلاً منه وكرماً ؛ وانتقل المجلس الناصر الآخذ وقتل في الانحلال من بازل إلى لوزان ثم انفض (١٤٤٩) ؛ وانتهت بذلك حركة المجالس الكنسية ، وانشعب الصراع الذي حدث في البابوية . غير أن المطالبة بإصلاح الكنيسة ظلت تجيء من وراء جبال الألب ؛ وأحس نقولاس بأنه عاجز عن الالتئام بهذا الإصلاح أمام معارضة جميع ذوى المناصب الكبيرة الذين سيفقدون مناصبهم حتماً إذا ما تم هذا الإصلاح المنشود . وكان يأمل أن الكنيسة ، وإذا ما ترعمت حركة إحياء العلوم ، ستستعيد ما كان لها من مكانة فقدتها

في أفنيون ، وفي عهد الانشقاق ؛ ولسنا نغني بهذا أن مناصرته للعلوم كانت منبعثة عن غايات سياسية ، فنحن لا نبالغنا شك في أنها كانت رغبة صادقة تكاد تكون هيما ؛ فقد قام في أيامه الأولى يرحلات شاقة فوق جبال الألب بحث فيها عن المخطوطات ، وكان هو الذي كشف في بازل عن مؤلفات ترتليان .

والآن وقد امتلأت خزائنه بإيرادات البابوية ، فقد شرع يبعث العمال إلى أثينة والقسطنطينية ، وإلى كثير من المدن في ألمانيا وإنجلترا ليجثوا عن المخطوطات اليونانية واللاتينية ، وثنية كانت أو مسيحية ، ويشتروها أو ينسخوها . وحشد في الفاتيكان طائفة كبيرة من النساخين والناشرين ، ولم يكد يترك كاتباً إنسانياً في إيطاليا إلا استدعاه إلى رومة . وفي ذلك يقول فسپازيانو معجباً به وإن كان في قوله كثير من المبالغة : « وأقبل العلماء من جميع أنحاء العالم على رومة في أيام البابا نقولاس ، بعضهم من تلقاء أنفسهم ، وبعضهم لإجابة طلبه » (١١) . وكافأهم على أعمالهم بسخاء لا يقل عن سخاء خلفاء المسلمين الذين تهر مشاعرهم نغبات الموسيقى أو قصائد الشعراء . من ذلك أن لورندسو فلا الخاضع لسلطان البابا تاقى ٥٠٠ دوقه (١٢٥٠ ر ١٢٩٠ دولار) لأنه ترجم كتاب توكيلس إلى اللغة اللاتينية ، ونال جوارينو دا فيرونا ١٥٠٠ دوقه نظير ترجمة استرايون ، ومنح نقولو بيتري Niccolo Petrotti خمسمائة دوقه نظير ترجمة پولوس ، وكلف بيجو بترجة كتاب ديودور الصقلي ؛ وأغرى ثيودورس جادسا Theodorus Gaza بالحجيء من فبراير ليجرج ترجمة جديدة لكتب أرسطو ؛ ومنح فيليلفو بيتاً في رومة ، وضيعة في الريف ، وعشر آلاف دوقه ليترجم الإلياذة والأوديسه إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ضخامة هذه المكافآت أن تردد بعض العلماء في قبولها ، ولكن البابا تغلب على التردد بأن حذرهم بشيء من الفكاهة قائلاً : « لا ترفضوا ، فقد لا تجدون نقولاس آخر » (١٢) ولما أن

أخرجوه الوباء من رومة إلى فيراريا ، أخذ معه مترجميه ونساخيه نخشية أن يهلك الوباء واحداً منهم^(١٣) . على أنه في الوقت عينه لم يهمل ما يمكن أن نسميه الأدب المسيحي القديم . فقد عرض خمسة آلاف دوقه على من يستطيع أن يأتيه بلإنجيل متى بلغته الأصلية ، واستخدم جياننيسوماتي وجورج الطريزوني ليرجما كتب سيريل Cyril ، وباسل ، وجريجورى تريانزين وجريجورى المنتشائي وغيرها من الآداب الدينية ؛ وعهد إلى مانتى وطائفة من مساعديه بأن يخرجوا ترجمة جديدة للكتاب المقدس عن النسخة العبرية الأصلية واليونانية ، لكن موته حال دون هذا العمل أيضاً . وتمت هذه التراجم اللاتينية في عجلة ، وكانت تشوبها كثير من العيوب ، ولكنها فتحت لأول مرة كتب هيرودوت ، وتوكيديدس ، وأكسانوفون ، وبولبيوس ، وديودور ، وأبيان ، وفيلون ، وثيوفراستوس . لطلاب العلم الذين لا يستطيعون قراءة اللغة اليونانية . وكتب فيللفو مشيراً إلى هذه التراجم يقول : « لم تفن اليونان ، بل هاجرت إلى إيطاليا - التي كانت في الأيام الخالية تسمى «يونان الكبرى»^(١٤) . ويقول مانتى معبراً عن شكره واعترافه بالجميل ، تعبيراً نعوزه الدقة العامة ، إن ما ترجم من الكتب في الثمان السنين التي جلس فيها نقولاس على عرش البابوية أكثر مما ترجم في الخمسة قرون السابقة بأجمعها^(١٥) .

وكان نقولاس يحب مظهر الكتب وشكلها كما كان يحب ما تحتويه صحائفها . وكان هو نفسه خطاطاً ؛ وأمر بأن يكتب له التراجم كتبة مهرة على الرق ؛ وأن تجلد أوراقها بالقטיפ القرمزية اللون ، وأن تكون لها مشابك من الفضة . ولما كثر عدد كتبه - حتى بلغ أخيراً ٨٢٤ مخطوطاً لاتينية و ٣٥٢ مخطوطاً يونانية - وضمت هذه الكتب إلى مجموعات البابوات السابقين نشأت مشكلة المكان الذي توضع فيه هذه المجلدات الخمسة الآلاف - أكبر مجموعة من الكتب في العالم المسيحي - بحيث يضمن انتقال هذه

النخيرة كاملة إلى الخلف . وكان تشييد دار الكتب في الفاتيكان من أصدق أمانى نقولاس .

وكان بناء كما كان عالما نحريراً ؛ وقد صمم منذ جلس على عرش البابوية على أن يجعل رومة خليقة بزعامة العالم . وكان عيد من أعيادها قد اقترب مواعده إذ كان يحل في عام ١٤٥٠ . وكان ينتظر قدوم مائة ألف زائر إليها في هذا العيد ، وينبغي ألا يجدوا رومة خربات رثة بالية ، وتطلبت كرامة الكنيسة والبابوية أن يطالع حصن المسيحية الحصين زائريه « بمبان فخمة ، تجمع بين حسن الذوق والجمال من جهة والفخامة والضمخامة من جهة أخرى » بحيث « يرفع هذا من شأن كرسي الرسول بطرس » . هكذا صرح نقولاس بغرضه وهو على فراش الموت معتزلاً عما قصر فيه . وقد أعاد بناء أسوار المدينة وأبوابها الكبرى ، ورسم سقاية ماء ثرجيني *Aqua Vergine* ، وأمر أحد الفنانين بأن ينشئ فسقية عند مصبها تزدان بها . وعهد إلى ليون باتستا ألبرقي بأن يخطط القصور ، والميادين العامة ، والشوارع الفسيحة ، تقبها من الشمس والمطر البواكي المعمدة . وأمر برصف كثير من الشوارع ، وتجديد كثير من الجسور ، ورسم حصن سانت أنجيلو . وأقرض أعيان المواطنين الأهوال ليساعدهم على بناء القصور التي تزدانها رومة . وجاء دبرناردو رسلينو ، إطاعة لأمره ، ككائنات سائنا ماريا مجبوري ، وسان جيوفاني لا ترنو ؛ وسان پولو ؛ وسان لورندسو القائمة خارج أسوار المدينة ، والكائنات الأربعين التي كان جريجوري الأول قد خططها لتكون محطات للصليب^(١٦) : ووضع تصحيات فخمة لبناء قصر جديد للفاتيكان يعطى بجذائقه جميع تل الفاتيكان ، ويسع البابا وجميع موظفيه ، وكرادته ، وجميع المكاتب الإدارية التابعة للحكومة البابوية . وعاش حتى أتم حجراته الخاصة التي شغلها فيما بعد اسكندر السادس وسماها جناح بوجيا) ، والمكتبة (وهي الآن البيناكونيكا

فاتيكانا) والحجرات التي نقشها رفايل فيما بعد . واستدعى بينيديتو بنشجلى من پروچيا ، وأندريا دل كستنانيو من فلورنس لينقشوا رسوماً بخصية — لم يبق لها أثر الآن — على جدران الفاتيكانا ؛ وأقنع الراهب أنجيلكو — وكان وقتئذ شيخاً طاعماً في السن — بأن يعود إلى رومة لينقش في معبد البابا نفسه قصص القديس اصطفانوس ، والقديس لورنس ، وفكر في أن يهدم باسلفا القديس بطرس المتداعية ، وأن يشيد فوق قبره أروع كنيسة في العالم ، وقُدِّر ليويلوس الثاني أن يشرع هو في تحقيق هذا الغرض الجليل .

وكان يأمل أن يحصل على ما يلزمه من المال لتحقيق هذه الأغراض كلها مما يرد إلى رومة في ذلك العيد القريب . وأعلن نقولاس أن هذا العيد سيكون — بدلاً — بعودة السلام والوحدة إلى الكنيسة ؛ ووافق ذلك هو في نفوس شعرب أوروبا : وتوافد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني بكثرة لم يسبق لها من قبل مثيل ، وشبههم شهود عيان بأسراب النمل ، وبلغ الزحام في رومة درجة اضطر معها البابا إلى أن يحدد أقصى مدة يقيمها أى زائر فيها بخمسة أيام في أول الأمر ، ثم بثلاثة ، ثم بيومين اثنين . وحدث في يوم من الأيام أن قتل مائتا شخص حين تدافع الناس فهووا في نهر التيبر . فما كان من نقولاس بعدئذ إلا أن أمر بهدم بعض البيوت ليفسح الطريق إلى كنيسة القديس بطرس . وجاء الحجاج معهم بهدايا فاقت في قيمتها ما كان يتوقعه نقولاس نفسه ، ووفت بنفقات مبانيه الجديدة ، وما خصصه من المال للعلماء والمخطوطات (١٧) . وعانت المدن الإيطالية الأخرى نقصاً في النقود لأن الأموال « كلها تدفقت في رومة » ، ولكن أصحاب النزل في رومة ، ومبدلي النقود والصيارفة ، والتجار جنوا أرباحاً طائلة ، حتى استطاع نقولاس أن يودع في مصرف آل ميديتشى وحده مائة ألف فلورين (٢٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار) (١٨) . واشتد تدمير البلاد الواقعة وراء جبال الألب من انصباب الذهب إلى إيطاليا :

وحتى في رومة نفسها شوّه بعض التذمر هذا الرخاء الطارئ . ذلك أن حكم نقولاس لهذه المدينة كان حكماً مستديراً عادلاً كما يراه هو . وكان قد وعد بتحقيق بعض الآمال الجمهورية ، بأن رشح أربعة من المواطنين يعينون هم في المستقبل جميع موظفي البلدية ، ويشرفون على شئون الضرائب التي تجبى من المدينة . ولكن أعضاء مجلس الشيوخ والأعيان وهم الطبقة التي كانت تتولى حكم المدينة حين كان البابوات يقيمون في أفنيون وفي عهد الانشقاق ، لم يرضوا عن الحكومة البابوية القائمة فيها ، كما استاء العامة من تحويل الفاتيكان إلى قصر محصن يقوى على صد أى هجوم يماثل الهجوم الذي أدى إلى طرد يوجنيوس من رومة . وكانت الأفكار الجمهورية التي ينادي بها آرنلد البيشاى ، وكولا دى ريندسو Cola di Rienzo لا تزال تثير كثيراً من العقول . وحدث في السنة التي تربع فيها نقولاس على عرش البابوية أن ألقى زعيم من أهل المدينة يدعى استفانو بركارو Stefano Porcaro خطبة حماسية نارية يطالب فيها بإعادة الحكم الذاتي إلى المدينة ، فما كان من نقولاس إلا أن نفاه من المدينة نفياً مريحاً ، إذ عينه حاكماً لأثيناي ، ولكن بركارو استطاع أن يعود إلى العاصمة ، وأن ينادى ببناء الحرية أمام جمع مهتاج في حفلة مقنعة . ونفاه نقولاس مرة أخرى إلى بولونيا ، ولكنه ترك له حريته الكاملة ولم يفرض عليه إلا أن يظهر كل يوم أمام المندوب البابوي في المدينة . بيد أن استفانو ، الذي لم يكن شئاً يثبط همته أو يقعد به عن العمل ، استطاع وهو في بولونيا أن يدبر مؤامرة محكمة أشرك فيها ثلثمائة من أتباعه في رومة . وكانت النية مبيتة على أن يهاجم المتآمرون قصر الفاتيكان في يوم عيد الغطاس أثناء قيام البابا والكرادلة بالقداس في كنيسة الرسول بطرس ، ثم يستولوا على ما فيه من كنوز ليتمكنوا بها من إقامة جمهورية ، ثم يلقوا القبض على نقولاس نفسه ويتخذونه أسيراً (١٩) . وغادر بركارو بولونيا سراً (في ٢٦ ديسمبر سنة

(١٤٥٣) وانضم إلى المتآمرين عشية يوم الهجوم المدبر . ولكن غيابه عن يولونيا عرف ، وجاء رسول إلى الفاتيكان يحذر البابا من المؤامرة . واقتفى أثر استفانو ، وعثر عليه ، وزج في السجن ، وضرب رأسه في اليوم التاسع من يناير في سانت أنجيلو . وعد الجمهوريون قتله اغتيالاً ، وندد الكتاب للإنسانيون بالمؤامرة وعدوها خيانة مروعة للبابا الخير الصالح :

وروع نقولاس ، وتبدلت حاله لما تبين له أن قسماً كبيراً من أهل المدينة يرونه طاغية مهما تكن فعالة الخيرة . وأقضت مضجعه الظنون السيئة ، وملأ الغضب صدره ، وعذبه مرض الرثية ، فأخذ ينحدر انحداراً سريعاً نحو الشيوخوخة . ولما جاءته الأنباء بأن الأتراك استولوا على القسطنطينية فوق خمسين ألفاً من جثث المدافعين عنها ، وأنهم اتخذوا كنيسة أياصوفيا مسجداً (١٤٥٣) ، خيل إليه أن ما ناله من مجد في أثناء بابويته كان بهرجا كاذباً وعيباً باطلاً قصير الأجل . وأهاب بالدول الأوربية أن تضم صفوفها لتقوم بحملة صليبية تستعيد بها حصن المسيحية الشرقية الحصين ؛ وطالب بعشر إيراد أوروبا الغربية بأجمعه ليمول به هذه الحملة ؛ وتعهد بأداء جميع إمبرادات الأملاك البابوية ، والحكومة البابوية ، وغيرها من الموارد الكنسية ؛ ثم طالب بوقف جميع الحروب المستعمرة بين الأمم المسيحية ، وإلا حرم القائمون بها من حظيرة الدين ، لكن أوروبا أصمت أذنيها عن سماع النداء . وقال الناس إن الأموال التي جمعها البابوات السابقون لتمويل حروب صليبية استخدمت في أغراض أخرى ؛ وآثرت البندقة أن تعقد مع الأتراك اتفاقاً تجارياً ، وأفادت ميلان. من متاعب البندقية فاستردت برستشيا ، ونظرت فلورنس بعين الرضا إلى فقدان البندقية تجارتها مع الشرق (٢٠) . وأحنى نقولاس رأسه أمام الحقيقة الواضحة ، وبرد دم الحياة في عروقه . وتوفي الرجل في عام ١٤٥٥ في الثامنة والخمسين من عمره بعد أن أنهكته متاعب الدبلوماسية غير المجدية وجوزى على خطايا أسلافه :

لكنه أعاد السلام إلى داخل الكنيسة . وأعاد النظام والمجد إلى رومة .
وأنشأ أعظم مكتبة في أوروبا كلها ، ووفق بين الكنيسة والنهضة . ولم يدنس
يده بالحرب ، ولم يتحيز لنزوى القربى : وبذلك كل ما يستطيع من الجهد
ليخرج بأوروبا من النزاع المؤدى إلى الانتحار . وكان هو نفسه يحيا حياة
بسيطة وسط موارد لم يسبق لها في ضخامتها مثيل ، وكان محباً للكنيسة ولكتبه .
ولم يسرف إلا في عطايه . وقد عبر إخبارى محزون عن شعور إيطاليا حين
وصف البابا العالم بأنه رجل « حكيم ، عادل . خير . رحيم ، مسالم .
شفيق ، محسن ، متواضع . . . متصف بجميع الفضائل »^(٢١) . نعم إن هذا
هو حكم المحبين ، وقد لا يرى بركوررو هذا الرأي ، ولكن لا بأس من
أن نسجل هذا الحكم .

الفصل الثالث

كلكستس الثالث : ١٤٥٥ - ١٤٦٨

وكان تفرق إيطاليا هو الذى قرر نتيجة انتخاب البابا الذى خلفه .
نقولا س : ذاك أن الكرادلة قد عجزوا عن الاتفاق على اختيار أحد الكرادلة
الإيطاليين . فعمدوا من أجل ذلك إلى اختيار كاردنال أسباني هو ألفينسوا
بورچيا Alfonso Borgia الذى تسمى باسم كلمنت الثالث . وكان البابا
الجديد قد بلغ السابعة والسبعين من العمر ، وكان موته مرتقباً بعد قليل ،
فتتاح بذلك للكرادلة فرصة اختيار أخرى قد تكون أعود عليهم بالفائدة .
وكان كلكستس متخصصاً فى القانون الكنسى بارحاً فى الدبلوماسية ، ولذلك
كان ذا عقلية قانونية ، قليل العناية بالعلوم القديمة التى شغف بها نقولا س .
وضعف فى عهده شأن الكتاب الإنسانيين الذين لم تكن لهم أصول ثابتة فى
رومة إذا استثنينا منهم فلا Valla الذى ظل بعد أن صاحبت حاله
أميناً للبابا .

وكان كلكستس رجلاً صالحاً يعطف على أقاربه ، فلم تنقض على
تتويجه عشرة أشهر حتى رفع إلى مقام الكردنالية اثنين من أبناء أخيه
— هما لويس جون دامبلا Luis Juan da Maila ، ووردريجو بورچيا —
ودون جيمى البرتغالى Don Jayme وكانت منهم على التوالى خمسة وعشرين
عاماً ، وأربعة وعشرين ، وثلاثة وعشرين . وكان يعيب ردرىجو (الذى
أصبح فيما بعد البابا اسكندر السادس) شىء آخر وهو أنه كان رجلاً
صريحاً مشتهراً فى أمور عشيقاته ؛ لكن كلكستس مع ذلك منحه أكثر
المناصب كسباً فى البلاط البابوى — فجعله نائب رئيس الحكومة البابوية .
(١٤٥٧) ، ثم عينه فى العام نفسه قائداً عاماً للقوات البابوية : وهكذا

بدأت محاباة الأقارب ، وهى الخطوة التى اتبعتها البابوات ، واحداً بعد واحد فوهبوا المناصب البابوية لأبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من أقاربهم ، وكانوا فى كثير من الأحيان أبناء البابا نفسه . وأغضب كلكتس الإيطاليين إذ أحاط نفسه برببال اختارهم من بلده فأضحت رومة الآن يحكمها القطلانيون . على أن البابا كانت تدعوه إلى ذلك أسباب معقولة : منها أنه كان أجنبياً فى رومة ؛ وأن الأعيان والجمهوريين كانوا يحكيكون المؤامرات ضده ، وكان يريد أن يكون بالقرب منه رجال يعرفهم ، يحمونه من الدسائس — بينا كان يوجه اهتمامه إلى أهم ما يعنيه — ألا وهو الحرب الصليبية : هذا إلى أن البابا كان يريد أن يكون ثمة نفر من أصدقائه فى مجمع الكرادلة الذى لا ينفك يكافح لجعل البابوية ملكية انتخابية ودستورية ، تخضع فى جميع قراراتها للكرادلة بوصفهم مجلساً للشيوخ أو مجلساً مخصصاً ، وكان البابوات يقاومون هذه الحركة ، وأفلحوا فى التغلب عليها ، كما كان الملوك يحاربونها ، وكما أفلحوا فى القضاء عليها ؛ لا فرق بين هؤلاء وأولئك . وكان النصر فى كلتا الحالين حليف الملكية المعالقة ؛ ولكن لعل استبدال الاقتصاد القومى بالاقتصاد المحلى ، واتساع مجال العلاقات الدولية وتعمدها ، يتطلبان ، إلى وقت ما ، تركيز الزعامة والسلطان . وأنها كلكتس آخر قطرات نشاطه فى محاولته غير المجدية لإثارة أوروبا والإهابة بها إلى مقاومة الأتراك . ولما مات احتفلت رومة بانتهاء حكم « البرابرة » لها ، ولما رشح الكردينال پكولومينى Piccolomini خلفاً له . انتهجت رومة كما لم تنهج من قبل لاختيار أى بابا فى خلال المائتى العام الأخيرة .

الفصل الرابع

بيوس الثانى : ١٤٥٨ - ١٤٦٤

بدأ إنيا سلفيو ده بـكولومينى Enea Silvio de Piccolomini حياته فى عام ١٤٠٥ فى بلدة كرمديانو القريبة من سينا . وكان أبواه فقيرين ولكنهما من أرومة مجيده . ودرس القانون فى جامعة سينا ، ولكن القانون لم يرق له لأنه كان يميل إلى الأدب ، غير أنه أكسب عقله حدة وانتظاماً فى التفكير ، وأعدده لواجبات الإدارة والسياسة . ودرس الآداب الإنسانية فى فلورنس على فيليو ، وظل من ذلك الوقت ذا نزعة إنسانية ، ثم عينه الكردنال كبرازنيكا أميناً له ورافقه إلى مجلس بازل ، وهناك اجتمع مع طائفة من أعداء يوجينيوس الرابع ؛ وبقي بعد ذلك كثيراً من السنين يدافع عن حركة المجالس ضد سلطان البابوية ، ثم اشتغل وقتاً ما أميناً لفليكس الخامس البابا المعارض . ولكنه أدرك أنه قد راهن على الجواد الخاسر ، فأغرى أحد الأساقفة بأن يقدمه للإمبراطور فردريك الثالث ، وما لبث أن عين فى منصب فى البلاط الملكى . حتى إذا كان عام ١٤٤٢ رافق فردريك إلى النمسا ، وظل مرتبطاً به بعض الوقت :

ولم تبد عليه فى تلك السنين التى كان يتكون فيها عقله نزعة خاصة ، وكل ما فى الأمر أنه كان إنساناً نشيطاً يرقى فى المناصب . غير ذى مبادئ يحرص عليها ، أو هدف يبتغيه غير النجاح ؛ فقد كان ينتقل من جانب إلى جانب دون أن يذب اليأس إلى قلبه . ومن امرأه إلى امرأة وهو مرح متقلب قلباً يبدو له — كما كان يبلو لمعظم معاصريه — أنه هو التدريب الصحيح لواجبات الزوجية ، وشاهد ذلك أنه كتب إلى صديق له رسالة يقصد بها التغلب على عناد فتاة تؤثر الزواج على الفجور (٢٢) . وكان له

عدد من الأبناء غير الشرعيين بعث بواحد منهم إلى أبيه وطلب إليه أن يريه ، واعترف له بأنه « ليس أكثر قداسة من داود ، ولا حكمة من سليمان » (٢٣) ؛ وكان في وسع الشاب الخبيث أن يقتبس من الكتاب المقدس ما يؤيد أغراضه . وكتب رواية من طراز كتابات بوكاتشيو ، ترجمت إلى اللغات الأوروبية كلها تقريباً ، وكانت مما يجابه به لما تولى منصبه الديني . وقد تردد طويلاً في لبس المسموح ، وإن كان يعلم أن رقيه في المستقبل يتطلب أن ينخرط في سلك رجال الدين ؛ وذلك لأنه كان يشك كما يشك أوغسطين في قدرته على التعفف (٢٤) . وكتب يعارض مبدأ عدم زواج رجال الدين (٢٥) .

ولكنه احتفظ وسط هذا التقلب كله بالإخلاص للأدب . ذلك أن إحساسه المرهف بالجمال ، وهو ذلك الإحساس الذي أفسد أخلاقه ، قد جعله هوى الطبيعة ، ويولع بالأسفار ؛ وهو الذي كون أسلوبه الذي جعله أكثر الكتاب إمتاعاً ، وأفصح الخطباء في القرن الخامس عشر كله . وقد كتب في فروع الأدب كلها تقريباً — وكانت كلها إلا القليل النادر باللغة اللاتينية ؛ كتب في القصص ، والشعر ، والفكاهات الشعرية ، والحوار ، والمقالات ، والتواريخ ، والأسفار ، والجغرافية ؛ وكتب الشروح والتعليقات ، والمذكرات ؛ وكتب مسلاة ، وكانت كلها بتمحس وظرف لا يقلان في ذلك عن أجمل ما في كتابات پترارك النثرية . وكان يسعه أن يكتب أية وثيقة من وثائق الدولة ، ويعد أو يرتجل خطبة بمهارة تقنع قارئها أو سامعها ، وتأسر بسلاستها عقل من يطلع عليها . وكان من خصائص ذلك العصر أن إينياس سلفيوس Aeneas Sylvius بدأ من لا شيء ولكنه ارتقى إلى مقام البابوية على سن قلمه . ولسنا ننكر أن أشعاره لم يكن لها من العمق أو القدر ما يخلدها ، ولكنها بلغت من الرقة حداً جعله يتلقى تاج الشعر من فردريك الثالث (١٤٤٢) دليلاً على اغتباطه بشعره . وكان لمقالاته

سحر وخدعة عوضاً ما كان ينقص كاتبها من قوة العقيدة أو التمسك بالمبدأ ، وكان يسع ، أن يذمّل من حديث عن « شقاء حياة البلاط » (٢٦) التي يقول فيها إن « الرذائل كلها تنصب في بلاط الملوك كما تنصب مياه الأنهار في البحار » إلى رسالة في « طبيعة الخبل والعناية بها » . وكان من الخصائص الأخرى لذلك العصر أن خطابه الطويل في التربية - الذي كتبه إلى لادسلاس ملك بوهيميا ، ولكنه كان يقصد نشره - لم يقتبس فيه إلا من الكتاب الوثنيين ، اللهم إلا عبارة واحدة اقتبسها من غيرهم ، وأنه لم يضرب إلا أمثلة مستمدة من هؤلاء الكتاب ، وأنه نظم عقود المديح للدراسات الإنسانية ، وحث الملك على أن يعد أبناءه لتحمل مشاق الحرب وتبعاتها لأن « المسائل الجدية لا تسويها القوانين بل قوة السلاح » (٢٧) . وتعد مذكراته التي كتبها عن أسفاره خير ما كتب من نوعها في أدب النهضة كله ، ذلك أنه لم يكتف بوصف المدن والمناظر الريفية وصفاً ذا فتنة ومتعة ؛ بل وصف فوق ذلك صناعات البلاد التي زارها ، وغلاتها ، وأحوالها السياسية ، ونظمها الحكومية ، وعادات أهلها وأخلاقهم ؛ ولم يكتب أحد بعد بترارك عن الريف يمثل ما كتب هو من حب وإعزاز . وكان هو دون غيره من الإيطاليين في قرون عدة الذي أحب ألمانيا ؛ وكان يجد كلمة طيبة يقولها عن الصيخابين من أهل المدن الذين يملأون الهواء بأغانيهم ويملأون بالجنة بطونهم ، بدل أن يغتال بعضهم بعضاً في الشوارع . وكان يصف نفسه بأنه مريض على أنه يرى مختلف الأشياء (٢٨) ، وكان من أقواله المأثرة التي يكررها على الدوام « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » (٢٩) . وحول قلمه المطواع لكتابة التاريخ ، فكتب عدة تراجم قصيرة للمشهورين من معاصريه ؛ وكتب سيرة بترارك ، وتاريخ الحرب الهوسية Hussite Wars ، وموجزاً لتاريخ العالم . ثم وضع خطة لكتابة تاريخ للعالم وجغرافيته أكبر من التاريخ السابق ، وظل يعمل فيه وهو بابا ، وأتم قسمه الخاص بأسية والذي عني

كوليس بقراءته^(٣٠) : وكان وهو بابا يكتب من يوم إلى يوم مذكرات *Commentaria* يسجل فيها تاريخ حكمه حتى مرض مرضه الأخير . وكان وهو هذه المرحلة من حياته « يقرأ ويملي حتى وهو راقد على فراشه حتى منتصف الليل ، كما يقول معاصره بلاتينا *Platina* ، ولم يكن ينام أكثر من خمس ساعات أو ست »^(٣١) . وكان يعتذر لأنه يقضى وقت البابوية في الأعمال الأدبية ويقول : « إننا لم نختلس وقتاً من واجباتنا ؛ بل إننا منحنا الكتابة من الوقت ما كان يجب أن نقضيه في النوم ؛ وقد حررنا شيخوختنا من الراحة حتى نورث الأجيال القادمة كل ما نعرف أنه خليق بأن يخالد »^(٣٢) .

وبعث الإمبراطور يابنياس سلفيوس رسولا إلى البابا في عام ١٤٤٥ . واعتذر الرجل الذي هاجم يوجينيوس مائة مرة اعتذاراً تأثر من فصاحته البابا الرحيم فلم يسعه إلا أن يعفو عنه ، وأصبحت روح إينياس من ذلك اليوم ملكاً ليوجينيوس : ورسم قسيساً (١٤٤٦) ، ولما بلغ الحادية والأربعين من العمر ركن إلى العفة والطهارة ، وعاش من ذلك الحين معيشة مثالية . واحتفظ بولاء فردريك للبابوية ؛ واستطاع سياسته الحصيفة ، الملتوية في بعض الأحيان ، أن يعيد ولاء الناجين والأخبار الألمان إلى الكرسي الرسولي . وأبتظت زيارته لرومة وسيناحبه لإيطاليا من جديد ، فحل روابطه بفردريك شيئاً فشيئاً ، وأحكمها ببلاط البابا (١٤٥٥) . لأنه كان يرغب على الدوام في أن يعود إلى معمعان السياسة وإلى موطنه الأول ؛ ذلك أنه في رومه سيكون في مركز الحركة كلها ؛ ومن يدرى لعله وهو في وسط الحادثات الصاخبة وتقلباتها يتنسم عرش البابوية . فاما كان عام ١٤٤٩ حين أسقفاً لسينا ، وفي عام ١٤٥٦ أصبح الكردينال پكولوميني .

ولما حل الوقت الذي يجب أن يختار فيه خليفة لكالكستس ، أراد الإيطاليون في المجمع المقدس أن يتفادوا اختيار الكردينال دستوتيفيل *Cardinal d' Estouteville* ، فأعطوا أصواتهم لپكولوميني لأن الكرادلة

الإيطاليين صمموا أن يحتفظوا بالمجمع المقدس لإيطاليا صمماً ، وكان تصميمهم هذا مبنيًا على أسباب شخصية وعلى خوفهم من أن البابا الغير الإيطالي قد يعيد الانشقاق إلى العالم المسيحي بانحيازه إلى بلاده أو بنقل كرسي البابوية من إيطاليا . ولم يجابه أحد إنياس بذنوب شبابه ، ولم يتردد الكردنال ردريجو بورجيا المرح في أن يدلي له بصوته في غير موارد : وأحست الكثرة الغالبة أن الكردنال ب كولومبني ، وإن لم يرتد التملسوة الحمراء (*) إلا من عهد قريب ، كان واسع التجربة ، كما كان دبلوماسياً ناجحاً واسع الاطلاع على شئون ألمانيا المتعبة وعالمها يرفع بعلمه مكانة البابوية .

وكان وقتئذ في الثالثة والخمسين من العمر ، وكانت حياته الكثيرة المغامرات قد أثرت كثيراً في صحته حتى بدا وكأنه شيخ طاعن في السن . وبينما هو مسافر من هولندا إلى اسكتلندا (١٤٣٥) ، إذ اضطرب البحر اضطراباً بعث في نفوس المسافرين أشد الهول والانزعاج - حتى انه استغرقته الرحلة من سلويس Sluys إلى دنبار Dunbar اثني عشر يوماً - فأقسم إذا نجا أن يسير حافي القدمين إلى أقرب ضريح للعدراء . وحدث أن كان هذا الضريح في هويت كيرك Whitekirk على بعد عشرة أميال من المكان الذي نزل فيه . وبسرَّ يمينته ، ومشى المسافة كلها وهو حافي القدمين فوق الثلج والجليد ، وأصيب بداء الرثبة وظل يعاني منه أشد الآلام إلى بقى من حياته . ولم يحل عام ١٤٥٨ حتى كان مصاباً بحصاة في الكاوتين ، وبسعال مزمن . وغارت عيناه ، وامتقع لون وجهه ، « ولم يكن في وسع الناس أحياناً » كما يقول پلاتينا « أن يقولوا إنه حي إلا حين يسمعون صوته » (٢٢) . وكان وهو بابا يعيش عيشة بسيطة يراعى فيها جانب الاقتصاد ؛ وكانت نفقات بيته في الفاتيكان أقل ما سجله التاريخ من نفقات هذا البيت .

(*) أي لم يصبح كردنالا . (المترجم) .

وكان إذا أمكنته واجبات منصبه يأوى إلى ضاحية في الريف ، يعيش فيها كما يعيش القروى الشريف المتواضع لا كما يعيش البابوات (٢٤) . وكان أحياناً يحضر مجامع الكبرادلة أو يستقبل السفراء ، في ظلال الأشجار أو بين غياض أشجار الزيتون ، أو إلى جوار عين باردة أو ماء جار . وكان يسمى نفسه من قبيل التورية سلفارم أماتور Silvarum Amator أى محب الغابات ؛

وقد اشتق اسمه البابوى من عبارة فرجيل التى يكررها كثيراً وهى prius Aeneas أى إيفياس التى . وإذا جاز لنا أن نتغاضى عما فى ترجمة هذه الصنمة من خطأ قليل أجحاً العرف ، قلنا إنه عاش عيشة ينطبق عليها هذا الوصف : فقد كان تقياً ، أميناً فى أداء واجباته ، خيراً ، متسامحاً ، معتدلاً حلماً ، كسب قلوب جميع الناس حتى الساخرين من أهل رومة . ولما كبر تخلّى عن شهوانية شبابه ، وأصبح من الناحية الأخلاقية باباً نموذجياً . ولم يحاول قط أن يخفى ما كان له فى أيامه الأولى من مغامرات فى الحب ، أو ما قام به من دعاوة للمجالس الكنسية المعارضة للبابوية ، ولكنه أصدر قراراً يستنكر فيه ما فعل (١٤٦٣) ؛ ويصرح فيه إلى الله وإلى الكنيسة أن يغفرا له أخطائه وذنوبه . وخاب رجاء الإنسانيين الذين كانوا يتوقعون أن يبسط عليهم البابا ذو النزعة الإنسانية رعايته ويغلق عليهم عطاياه ، وذلك حين وجدوا أنه لا يؤدى إليهم أجوراً عالية ، وإن كان يستمتع بصحبته ، وإن عين بعضهم فى مناصب إدارية فى حكومته البابوية ؛ بل كان يحتفظ بأموال البابوية ليجهز بها حملة صليبية على الأتراك . على أنه ظل فى أوقات فراغه إنسانى النزعة : فقد كان يعنى أشد العناية بدراسة الآثار القديمة ، ونهى عن تدمير شىء آخر منها ؛ وأمن أهل أربينو Arpino لأن شيشرون ولد فى تلك المدينة ؛ وأمر بترجمة هوميروس ترجمة جديدة ، وعين پلاتينا وبينادو فى أمانته العامة . واستقدم مينودا فيسولى Mino da Fiesole ليقوم ببعض أعمال النحت فى كنائس رومة ، كما استقدم

فليبينو لى Eilippino Lippi ليمتقشها . وأطلق العنان لخيالاته بأن شيد من تصميم وضعه برناردو رسلينو ، كنيسة كبرى وقصر بركولومبى فى بلدته كرسنيانو Corsignano التى سماها بيندسا Pienza باسمه . وكان يفخر بكرم محنته فحضر الفقراء العريقى النسب ، وأفرط فى ولائه لأصدقائه وأقاربه إفراطاً أضر بمصالح الكنيسة ، فقد أصبحت الفاتيكان فى أيامه خلية بركولومبىة .

وكانت مدة بابويته تزدان بعلمين من جلة العلماء ، أحدهما فلافيو بيندو Flavio Biondo الذى كان أميناً للبابوية من أيام نقولاس الخامس ، والذى كان رمزاً للنهضة المسيحية : وكان فلافيو مولعاً بالآثار القديمة ، أنفق نصف حياته فى كتابة تاريخها ووصف بقاياها ؛ ولكنه كان طوال الوقت مسيحياً تقياً ، صاق الإيمان ، لا ينقطع عن أداء الشعائر الدينية : وكان ييوس يعرف له قدره ويتخذ مرشداً له وصديقاً ، ويفيد من مرافقته فى زيارة الآثار الرومانية . ذلك أن بيندو كان قد كتب موسوعة من ثلاثة أجزاء أسماها رومة العائمة ، رومة الظافرة ، وإيطاليا الباهرة ، سجل فيها تخطيط إيطاليا القديمة ، وتاريخها ، وأنظمتها ، وشرائعها ، ودينها ، وعاداتها ، وفنونها . وأعظم من هذه الموسوعة على عظمتها كتابه المسمى تاريخ المخطاط الرومان وهو شبيه بكتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » ، وإن كان أكبر منه حجماً ، وهو يصف أحوالها من ٤٧٦ حتى ١٢٥٠ ، أى فى أولى الفترات العصبية من العصور الوسطى . ولم يكن بيندو صاحب أميلوب أدبى رفيع ، ولكنه كان مؤرخاً يفرق بين الغث والسمين ؛ وكانت مؤلفاته هى التى قضت على الأقاصيص الخرافية التى كانت تحتفظ بها المدن الإيطالية وتعزوها لنشأتها إلى أصول طروادية أو غير طروادية . وكان العمل الذى أخذ على عاتقه القيام به أعظم من أن تتسع له سنو بيندو الخمس والسبعون ؛ ولهذا لم يتمه حين توفى فى عام ١٤٦٣ ؛ ولكنه ضرب

به المثل للمؤرخين الذين جاءوا بعده في الدراسة الواسعة النزيهة .
وكان الكردنال جون بيساريون أداة حية لنقل الثقافة اليونانية التي كانت
تدخل وقتئذ إلى إيطاليا . وكان مولده في طربزون ، وتلقى في القسطنطينية
دراسة واسعة في الشعر ، والخطابة ، والفلسفة اليونانية ؛ وواصل دراسته
على الفيلسوف الأفلاطوني الدائع الصيت جمستوس پليثو Gemistus Pletho
في مسترا Mistra . ثم قدم إلى مجلس فلورنس بوصفه كبيراً لأساقفة
نيقية ، وكان له شأن عظيم في توحيد الكنيستين اليونانية واللاتينية . ولما عاد
إلى القسطنطينية ، نبذه صغار رجال الدين والشعب هو وغيره من
« الاتحاديين » . وعينه البابا يوجنيوس كردنالا (١٤٣٩) ، وانتقل بيساريون
إلى إيطاليا ومعه مجموعة قيمة من المخطوطات . فلما قدم إلى رومة أصبح
بيته ندوة للكتاب الإنسانيين ؛ وكان يجبو ، وفلا ، وپلاتينا ، من أقرب المقربين .
إليه من الأصدقاء ؛ وكان فلا يسميه « أعلم العلماء الهلنستيين بين اللاتين » .
وأكثر العلماء اللاتينيين تهدياً بين اليونان (٣٥) . وقد أنفق كل دخله تقريباً
في شراء المخطوطات أو نسخها . وترجم هو نفسه كتاب ما بعد الطبيعة
لأرسطو ، ولكنه وهو من مريدى جمستوس كان يؤثر عليه أفلاطون ،
وكان يتزعم المعسكر الأفلاطوني في الجدل العنيف الذي جمى وطيسه وقتئذ
بين الأفلاطونيين والأرسطوطالين . وانتصر أفلاطون في هذه الحرب وانتهت
بذلك سيطرة أرسطو الطويلة على الفلسفة الغربية . ولما عين البابا نقولاس
الخامس بيساريون قاصداً رسولياً له في بولونيا ليحكم منها رومانيا وأقاليم
التخوم ، قام بيساريون بواجبات الحكم خير قيام ، فلم يسمع نقولاس إلا أن
يسميه « ملك السلام » . وقد عهد إليه پيوس الثاني بعدة مهام دبلوماسية
شاقة في ألمانيا التي أخذت مرة أخرى تغلى فيها مراحل الثورة على الكنيسة
الرومانية . ولما قربت منيته أوصى بمكتبته إلى مدينة البندقية ، حيث لا تزال
تكون جزءاً لا تقدر قيمته من المكتبة المرقسية Bibliote Marciana .

وكاد ينتخب للجلوس على عرش البابوية في عام ١٤٧١ ، ثم مات بعد عام من ذلك الوقت ، وهو موضع الإجلال والتكريم في جميع أنحاء العالم لعلمه الغزير .

وأخفقت بعثته إلى ألمانيا : ويرجع بعض السبب في إخفاقها إلى أن الجهود التي بذلها بيوس الثاني لإصلاح الكنيسة لم تنجح ، ويرجع البعض الآخر إلى أن محاولة جديدة بذلت لتحصيل العصور لتمويل حملة صليبية ، قد بعثت كراهية الشعوب التي وراء جبال الألب لرومة . وعين بيوس في بداية ولايته لجنة من كبار الأحرار لوضع منهاج للإصلاح ؛ وقبل في ذلك مشروعا عرضه عليه نقولاس الكرستى وأعلته في مرسوم بابوى ، ولكنه لم يجد أحداً في رومة يريد الإصلاح ، لأن نصف من فيهم الكبار كانوا يحنون نفعا كبيرا من المفساد التي طال عليها العهد ؛ وتغلب الجحود والمقاومة السلبية على جهود بيوس ؛ وكانت الصعاب التي واجهها في الوقت عينه في ألمانيا ، وبوهيميا ، وفرنسا قد استنفدت قواه ؛ كما أن الحرب الصليبية التي كان يدبر أمرها قد استنفدت جميع حوافه الدينية ، وتطلبت منه المال الكثير . ولهذا قنع بأن يلوم الكرادلة على حياتهم الشهوانية ، وأن يقوم من حين إلى حين ببعض الإصلاحات المتقطعة في نظم الأديرة . وأصدر في عام ١٤٦٣ آخر نداء إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس إنا نسعى وراء اللذة ، وجمع الثراء ، وإنا متعطرسون ، نمتطي البغال السمينة ، والأمهار الجميلة ، ونجر أذيال أثوابنا من خلفنا ، ونطل بوجوهنا المستديرة المكتنزة من تحت القبة الحمراء ، والقنادسة البيضاء ، ونربي الكلاب للصيد ، وننفق الكثير من المال على الممثلات والطفيليين والطفيليات ، ونضن بالقليل على شئون الدين . وإن لهم لبعض الحق فيما يقولون : ذلك أن من بين الكرادلة وغيرهم من الموظفين في بلاطنا من يحبون هذا النوع من الحياة . وإذا شئتم الحقيقة قلت لكم إن

الترف والآهة الكاذبة زادا في بلاطنا على الحد ، وهذا هو الذى يجعل الناس يمتقوننا مقتاً يمنعهم من أن يستمعوا لنا ، حتى حين نطق بما هو حق ومعقول . وماذا تظنون أنا فاعلوه في هذه الحال التى تجللتنا العار ؟ يجب علينا أن نبحث عن الوسائل التى كسب بها أسلافنا ما كان لهم من سلطان واجتبرام في داخل الكنيسة ثم علينا بعد ذلك أن نحفظ بسلطاننا هذه الوسائل ذاتها . إن الذى سما بالكنيسة الرومانية وجعلها سيدة العالم كله هو الاعتدال ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين واحتقار الدنيا ، والرغبة في الاستشهاد (٣٦) .

وقدر على البابا أن يقاسى إخفاقاً بعد إخفاق في اتصالاته بالدول الأوروبية مع أنه لاقى قبل أن يجلس على عرش البابوية نجاحاً مطرداً في مهامه الدبلوماسية : نعم إن لويس الحادى عشر قد أتاح له نصراً قصير الأجل بلغائه قرار بورج التنظيمى ، ولكن لويس عاد فألغى هذا الإلغاء في واقع الأمر لما رفض بيوس أن يساعد بيت أنجوفيا كان يدبره من الخطط لاسترداد نابلى . وواصلت بوهيميا ثورتها التى ألحبت لظاها جون هوس John Huss ؛ ذلك أن الإصلاح الدينى كان قد بدأ فيها قبل أيام لوثر Luther بقرن كامل ، وكان ملكها الجديد جورج بودبراد George Podebrad يمدّها بمعونته القديمة . وظل رجال الدين على اختلاف درجاتهم يؤيدون الأمراء الألمان في مقاومتهم بلحاية العشور ، وجددوا الصيحة القديمة صيحة عقد مجلس عام لإصلاح الكنيسة والإشراف على أعمال البابا . ورد بيوس على هذا بإصدار قرار اللعن الذى يندد بأى محاولة ترمى إلى عقد مجلس عام لا يوافق البابا على عقده ، ويكون هو الداعى إليه ، ويحرم هذه الدعوة ؛ وبرز هذا القرار بقوله إنه إذا كان في مقدور المعارضين لتسياسة البابوات عقد هذا المجلس في أى من الأوقات ، تعرضت حقوق البابا التشريعية للإخطار على الدوام ، وشل النظام الكنسى من أوله إلى آخره .

وأفسد هذا النزاع ما كان يبذله البابا من جهود لتوحيد أوروبا ضد الأتراك ؛ وجهر يوم تتويجه نفسه بارتياحه الشديد من تقدم المسلمين بإزاء نهر الدانوب في طريقهم إلى فيينا ، واختراقهم بلاد البلقان إلى البوسنة . وكانت بلاد اليونان ، وإيرسوس ، ومقدونية ، والصرب ، والبوسنة تتساقط كلها في أيدي المسامين . ومنذا الذى كان يستطيع أن يقول متى يعبرون البحر الأدريايوى وينقضون على إيطاليا ؟ ولم يمحض على تتويج بيوس شهر واحد حتى أرسل إلى جميع الأمراء المسيحيين بدعوتهم للانضمام إليه في مؤتمر كبير يعقد في مانتوا ليضعوا الخطط التى تكفل حماية العالم المسيحى الشرقى من تيار العثمانيين الجحافل ؛

ووصل هو إلى مانتوا في السابع والعشرين من مايو عام ١٤٥٩ ، يرتدى أفخم الأثواب الخاصة بمنصبه الرفيع ، واخترق المدينة في محمل يحف به أعيان المدينة وموظفو الكنيسة . وألقى على الجموع المحشدة لاستقباله خطبة من أقوى الخطب التى ألقاها في حياته وأعظمها تأثيراً . ولكن أحداً من ملوك الأقاليم الواقعة وراء الألب وأمراءها لم يلب الدعوة ، بل لم يرسل واحد منهم ممثلين لهم الحق في أن يزجوا بدولتهم في الحرب ؛ ذلك أن الزعة القومية قد بلغت وقتئذ من القوة ما يجعل البابوية تتضرع بغير جدوى أمام عروش الملوك ؛ وحث الكرادلة البابا على الرجوع إلى رومة ؛ ولم يكونوا فضلاً عن هذا راغبين في أن ينزلوا عن عرش إيرايدهم لتمويل الحرب الصليبية المرتقبة . فمنهم من انغمسوا في ملاذهم ، ومنهم من جابهوا بيوس بسؤاله هل يريد منهم أن يموتوا بالحصى في صيف مانتوا الشديد الحرارة ؟ وانتظر البابا قدوم الإمبراطور زمناً طويلاً ؛ ولكن فردريك الثالث آثر أن يعلن الحرب على الجبر يريد بذلك أن يضم إلى ملكه الأمة التى كانت أنشط الأمم استعداداً لمقاومة الأتراك ، آثر هذا على القدوم لمساعدة الرجل الذى قدم له فيما مضى أجل الخدمات . واشترطت فرنسا لمعاونتها أن يؤيدها البابا في حملة لها

على ناپلى ، وتلكأت البندقية خشية أن تكون أملاكها الباقية لها فى بحر إيجه أولى ضحايا الحرب التى تنشب بين أوربا المسيحية والأتراك . وجاءت أخيراً بعثة فى شهر أغسطس من فليب الطيب دوق برغندية ؛ وفى سبتمبر أقبل فرانثيسكو اسفوردسا وتبعه غيره من أمراء إيطاليا ؛ وعقد المؤتمر أولى جلساته فى السادس والعشرين من هذا الشهر بعد أربعة أشهر من قدوم البابا ؛ ومرت أربعة أشهر أخرى فى الجدل والنقاش ، واستطاع فليب آخر الأمر أن يضم برغندية وإيطاليا إلى جانبى فى خطته المرتقبة للقيام بحرب مقدسة ، وذلك بعد أن اتفق المؤتمر على تقسيم الأملاك التركية وقتلذ والأملاك البزنطية السابقة بين الدول المنتصرة . وقد طلب إلى جميع المسيحيين من غير رجال الدين أن يتبرعوا بجزء من ثلاثين من دخلهم ، وإلى جميع اليهود بجزء من عشرين منه ، ومن جميع رجال الدين بجزء من عشرة من هذا الإيراد . وعاد البابا إلى رومة وهو يكاد يكون خائر القوى من أثر ما بذله من جهود ، ولكنه أمر بإنشاء أسطول بابوى ، وأعد العدة رغم ما كان ينتابه من أمراض الرثية ، والسعال ، والحصاة لأن يقود الحملة الصليبية بنفسه . ولكنه مع ذلك كان يهاب الحرب بفطرتة ، ويحلم بأن ينال النصر عن طريق السلم . ولعل ما كان يشاع من أن محمداً الثانى الذى كانت أمه مسيحية يميل فى السر إلى دينها قد بعث الشجاعة فى قلب بيوس ، فوجه إلى السلطان (١٤٦١) دعوة حارة لقبول إنجيل المسيح كانت أبلغ ما كتب حتى ذلك الوقت :

« إذا اعتنقت المسيحية ، لم يبق أمير على وجه الأرض يفوقك فى المجد أو يضارعك فى السلطان . ولئن فعلت لنعترفن بك إمبراطوراً على اليونان وعلى بلاد الشرق ، وتصبح البلاد ، التى استوليت عليها بالقوة ، والتى تحتفظ بها ظلماً وعدواناً ، ملكاً لك مشروعاً . . . وما أعظم السلم التى

يؤدى إليها هذا العمل وأكملها . إذن لعاد إلى الوجود عصر أغسطس الذهبي الذى يتغنى به الشعراء . فإذا انضمت إلينا فلن يلبث الشرق كله أن يعتنق الدين المسيحى . إن إرادة واحدة تستطيع أن تبسط لواء السلم على العالم كله ، وهذه هى إرادتك ! » (٣٧) .

ولم يرد محمد الثانى هذه الرسالة ؛ ذلك أنه ، مهما تكن آراؤه الدينية ، كان يعلم أن الذى يحميه آخر الأمر من قوى أوروبا الغربية ليس هو وجود الباياء ، بل الحماسة الدينية التى تضطرم فى قلوب شعبه . وانقلب بيوس رجلاً أكثر واقعية مما كان قبل ، فأخذ يجمع العشور من رجال الدين ، وهيات له الأقدار فى عام ١٤٦٢ حظاً غير مرتقب ، وذلك حين عثر فى أرض من الأملاك البابوية فى طلفا Tolfa فى غربى لاتيوم على واسب من حجر الشب ، واستخدم عدة آلاف من الرجال ليعملوا فى استخراج هذه المادة العظيمة القيمة للصبغين ؛ وسرعان ما كانت مناجمها تدر على كرسى البابوية نحو مائة ألف فلورين كل عام وأعلن بيوس أن هذا الكشف من المعجزات ، وأنه معونة من عند الله للحرب التى سيشنها على الأتراك (٣٨) ، وأضحت الولايات البابوية فى ذلك الوقت أغنى دولة فى أوروبا ، تليها فى ذلك البندقية التى لا تنقص عنها إلا قليلاً ، ثم نابلى ، فيلان ، ففلورنس ، فودينا ، فسينا ، فانتوا (٣٩) .

وأيقنت البندقية أن البابا جاد فى غرضه مصمم على بلوغه ، فأسرعت فى استعدادها . ولكن الدول الأخرى تلكأت ، أو أمرت بتقديم معونة رمزية ، واجهت جباية الضرائب اللازمة للحملة الصليبية مقاومة عنيفة فى كل مكان تقريباً . وفترت همة فرانتشيسكو اسفورديسيا فى مديد المساعدة لهذا المشروع بحجة أنه سيؤدى إلى تقوية البندقية إذ يعيد إليها ما فقدته من أملاكها ومن تجارتها ، وضنت جنوى بالثمان السفن ذات الصفوف الثلاثة

من المجاذيف وهى المعونة التى وعدت بتقديمها . وحث دوق برغندية البابا على أن يؤجل العمل إلى يوم يكون فيه أسعد حظا من أيامه تلك ؛ ولكن پیوس أعلن أنه ذاهب إلى أنكونا ، لينتظر فيها انضمام الأسطولين البابوي والبندقى ، ثم يعبر بهما إلى راجوسا Ragusa ، وينضم إلى قوات اسکندر بك فى البوسنة ، وماثياس كرفینوس Mathias Corvinus الهنغارى ، ثم يتولى بنفسه قيادة الحملة الزاحفة على الأتراك . واحتج الكرادلة كلهم تقريبا على هذه الخطة ؛ ذلك أنهم لم يكونوا يرغبون فى اختراق بلاد البلقان ، وحلروا البابا من أحوال البوسنة التى كانت تعج بالمارقين من الدين ويفشو فيها الطاعون . غير أن البابا المريض حمل الصليب ، وودع رومما التى لم يكن يتوقع أن يراها مرة أخرى ، وأقلع بأسطوله إلى أنكونا (١٨ يونية - سنة ١٤٦٤) .

وفى هذه الأثناء كانت الجيوش التى يظن أنها ستقابلها قد ذابت كأنما كان ذلك بسحر ساحر شرقى . فأما الجيوش التى وعدت بها ميلان فى أول الأمر فلم تأت ، وأما التى بعثت بها فلورنس فقد كانت مجهزة تجهيزاً بلغ من الضعف حداً جعلها عديمة النفع ؛ ولما وصل پیوس إلى أنكونا (١٩ يولية) وجد أن معظم الصليبيين الذين تجمعوا فيها قد غادروها لأنهم سئموا الانتظار ، وقاسوا المتاعب فى سبيل الحصول على الطعام . وفشل الطاعون فى أسطول البندقية بعد أن غادر أمواها الضحلة ؛ وأخر وصوله اثنى عشر يوما . وبقي پیوس بعض الوقت فى أنكونا بعد أن فت فى عضده اختفاء الجند ، وعدم ظهور أسطول البنادقة ، واشتدت عليه العلة حتى كادت تقتله . ثم تراءى له الأسطول آخر الأمر ؛ وبعث البابا بسفائنه لتستقبله فى عرض البحر ، وأمر فحمل هو نفسه إلى نافذة يستطيع أن يرى منها المرفأ . ولما اقترب الأسطولان المتحدان بحيث يمكن أن تراهما العين توفى البابا (١٤ أغسطس سنة ١٤٦٤) . واستعادت البندقية أسطولها .

وتفرق من كان باقياً من الجند ، وأنخفت الحملة الصليبية ذلك هو البابا
الأملي المتعدد المواهب الذي ارتقى إلى الدرجات العلا ، والذي أحرز وسط
الصعاب الجمة نصراً بعد نصر حتى وصل إلى عرش العروش ، فزاله
بعلوم الدنيا وفصائل المسيحية ، وشرب كأس الإخفاق والإذلال ، والهزيمة
حتى الثمالة ، لكنه قد كفر عن شهادته وشبهه ونفواه في رجولته ،
وسربل أقرانه الساخمين منه ثوب النجاس ، ماله موته .

الفصل الخامس

بولس الثاني : ١٤٦٤ - ١٤٧١

كثيراً ما تذكرنا سير عظماء الرجال بأن أخلاق الإنسان يمكن أن تتكون بعد مماته . فإذا استطاع الحاكم مثلاً أن يدلل المؤرخين الإخباريين للذين يلتفون به ، فقد يرفعونه بعد موته إلى مكان القداسة ، وإذا ما أساء إليهم فقد يسمون جثته بعد مماته بميسم العار ، أو يلطخونها بالقار ، وشاهد ذلك أن بولس نازع مع پلاتينا ، وأن پلاتينا كتب سيرته التي يعتمد عليها معظم ما كتب عن بولس ، وأسلمه للخلف وحشاً ملء إهابه الغرور . والآهة الكاذبة ، والشره .

وكان لهذا الاتهام بعض ما يبرره ، وإن لم يزد هذا المبرر على أكثر مما يوجد في أية سيرة لا يخفف البرحلتها . لقد كان پيترو ياربو ، كردنال سان ماركو ، يفخر بجمال مظهره كما يفخر بذلك الناس كلهم تقريباً ؛ ولما أن اختبر بابا اقترح أن يسمى فورموزوس Formosus - أى الوسيم الخلق - وأكبر الظن أن ذلك كان من قبيل المزاح ؛ لكنه رضى أن يعدل عن رأيه ، واتخذ لقب بولس الثاني . وكان بسيطاً في حياته ؛ ولكنه كان يعرف ما للفخامة من تأثير يخطر نفوس من حوله ، فاحتفظ لنفسه ببلاط فخيم ، وكان سخياً جواداً في استضافة أصدقائه وزائريه . ولما دخل الجمع المقدس الذي اختاره بابا تعهد بأنه إذا اختير سيثن الحرب على الأتراك كما تعهد غيره من البابوات ، وأن يعقد مجلساً عاماً ، وأن يحدد عدد الكرادلة بأربعة وعشرين ، وألا يتجاوز عدد أقارب البابا من بينهم كردنالا واحداً ، وألا يرفع أحداً إلى مرتبة الكردنالية إذا لم يبلغ سن الثلاثين ، وأن يستشير الكرادلة في جميع الشئون الخطيرة . فلما تم انتخاب بولس نبذ كل ما أخذه

على نفسه من موثيق بحجة أنها تناقض التقاليد والسلطات المرعية التي رفع الزمان شأنها ، واسترضى الكرادلة بأن جعل أدنى حد لإيرادهم السنوى أربعة آلاف فلورين (١٠٠٠ ر ١٠٠٠ دولار) . وكان وهو ابن أسرة من التجار يعز بالفلورينات ، والدوقات ، والسكوديات ، والجواهر التي تظهر ثراء المرء أمام الأعين . وكان يلبس تاجاً بايوياً تزيد قيمته على قيمة قصر من القصور . وكان وهو كردنال يشغل أوقات الصائغين بصنع الجواهر ، والمديلات ، والحلى المنقوشة التي كان يتجلى بها ثراؤه بأجلى المظاهر ؛ وقد جمع هذه كلها مع مخلفات الفن القديم الغالية الثمن في قصر سان ماركو الفخم الذى بناه لنفسه عند قاعدة الكتبول (*) . ولكنه رغم حبه الجمل للجمال لم ينحط إلى بيع المناصب الكهنوتية ، ومنع بيع صكوك الغفان ، وحكم رومة حكماً عادلاً وإن لم يكن رحماً .

وشر ما يذكره عنه الخلف هو نزاعه مع الإنسانيين الرومان ؛ فقد كان بعض هؤلاء أمناء للبابا أو الكرادلة ، وكانت كثرتهم الغالبة تشغل مناصب أقل من هذا المنصب شأناً ، فكانوا « كتاب مختصرات » أو حفظة سجلات للحكومة البابوية . وفصل بولس هذه الجماعة كلها ووزع عملها على إدارات أخرى ، فأصبح نحو سبعين من أولئك الكتاب الإنسانيين بلا عمل أو عينوا في مناصب أقل من مناصبهم السابقة أجراً ، ولستنا نعلم أكان هذا إجراء يراد به الاقتصاد أم كان يقصد به تخليص « هيئة المختصرين » من أهل سينا الثمانية والخمسين الذين عينهم فيها بولس الثانى . وكان أفصح أولئك الإنسانيين المفصولين لسانا هو بارتوليو ده ساتشى Bartolommeo de Sacchi الذى اتخذ له اسماً لاتينياً هو پلاتينا اشتقه من موطنه پياديننا Piadena القريبة من كريمونا ؛ وقد طلب إلى البابا أن يعيد

(*) وأهد بولس الرابع هذا القصر إلى البندقية ، ومن ثم عرف فيما بعد باسم قصر البندقية Piazza Venezia . وقد اتخذ بنيتو مسلوليني مقره الرسمى أثناء الحكم الفاتى .

الكتاب المفصولين إلى مناصبهم ، فلما رفض بولس طلبه وجه إليه خطاب تهديد ، فأمر بولس بالقبض عليه ، وأبقاه أربعة أشهر في سانت إنجيلو ، مقيداً بسلاسل ثقيل : واستطاع الكردينال جندساجا أن يطلق سراحه ، ولكن بلاتينا كان يسعه ، كما ظن بولس ، أن يظل يترقب فرصته :

وكان زعيم الإنسانيين في رومة هو يوليوس ميمونيوليتو *Julius Pomponio Leto* ، ويقال إنه ابن غير شرعي للإمبراطور سالستينوس من سالرنو . ووفد يوليوس على رومة في شبابه ، واتصل بثقلا وأصبح من تلاميذه ، وخلفه أستاذاً للغة اللاتينية في الجامعة . وأولع بالأدب الوثني ولعاً جعله يعيش في رومة كما كانت في أيام كاتو وقيصر ومعاصريهما لا كما هي في عهد نقولاس الخامس أو بولس الثاني . وكان أول من نشر كتابي قارو *Varro* وكولوملا القديمين في الزراعة ، واتباع القواعد التي وضعها في العناية بكرومه . وبقى الرجل قانعاً راضياً بشعره العلمي ، بتضي نصف وقته بين الآثار التاريخية ، يتحسر على نهبا وتخريبها ، وصبغ اسمه صبغة لاتينية فسمى نفسه ميمونيوس لينوس ، وكان يسير إلى حجرة دراسته في ثياب رومانية . وقلما كانت قاعة من القاعات تتسع للجمهور التي تحتشد عند مطلع الفجر لتستمع إلى محاضراته ، وبلغ من شدة الزحام أن كان بعض الطلاب يقدون في منتصف الليل كي يجدوا لهم مكاناً : وكان يحتقر الدين المسيحي ، ويتم وعاظه بالنفاق ، ويدرب تلاميذه على آداب الرواقين لا على آداب المسيحيين . وقد جعل بيته متحفاً للعاديات الرومانية ، وملتقى لطلاب المعارف الرومانية ومعلميها ؛ وقد نظمهم حوالي عام ١٤٦٠ في مجمع علمي روماني ، اتخذ أعضاؤه لهم أسماء رومانية ، وسما أبناءهم وقت تعميدهم أسماء رومانية أيضاً ، واستبدل بالدين المسيحي عبادة دينية هي عبادة عبقرية رومة ؛ ومثل مسألي لاتينية ، واحتفل بتأسيس رومة احتفالات وثنية سمي الأعضاء الذين يقومون بالخدمة فيها القديسين وأطلق على ليتوس اسم **الطاهر الأعظم** وكان من الأعضاء

المتحمسين من يحلم بإعادة الجمهورية الرومانية^(٤٠) .
وتقدم أحد المواطنين إلى الشرطة البابوية في أوائل عام ١٤٦٨ بتهمة
قال فيها إن المجمع العلمي يأتمر بالبابا ليخلعه ويعتقله . وأيد التهمة بعض
الكرادلة ، وأكدوا للبابا أن إشاعة راجت في رومة تقول إنه سيموت بعد
وقت قصير . وأمر بولس باعتقال ليتوس ، وبلاطينا وغيرهما من زعماء
المجمع ، فكتب بميونيووس معتذراً مثذلاً ومعلنأ اعترافه بالدين القويم ؛
فأطلق سراحه بعد العقاب اللائق بأمثاله ، وواصل محاضراته ولكنه حرص
على أن يجعلها مطابقة للدين ، حتى أن أربعين من الأساقفة شيعوا جنازته بعد
موته (١٤٩٨) أما پلاتينا فقد عذب ليقر بوجود مؤامرة . ولم يعثر قط
على دليل يثبت وجودها ، ولكن پلاتينا ظل في السجن عاما كاملا رغم
كتب من رسائل الاعتذار التي تزيد على عشر . وأعلن بولس حل المجمع
بمحجة أنه معشش الإلحاد ، وحرم تدريس الآداب الوثنية في مدارس رومة .
وأجاز البابا الذي خلفه إعادة فتح المجمع بعد أن عدل وأصلح ، وعهد
إلى پلاتينا بعد أن تاب وأتاب الإشراف على مكتبة الفاتيكان ؛ وفيها وجد
المادة التي أخذ منها سيرته الواضحة الطريقة للبابوات ؛ ولما وصل في كتابته
إلى بولس الثاني انتقم لنفسه منه ، ولعله لو احتفظ بتهمة لسكستس الرابع
لكان أكثر عدلا وإنصافاً .

الفصل الرابع

سكستس الرابع : ١٤٧١ - ١٤٨٤

كان من بين الكرادلة الثمانية عشر الذين اجتمعوا ليختاروا البابا الجديد ، خمسة عشر إيطاليا ؛ وكان رديرغو بورجيا Raderigo Borgia أسبانيا ، ودستوتفيل d'Estouteville فرنسا ، وبيساريون Bessarion يونانيا . ووصف أحد الذين اشتركوا في انتخاب الكردنال فرانتشيسكو دلا روفيري Francesco della Rovere هذا الانتخاب بأنه كان نتيجة « اللدائس والرشوة (ex aribtus et corruptelis) »^(١) ، ولكن يبدو أن هذا القول لا يعنى إلا أن بعض الكرادلة قد وعدوا ببعض المناصب ثمناً لأصواتهم . وكان البابا الجديد مثلاً فذاً لتكافؤ الفهرس (بين الإيطاليين) ومقدرتهم على أن يصلوا إلى عرش البابوية . فقد ولد لأسرة من الفلاحين في بيكريلي Pecorile القريبة من سافونا Savona . وكثيراً ما انتابه المرض في طفولته ، ولذلك نذرته أمه إلى القديس فرانس وهى تدعو الله أن يمن عليه بالشفاء . ولما بلغ التاسعة من عمره أرسل إلى دير من أديرة الرهبان الفرنسيس ثم انضم فيما بعد إلى المنوريين Minorites . ثم اشتغل بعدئذ مربياً خاصاً في أسرة الروفيري التى اتخذ اسمها اسماً له : ودرس الفلسفة واللاهوت في باريس ، وبولونيا ، وبدوا ، واشتغل بتدريس العلمين في هذه المدن وفي غيرها لفصول بلغ من ازدهارها أن قيل أن كل عالم إيطالى من علماء الجبل التالى يكاد يكون تلميذه :

ولما صار ، وهو فى السابعة والخمسين من عمره ، البابا سكستس الرابع . اشتهر بأنه من العلماء المشهورين بغزارة علمهم واستقامة أخلاقهم . وتبدل الرجل بين يوم ولياة تبدلاً من أغرب ما حدث فى التاريخ فأصبح سياسياً

ومحارباً : ولما وجد أن أوروبا منقسمة على نفسها وأن حكوماتها فاسدة ، وأن هذا الانقسام والفساد يحولان بينها وبين الإقدام على حرب صليبية ضد الأتراك استقر رأيه على أن يكرس جهوده الدنيوية لإصلاح أحوال إيطاليا ، وقد وجدها هي أيضاً لا تخلو من الانقسام - فقد كان الحكام المحليون يتحدون سلطة البابا في الولايات البابوية ، وكان في لانيوم حكم غاشم يقوم به النبلاء متجاهلين سلطان البابا ، وفي رومة غوغاء بلغ من اختلال نظامهم أن رجوا محمله في موكب التتويج بالحجارة لأنهم غضبوا من سوء اصطدام نشأ من وقوف الفرسان فجاءة . وكان سكستس يعزم لإعادة النظام إلى رومة ، وتقوية سلطان القاصد الرسولى في الولايات البابوية ، وإخضاع إيطاليا لحكم البابا الذى يعمل على توحيدها ٥

وكان سكستس تحيط به الفوضى من كل جانب ، وكان قليل الثقة بالغرباء ، شديد التأثر بصلات القرى ، ولهذا حبا أبناء إخوته الجشعين بمناصب تدر عليهم المال والسلطان : وكان من أشد الخن التى لاقاها في أيام رياسته الدينية أن من يحبهم أعظم الحب كانوا شر الناس جميعاً ، وأنهم استغلوا مراكزهم استغلالاً سافلاً جلب عليهم احتقار إيطاليا بأجمعها : وكان أحب الناس إليه بيترو (أو بيرو) رياريو *Pietro (Piero) Riario* ابن أخيه - وهو شاب وسم الطلعة إلى حد ما ، مرح ، فكاه ، مجامل ، كريم ، ولكنه مولع بالترف والشهوات الجسمية ولعاً لم تستطع معه المناصب الكهنوتية التى حباها بها البابا والتى تدر عليه المال الوفير أن توفى بمطالب هذا الراهب الذى كان من قبل معدياً متسولاً . وعينه سكستس كردنالا في الخامسة والعشرين من عمره (١٤٧١) ، ونفحه بأسقفيات تريفيزو ، وسنجاليا *Senigallia* ، واسبالاتو ، وفلورنس ، كما نفحه بمراكز أخرى عالية الشأن ، درت عليه دخلا قدره ستون ألف دوقة (٥٠٠.٠٠٠ ر ٢١٠ دولار) كل عام . وكان بيرو ينفق هذا الدخل كله ، وأكثر منه ، في شراء آنية من الفضة والذهب ، والياب الجميلة ، والسجف المنقوشة ، والأقشة

المطرزة ، وعلى الحاشية الفخمة ، وحيوانات الصيد التي تكلفه الأموال الطائلة ، وعلى مناصرة المصورين ، والشعراء ، والعلماء . وكانت حفلاته - ومنها مأدبة دامت ست ساعات استقبل فيها هو وجوليانو *Guiliano* ابن عمه في رومة اليونورا *Eleonora* ابنة فيرانتى *Ferrante* . وقد بلغ البذخ فيها درجة لم ير لها نظير منذ أيام لوكلس *Lucullus* أو تيرون . وأختل السلطان باتزان عقله فقام برحلة كرحلات القواد المظفرين في فلورنس ، وبولونيا ، وفيرارا ، والبندقية ، وميلان ، كرم في كل واحدة منها كما يكرم كل أمير يجرى في عروقه الدم الملكي ، وكان يعرض فيها عشيقاته يرتدين أفخم الثياب ، وكان في هذه الرحلات يعد العدة ليكون بابا بعد ممات عمه أو قبل مماته . ولكنه توفي قبل أن يعود إلى رومة (١٤٧٤) من إسراره على نفسه . وكان وقتئذ في الثامنة والعشرين من عمره بعد أن أنفق ٢٠٠,٠٠٠ دوقة في عامين وبعد أن استدان ستين ألفاً أخرى (٢) . وعين أخوه جيرولامو قائداً لجيوش البابا ، وسيداً لإمولا *Imola* وفولى *Forli* . وقد تحدثنا عنه بما فيه الكفاية عند كلامنا على هذين البلدين . وعين ابن أخ آخر للبابا مديراً لشرطة رومة ، ولما مات خلفه أخوه جيوفاني في هذا المنصب . وكان أقدر أبناء الإخوة جميعاً جوليانا دلا روفيري الذي يحتاج إلى باب خاص في هذا الكتاب حين يصبح البابا يوليوس الثاني . وكانت حياته طيبة صالحة إلى حد معقول ، وقد ارتفع إلى عرش البابوية بعد أن تغلب على كل ما في طريقه من صعاب بقوة عقله وخلقه :

وأحدثت الخطط التي وضعها سكستس لتقوية البلاد البابوية اضطراباً لدى الحكومات الإيطالية الأخرى . فقد كان لورندسوده ميديتشي ، كما ذكرنا من قبل يعمل على ضم إمولا لفلورنس ، ولكن سكستس سبقه في مساعاه واتخذ آل پاتسى *Pazzi* مصرفين للبابوية بدل الميديتشين ، فما كان من لورندسو إلا أن عمل على خراب آل پاتسى المالي ، ورد هؤلاء بأن حاولوا قتله . ووافق سكستس على المؤامرة ولكنه استنكر

للقتل ، وقال للمتآمرين « افعلوا ما شئتم على شريطة أن تتجنبوا القتل » (١٣) ، وأسفرت هذه الأعمال عن حرب دامت (١٤٧٨ - ١٤٨٠) حتى هدد الأتراك باحتياج إيطاليا . فلما زال هذا الخطر ، أتيحت لسكستس مرة أخرى فرصة تحرير الولايات البابوية . وحدث في أواخر عام ١٤٨٠ أن انقضت أسيرة أرد يلفي Ordelaaffi الطغاة في فورلى ، وأن طلب أهلها إلى البابا أن يستولى على المدينة ، فما كان من سكستس إلا أن أمر جيرولامو أن يتولى حكم إمولو وفورلى جميعاً . وعرض جيرولامو أن تكون الخطوة التالية هي الاستيلاء على فيرارا ، وأقنع سكستس وحكومة البندقية بأن يشتركا في حرب يشنونها على الدوق إركولى Ercole (١٤٨٢) . وبعث فيرانتى صاحب نابلى جنداً للدفاع عن صهره ، وساعدت فلورنس وميلان أيضاً فيرارا ، وهكذا وجد البابا أنه قد ألقى بإيطاليا كلها في أتون وهو الذى بدأ عهده بالسعى إلى نشر لواء السلام على ربوع أوروبا . وأحاطت به نابلى من الجنوب ، وفلورنس من الشمال ، وأزعجه اضطراب الأحوال رومة ، فعقد الصلح مع فيرارا بعد عام من القوضى وسفك الدماء . ولما رفض البنادقة أن يخلّوا حذو هاتين المدينتين أصدر قراراً بحرمانهم ، وانضم إلى فلورنس وميلان في محاربة حايفته السابقة .

وكان أعيان العاصمة قد شعروا أن من حقهم أن يجددوا منازعاتهم التى تسرّبها نفوسهم متبعين ذلك سنة الرئيس الدينى الحبيب الحرب . وكان من العادات المألوفة الطريقة في رومة أن ينهب قصر الكردنال حين يختار بابا . وحدث حين كان أهالى رومة ينهبون قصر أحد الكرادلة آل روفيرى أن أصيب شاب من أعيان المدينة يدعى فيرانتشيسكو دى سانتا كروتشى Francesco di Santa Croce بجرح من يد أحد أبناء أسيرة فالى Vall ويثار هذا الشاب لنفسه بأن قطع وتر عقب من جرحه . وانتقم أقارب فالى لقرينهم بشج رأس فرانتشيسكو . ويثار برسيرو دى سانتا كروتشى

لفرانتشيسكو بأن قتل پيرو مرجانى Piero Margani . وانتشر القتال فى جميع أنحاء المدينة ، وانضمت أسرة أرسينى والقوات البابوية إلى سانتا كروتشى ، ودافع آل كولنا عن أسرة فالى ؛ وأسر لورندسو أدونى كولنا Lorezo Oddoni Colonna ، وحوكم ، وعذب حتى اعترف ، ثم أعدم فى سانت أنجيلو ، وإن كان أخوه فبريسيو Fabrizio قد أسلم سكستس حصنين من حصون آل كولنا أملاً فى إنقاذ حياة لورندسو . وانضم برسيرو كولنا إلى نابلى فى حربها ضد البابا ، وعاث فى أرض الكمپانيا فساداً ، وأغار على رومة . واستأجر سكستس ربرت مالانىستا Robert Malatesta من ريمينى ليقود جنود البابا : وهزم ربرت جيوش نابلى وآل كولنا فى كهو مورتو Campo Morto ، وعاد ظافراً إلى رومة ، حيث مات من الحمى التى أصيب بها فى مستنقعات كمپانيا . وحل چيرلامو رياريو محله ، وبارك سكستس رسمياً المدفعية التى صوبها ابن أخيه على حصون آل كولنا . ولكن جسم البابا انهار بتأثير الأزمات التى توالى عليه ، وإن ظل روحه متعطشاً إلى القتال . وفى شهر يونية من عام ١٤٨٤ أصيب هو أيضاً بالحمى . وجاءته الأخبار فى الحادى عشر من أغسطس بأن حلفاءه قد عقدوا الصلح مع البندقية غير عابئين باحتجاجاته ؛ ورفض هو التصديق على هذا الصلح ، ولكنه منى فى اليوم الثانى .

لقد كان سكستس من كثير من الوجوه مثلاً سابقاً ليوليوس الثانى ، كما كان چيرولامو رياريو مثلاً لحياة سيزارى بورچيا . كان سكستس قساً استعمارياً شديد الشكيمة يحب الفن ، والحرب ، والسلطان ؛ ويعمل لنيل مآربه دون وخز من ضمير أو مراعاة لآداب ، ولكنه يعمل إلها بهمة وحشية وشجاعة لا تفتر أو ينال غرضه . ولقد خلق لنفسه أعداء . كما خلق غيره من البابوات محبى الحرب ؛ وقد حاول هؤلاء الأعداء أن يضعفوا قواه بتسوئة سمعته . من ذلك أن بعض الثرثارين عللوا إسراره فى تأييد

پيترو وجيرو لاملو رياريو بأنهما من أولاده^(٤٤) ، ووصفهما آخرون مثل إنفيسورا Infessura بأنه كان يعشقهما ، ولم يترددوا في أن يتهموا البابا « باللواط »^{(٤٥)(*)} . على أن الصورة التي لدينا للبابا سيئة دون حاجة إلى هذه التهم التي لا يقبلها العقل ولا نجد لها ما يؤيدها : فقد كان سكستس يمول حروبه ببيع المناصب الكهنوتية لمن يؤدي عنها أغلى الأثمان ، بعد أن استنفد على أبناء إخوته كل ما خلفه بولس الثاني من الأموال الطائلة . ويروى عنه سفير بندق معاد له قوله إن « البابا لا يحتاج إلا إلى قلم وجرير لينال كل ما يرغب فيه »^(٤٦) . ولكن هذا القول يصدق بهذا القدر نفسه على معظم الحكومات الحديثة ، التي لا تختلف قراطيسها ذات الربح في كثير من الأحوال عن الوظائف الدينية ذات المرتب الضخم والعمل القليل التي كان البابوات يبيعونها بالمال . على أن سكستس لم يقنع بهذه الوسيلة . فقد احتكر لنفسه بيع الغلال في جميع الولايات البابوية ؛ وكان يبيع أحسنها في خارج هذه الولايات ، وأسوأها لشعبه ، ويخفى من وراء ذلك أرباحاً طائلة^(٤٧) . وكان قد تعلم هذه الحيلة من حكام زمانه مثل فيرانتي صاحب نابلي ، وفي ظننا أنه لم يطلب لنفسه أكثر مما كان يطلبه غيره من الأفراد المحتكرين لو كانوا في مكانه ؛ ذلك أن من قوانين علم الاقتصاد غير المسطورة أن ثمن أية سلعة إنما يعتمد على غفلة المشتري . ولكن الفقراء تلمسوا — ولما لتغفر لهم تلمسهم — لأنهم رأوا أن جوعهم يتخذ وسيلة لإشباع ترف آل رياريو . وخلف سكستس وراءه رغم هذه وغيرها من الأساليب التي اتبعها لجمع المال ، ديوناً يبلغ مجموعها ١٥٠٠٠٠٠ دوقية (٣٧٥٠٠٠٠٠٠ دولار) .

(*) كتب استفانو إنفيسورا تاريخاً لرومة في القرن الخامس عشر مستمداً من سجلات الأسر ومن ملاحظاته الخاصة . وكان استفانو هذا جمهورياً متحمساً ، يرى أن البابوات حكام مستبدون ؛ وكان فوق ذلك من أشباع آل كولنا ؛ ولهذا كله فإننا لا نستطيع أن ننق به حين يروى تفاصيل قصص عن آثام البابوات لا نجد ما يؤيدها في مصادر أخرى .

وكان ينفق قدراً كبيراً من دخله على الفن والأشغال العامة ، وقد حاول عبثاً أن يجفف المستنقعات الموجودة حول فولنيو ، وكان يحلم على الأقل بتجفيف مستنقعات بنتيني pontine ، وأمر بتخطيط شوارع رومة الكبرى من جديد وجعلها مستقيمة خالية من الالتواء ، ووسعها ، ورصفها ، وأصلح موارد مياه الشرب ، وأعاد بناء الجسور ، والأسوار ، والأبواب ، والأبراج ، وأقام على نهر التيبر جسر مستو ponte Sisto المسمى باسمه ، وشاد مكتبة جديدة للفاتيكان ومن فوقها معبد سستيني ، وأنشأ مرمة سستيني Cistine Choir ، وأعاد بناء مستشفى سانتواسبريتو Santa Spirito المحرب الذى كان عنبره الأكبر يبلغ ٣٦٥ قدماً فى الطول ويتسع لألف مريض . وأعاد تنظيم جامعة رومة وفتح للجمهور متحف الكهتولين الذى أنشأه بولس الثانى قبله ، فكان هذا المتحف بذلك أول المتاحف العامة فى أوروبا . وشيدت فى أيام ولايته ، وبتوجيه بيتشيو بنتيلي فى الغالب ، كنيسة سانتا ماريا دلا پاتشى Santa Maria della pace وسانتا ماريا دلا پوپولو Santa Maria dell popolo ، ورمت كنائس أخرى كثيرة . ونحت مينو دا فيسولى Mino da Fiesole وأندريا برنيو Andrea Bregno فى كنيسة سانتا ماريا دلا پوپولو قبراً فخماً للكردينال كرسستوفورو دلا روجيرى Cristoforo della Rovere (حوالى ١٤٧٧) كما صوّر بنتورتشيو فى كنيسة سانتا ماريا ببلدة إراكوئيلي Aracoeli حياة القديس برنردينو السيناتى فى مظلمات من أجل ما وجد من المظلمات فى رومة (حوالى ١٤٨٤) .

وكان الذى صمم معبد سستينو هو جيوفانى ده دلتشى Giovanni de Dolci ، وكان تصميمه بسيطاً متواضعاً ليقم فيه البابوات وكبار رجال الدين الصلوات شبه الخاصة . وكان معبداً جميلاً يحتوى على ستر رخامى لحرمه من صنع مينو دا فيسولى ، وعلى مظلمات واسعة تقصص على الجدار الجنوبى مناظر من حياة موسى ، وعلى الجدار الشمالى مناظر مقابلة لها من

حياة المسيح : واستدعى سكستس إلى رومة لتصوير هذه المناظر أعظم الفنانين في زمانه : پروجينو ، وسنيوريل ، وپنتورتشيو ، ودمنيكو ، وپنتوغرلندايو ، وپيتشلي ، وكوزيمو روزلي ، وپيرو دي كوزيمو ، وعرض سكستس جائزة إضافية لأحسن صورة من الصور الخمس عشرة التي رسمها هؤلاء الفنانون هناك . وكان روزلي يدرك تفوق غيره عليه في التصميم فقرر أن يخطر بكل شيء في سبيل بهجة التلوين ؛ وكان زملاؤه الفنانون يسخرون من إصرافه في اللونين اللازوردى والذهبي ، ولكن سكستس منحه الجائزة .

واستدعى البابا المحارب مصورين آخرين إلى رومة ، ونظمهم في مراقبة ترداهم شفيعها القديس لوقا ؛ وكان سكستس هو الذي قام له ملتسو دا فورلي بخير أعماله : فقد جاء هذا الفنان إلى رومة حوالى عام ١٤٧٢ بعد أن درس مع پيرو دلا فرانشيسكا ، وصور في كنيسة سانتي أبستولى مظلماً يمثل صعود المسيح أثار جماسة فاسارى ؛ وقد اختفى هذا المظلم كله ما عدا قطعاً قليلة منه حين جدد بناء الكنيسة في عام ١٧٠٢ وما بعدها : وصورتا الملك وعذراء البشارة المحفوظتان في معرض أفيزى ظريفتان رقيقتان :

وأظرف منهما صورة الملكين الموسيقيين Angeli Musicanti أحدهما يعزف على الكمان والثاني على العود - الموجودة في الفاتيكان . وخبر آيات ملتسو الفتية على الإطلاق هي المظلم المصور في مكتبة الفاتيكان ، والذي نقل بعدئذ على القماش : وقد صُوِّر في هذا المظلم القائم أمام عمد المكتبة المزخرفة وسقفها أصدق تصوير وأقواه ستة أشخاص : سكستس راكمأ ، ضخماً ، فخماً ، وعن يمينه پيترو رياريو المرح ؛ ويقف أمامه جوليانو دلا روفيرى القائم اللون الطويل القائمة ، ويركع أمامه پلاتينا صاحب الجهة العالية يتلقى أمر تعيينه أميناً للمكتبة . ومن خلفه چيوفنى دلا روفيرى والكونت جيرولامو رياريو ، تلك صورة حية لحبر كانت أيامه مليئة بالأحداث .

وكانت مكتبة الفاتيكان في عام ١٤٧٥ تحتوي ٢٥٢٧ مجلداً باللغتين اللاتينية واليونانية ، فأضاف إليها سكستس ١١٠٠ مجلد غيرها ، وفتح لأول مرة أبوابها للجهير . وأعاد الكتاب الإنسانيين إلى سابق مكانتهم وإن لم يكن يؤدى إليهم الأموال بانتظام لانشغاله عنهم بغيرهم من الأعمال . واستدعى فيليفلو إلى رومة ، وظل هذا الرجل رب السيف والقلم متحمساً في مديح البابا حتى تأخر له مرتبه السنوى البالغ ٦٠٠ فلورين (١٥٠٠٠٠٠ دولار) واستدعى يوانس أرجيروبولس Joannes Argyropoulos من فلورنس إلى رومة ، حيث كانت محاضراته في اللغة اليونانية وآدابها يحضرها الكرادلة ، والأساقفة ، والطلاب الأجانب مثل ريتشبلن . واستدعى سكستس إلى رومة كذلك العالم الألماني جوهان مولر رجيومنتانس Johann Muller Regiomontanus — وعهد إليه إصلاح التقويم اليوليوسى ، ولكن مولر توفى بعد عام من مجيئه (١٤٧٦) وكان لا بد أن يتأخر إصلاح التقويم مائة عام أخرى (١٥٨٢) .

ومن أغرب الأشياء أن يصبح راهب من الفرنسيسكان وأستاذ للفلسفة واللاهوت أول بابا يوجه النهضة وجهة دنيوية — أولان شئت الدقة أن يصبح أول بابا من بابوات النهضة يهتم أعظم ما يهتم بدم سلطان البابوية وجعلها أعظم القوى السياسية في إيطاليا . ولعلنا إذا استثنينا حالة فيرارا Ferrara التي أدى حكامها الأمانة ما عليهم من الالتزامات الإقطاعية ، قلنا إن سكستس كان محققاً كل الحق في سعيه لأن يجعل الولايات البابوية بابوية بحق ، ولأن يجعل رومة وما حولها مكاناً آميناً للبابوات . وربما غفر له التاريخ ، كما غفر ليوليوس الثانى اتخاذه الحرب وسيلة لبلوغ هذه الغايات . وربما أقر أن دبلوماسيته لم تكن إلا اتباعاً للمبادئ التي كانت تدير عليها الدول الأخرى والتي لا تقيد بالقيود الأخلاقية . ولكن التاريخ لا يجد شيئاً من المتعة في أن يشهد أحد البابوات يأتمر مع المغتالين ، ويبارك المدافع ، أو ينحوض غمار

الحرب بقوة ارتاع لها أهل زمانه . لقد كان موت ألف رجل عند كامپومورتو خسارة في الأرواح أكبر مما حدث في أية معركة شبت ناراها حتى ذلك الوقت في إيطاليا أثناء النهضة . وكان مما زاد انحطاط الأخلاق في بلاط رومة التحيز للأقارب بلا مبالاة ، وبيع الرتب الكهنوتية بلا حياء ، والقصف الفاحش الذي كان سنة يجرى عليها أقارب البابا . هذه الأساليب وغيرها مهد سكستس السبيل إلى إسكندر السادس ، وكان له نصيب في انحلال إيطاليا الأخلاقي ، لأنه استجاب لدواعي هذا الانحلال . وكان سكستس هو الذي نصب توركويمادا Torquemada رئيساً لمحكمة التفتيش الأسبانية ؛ وسكستس هو الذي أثار ما في رومة من وباء الهجاء والإباحية فدخل محكمة التفتيش الحق في أن تحرم طبع أى كتاب لا ترغب هي في طبعه . وكان خليفاً عند موته بأن يعترف بأنه عاجز عن القيام بأمر كثيرة - ضد لورنيسو ، ونابلي ، وفيرارا ، والبندقية ، وحتى آل كولنا أنفسهم لم يكونوا قد أخضعوا بعد : لكنه نجح نجاحاً باهراً في ثلاثة أمور : فقد جعل رومة مدينة أصبح وأكثر جمالاً مما كانت قبله ، وحباها بالهواء الطلق الذي أفاد أهلها قوة ، وأعاد البابوية إلى مكانها بين أقوى الدول الملكية في أوربا .

الفصل السابع

إنوسنت الثامن : ١٤٨٤ - ١٤٩٢

أكدت القوضى التي ضربت أطنابها في رومة بعد موت سكستس هجره عن بلوغ أهدافه . ذلك أن الغوغاء نهبوا الأهرام البابوية ، وسطوا على مصارف الجنوين ، وهاجموا قصر جيرولامو رياريو ، وجرد خدام الفاتيكان هذا القصر من أثاثه ، وتسلمت أحزاب النبلاء ، وأقيمت المتاريس في الشوارع ، واضطر جيرولامو أن يقف حملته على آل كولنا ، ويعود على رأس جنوده إلى المدينة ، فعاد آل كولنا إلى الاستيلاء على كثير من حصونهم : ودعى بجمع مقدس عاجل في الفاتيكان تبودلت فيه الوعود والرشا^(٩٩) بين الكردينال بورجيا والكردينال جوليانو دلا روفيري ، وأدت إلى انتخاب جيوفاني باتستا تشيدو الجنوى .
Giovanni Battista Cibo of Genoa وتسمى باسم إنوسنت الثامن .

وكان عند انتخابه في الثانية والخمسين من عمره ، طويل القامة ، وسيم الطلعة ، لطيف المعشر ، مسالماً وديعاً إلى حد الضعف ، متوسط الذكاء والتجربة ؛ وقد وصفه أحد معاصريه بأنه « غير جاهل كل الجهل »^(٥٠) . وكان له على الأقل ابن وابنة ، ولكنه كان له في أغلب الظن غيرهما من الأبناء^(٥١) ، يعترف بهم في صراحة ، ولما ارتدى الثياب الكهنوتية عاش كما يظهر عيشة العزاب . وكان الفكهون من أهل رومة يكتبون النكات عن أبنائه ، ولكن قل من الرومان من كان يأخذ على البابا هذا الإخصاب في أيام شبابه ؛ غير أنهم احترمهم الدهشة حين احتفل بزواج أبنائه وأحفاده في الفاتيكان .

والحق أن إنوسنت بعد أن صار بابا قد قنع بأن يكون جدياً ، وأن يستمتع

يالحب الأبوى والراحة المنزلية : قد منح بوليتيان مائتي دوقه لأنه أهدى إليه ترجمة لكتاب هيرودوت ، ولكنه فيما عدا هذا قلما كان يعبأ بالكتاب الإنسانيين . وظل يعمل على مهل مستعينا بغيره من الرجال لتجديد بناء رومة وتجميلها ، فاستخدم أنطونيو بلا يولو في بناء بيت بلقديرو في حدائق الفاتيكان ، واندريا مانتنيا في تصوير المظلمات في معبد مجاور لهذا البيت ؛ لكنه كان في الأغلب الأعم يترك تشجيع الآداب والفنون لكبار الموظفين والكرادلة . وجرى على هذه السنة نفسها ، سنة ترك الأمور تجري في أعنتها ، فعهد بشئون السياسة الخارجية إلى الكردينال دلا روفيري ، ثم إلى لورندسو ده ميديتشى . وعرض المصطفى الثرى أن يزوج ابنته مدالينا Maddalena ذات البائنة الكبيرة من فرانثيسكو تشيو ابن البابا ، ووافق إنوسنت على هذا الزواج ، وعقد حلفا مع فلورنس (١٤٨٧) ، وترك من ذلك الحين الفلورنسى المحرب المسالم يقود السياسة البابوية ، واستمعت إيطاليا بسلم دامت خمس سنين .

وحدثت في عهد جم حادثة . أشبه ما تكون بالتمثيليات المضحكة يستمتع بها أهل زمانه ، وكالت من أعجب التمثيليات التي حدثت في التاريخ . وتفصيل ذلك أن بايزيد الثانى وجم ابنى محمد الثانى أوقدوا نار حرب داخلية بعد موت أبيهما (١٤٨١) في نزاعهما على عرش آل عثمان . ولما هزم جم في بروصه أراد أن يتجو من القتل بالاستسلام إلى فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس (١٤٨٢) . وأبقاه رئيس الفرسان پير دو بسون Pierre d'Aubusson عنده يهدد به بايزيد . وارتضى السلطان أن يؤدى إلى الفرسان ٤٥٠,٠٠٠ دوقه كل عام لإنفاقها على جم في الظاهر ولكنها في الحقيقة كانت لإغراء لهم على ألا يشجعوا جم على المطالبة بعرش السلطنة العثمانية ، وألا يتخلوه عونا نافعاً لهم في شن حرب صليبية مسيحية على الأتراك ؛ وأراد دو بسون أن يضمن سلامة هذا الأسير

الذى يدر المال الكثير فبعثه ليقم تحت حراسة الفرسان فى فرنسا . وعرض كل من سلطان مصر ، وفرديناند وإزبلا ملك أسبانيا وملكتها ، وماتياس كرفينوس Matthias Corvinus ملك المجر ، وفيرانتى Ferrante ملك نابلى ، وإنوسنت نفسه ، عرض كل واحد من هؤلاء مبالغ طائلة على أوبسون إذا رضى بأن ينقل جم إلى بلده ليكون فيها مشمولا بعنايته . وفاز البابا بذلك لأنه وعد رئيس الفرسان بقلنسوة حمراء (*) فضلا عن الدوقات ، وأنه ساعد شارل الثامن ملك فرنسا على أن يتزوج آن صاحبة بريطانيا ويحصل بذلك على هذه المقاطعة لنفسه . وبناء على هذا سار « التركى العظيم » كما كان جم يسمى فى ذلك الوقت ، فى الثالث عشر من شهر مارس عام ١٤٨٩ فى موكب فخم من الفرسان مخترقا شوارع رومة حتى وصل إلى قصر الفاتيكان حيث سجن سجننا يستمتع فيه بضروب الترف والمجاملة ، وأراد بايزيد أن يضمن حسن مقاصد البابا فبعث إليه بمرتب ثلاث سنين نفقة لجم ، ثم إليه فى عام ١٤٩٢ رأس حربة أكد له أنه هو الذى نفذ فى جنب المسيح . وشك بعض الكرادلة فى هذا ، ولكن البابا أعد العدة لينقل هذا الأثر من أتكونا إلى رومة ، ولما وصل إلى « باب الشعب » (پورتا دل پوپولو Porta del Popolo) تلقاه هو بنفسه وحمله فى موكب فخم رهيب إلى الفاتيكان ، ورفع الكردنال بورچيا عاليا ليعظمه الناس ثم عاد بعدئذ إلى عشيقته .

وقد وجد إنوسنت صعوبة كبيرة فى موازنة دخله ونفقائه رغم المعونة السخية التى حبا بها السلطان الكنيسة : ولهذا أخذ يجرى على الستة التى جرى عليها سكستس الرابع ، ومعظم حكام أوربا ، فلا خزائنه بالأموال التى كان يتقاضاها من طلاب المناصب الكبيرة ، ولما وجد ما فى هذا من نفع كبير أنشأ مناصب جديدة وعرضها للبيع ؛ فرفع أمناء البابوية إلى

(*) أى أن يمينه كردنالا . (المترجم)

مئة وعشرين وحصل بذلك على ٦٢٤٠٠ دقة ؛ ثم رفع عدد حاملي الاختتام ، وكان واجبهـم الثقيل هو مهر القرارات البابوية بخاتم من الرصاص ، إلى اثنين وخمسين ، وجنى من ذلك ٢٥٠٠ دقة من كل واحد عينه في المنصب الجديد . ولقد كان يسهل الإنسان ألا يرى في هذه الأعمال ما هو أسوأ من ضريبة تؤدي نظير تأمين على منصب لولا أن من أدوا هذا المال لم يكونوا يعرضون أنفسهم عما أدوه بمرتبهـم الضخم فحسب بل ياتزان المال بأسفل الطرق في مناصبهـم . من ذلك أن اثنين من أمناء البابا أقرأ بأنهما زورا في عامين أكثر من خمسين مرسوما بابويا أحلا فيها بعضهـم من الفروض الدينية ؛ وغضب البابا من هذا العمل فأمر بشنق الرجلين وإحراق جثتهـما لأنهما تجاوزا في السرقة الحد الذي يجيزه منصباهما (١٤٨٩) (٥٢) . وبدا أن كل شيء في رومة يمكن شراؤه ، من الإعفاء من الأحكام القضائية إلى مقام البابوية نفسه (٥٣) . ويحدثنا أنفيسورا الذي لا يوثق بكثير من أقواله أن رجلا ضائع ابنتيه ثم قتلها قد عفى عنه بعد أداء ثمانمائة دقة (٥٤) . ولما سئل الكردينال بورجيا عن السبب في عدم إقامة الحد ، أجاب كما تقول الرواية : « إن الله لا يريد أن يموت الآثم ، بل يريد أن يعيش ويؤدي الثمن » (٥٥) . وكان فرانتشيسكتو تشيبو Franceschetto Cibo وغدا مجرداً من الذمة والضمير ، وكان يشق طريقه إلى بيوت الأهلين « لأغراض دينية » ؛ ويحرص على أن يستولى على قدر كبير من الغرامات التي تحصلها المحاكم الكنسية في رومة ، لينفقه في الميسر . وقد خسر في إحدى الليالي ١٤٠٠٠ دقة (٣٥٠٠ ر ٣٥٠٠ دولار) كسبها منه الكردينال رفائيلي رياريو Raffaele Riario ، ثم شكوا إلى البابا بأنه خلدع في اللعب ، وحاول إنوسنت أن يسترد له المال ، ولكن الكردينال أقر بأنه أنفقه على البلاط دلا كنتشيليريا Piazza della Cancelleria الذي كان يشيده .

وكان تحويل البابوية إلى سلطة زمنية - انهماكها في السياسية ، والحرب ، وشئون المال - سببا في امتلاء هيئة الكرادلة برجال اشتهروا بمقدرتهم الإدارية ، ونفوذهم السياسى ، وقدرتهم على أن يؤدوا أثمان مناصبهم . وقد أضاف إنوسنت إلى مجمع الكرادلة ثمانية آخرين كثرتهم غير صالحة قط لشغل هذه المناصب السامية ، مع أنه وعد ألا يزيد عدد أعضاء هذا المجمع على أربعة وعشرين . وبذلك خلخل لقب كرنال على جيوفى ده ميديتشى ، وكان ذلك جزءاً من الاتفاق الذى تم بين البابا وبين لورندسو . وكان كثير من الكرادلة رجالا متعلمين تعليما عاليا . خرين ، مناصرين للآداب ، والموسيقى ، والتمثيل ، والفن . وكانت قلة منهم فقية طاهرة ، وكان منهم من لم يتجاوزوا المراتب الصغرى فى السلك الكهنوتى ولم يصبحوا قسيسين . لكن الكثيرين منهم كانوا رجال دنيا ، تتطلب منهم واجباتهم السياسية ، والدبلوماسية ، والمالية أن يشتغلوا بالشئون الدنيوية ، وكانوا قادرين على أن يواجهوا أمثالهم من الموظفين فى الحكومات الإيطالية أو حكومات البلاد التى وراء جبال الألب بنفس الكفاية العلمية والدهاء السياسى . ومنهم من حذوا النبلاء الإيطاليين ، فحصنوا قصورهم واحتفظوا برجال مسلحين يحمونهم من هولاء النبلاء ، ومن غوغاء رومة ، ومن غيرهم من الكرادلة (٥٧) (*) ولعل باستور Pastor المؤرخ الكاثوليكي العظيم قد أفرط فى القسوة عليهم بسبب مهامهم الدنيوية حين قال :

لقد كانت المنزلة المنحطة التى وضع فيها لورندسو ده ميديتشى مجمع الكرادلة أيام إنوسنت الثامن قاعة لسوء الحظ على أساس صحيح . فقد كان الكرادلة أسكانيو اسفوردسا Ascanito Sforza ، ورياريو ، وأرسينى ،

(*) حدث فى مجمع الكرادلة عقد فى شهر يونيه عام ١٤٨٦ أن لام الكرنال بورجيا زميله الكرنال بالو لأنه تمل ، فرد عليه بالو بأن قال للكرنال الذى أصبح فيما بعد البابا إسكندر الثالث إنه « ابن الزانية » .

واسكا لفيناتوس Scalfenatus ، وچان ده لابلو Jean de la Balue ، وجوليانو دلا روفيري ، وسافلي Savelli ، وردريجو بورچيا من أبرز الكرادلة الزمنيين ، سرت إليهم عدوى الفساد الذى كان منتشراً فى إيطاليا بين الطبقات العليا فى عصر النهضة . فقد أحاطوا أنفسهم فى قصورهم الفخمة بأكبر ما تتبعه المدنية الراقية من أعظم ضروب الترف ؛ فكانوا يعيشون كما يعيش الأمراء الزمليون ، ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن أثوابهم الكهنوتية ليست إلا زينة تتطلبها مراتبهم ، وكانوا يصيدون ، ويقامرون ، ويقىمون الولائم وضروب التسلية الفخمة ويشتركون فى جميع ضروب المرح التمثيلي الذى تجرى به المساخر المقنعة ؛ وينغمسون فى الفساد الخلقى الطليق من كل قيد ؛ وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على ردرىجو بورچيا (٥٨) .

وكان الفساد المنتشر فى تلك الطبقة العليا صورة من الفوضى الأخلاقية السائدة فى رومة كما كان من أسباب انتشارها . فقد كان العنف ، واللصوصية ، والسلب والنهب ، والرشوة والتآمر ، والانتقام من الأعمال اليومية العادية . وكان كل صباح يكشف فى الأزقة عن رجال قتلوا فى أثناء الليل . وكان قطاع الطرق يترصدون الحجاج وسفراء الدول ، ريجردونهم من ثيابهم حين يقتربون من عاصمة العالم المسيحى (٥٩) . وكانت النساء يهاجمن فى الشوارع وفى البيوت . وسرقت قطعة من الصليب الحق مغلفة بالفضة من مكان المقدسات فى كنيسة ساننا ماريا فى تراستيفيري Trastevere ، ثم وجد خشبه مجرداً من غلافه الفضى فى كرمه (٦٠) . وكان هذا التشكك الدينى واسع الانتشار ، وشاهد ذلك أن أكثر من خمسمائة أسرة فى رومة أدين أفرادها بالإلحاد فى الدين ثم عفى عنهم بعد أن أدوا غرامات . ولعل حكومة البابا المأجورة فى رومة كانت خيراً من محكمة التفتيش المأجورة السفاحة التى كانت أعمالها تروع أسبانيا فى تلك الأيام ، وحتى القساوسة أنفسهم لم يكونوا مبرئين من

الشكوك الدينية ، من ذلك أن أحدهم قد اتهم بأنه استبدل بعبارة التجسد الواردة في القداس عبارة أخرى من عنده تقول : « أيها المسيحيون البلهاء ، يا من تعبدون الطعام والشراب وتتخذونهما إلهين من دون الله ! » (٦١).

ولما قربت ولاية البابا إنوسنت من نهايتها ظهر المتنبيون يعلنون اقتراب القيامة ، وعلا في فلورنس صوت سفنرولا يصم ذلك العهد بأنه عهد المسيح الدجال .

وفي ذلك يقول أحد الإخباريين : « في العشرين من شهر سبتمبر حدث اضطراب شديد في مدينة رومة ، أغلق التجار على أثره حوانيتهم ، ورجع من كانوا في الحقول والكروم إلى بيوتهم مسرعين ؛ وكان سبب ذلك ما أعلن من أن البابا إنوسنت قد مات » (٦٢) . ورويت قصص غريبة عما حدث في ساعات وفاته ، فقبل إن الكرادلة وضعوا جثته تحت حراسة خاصة خشية أن يستحوذ عليه فرانتشيسكو تشيبو ، وإن الكردينالين بورجيا ودلا روفيري كادا يتلازمان إلى جانب سرير الميت . وإنفيسورا الذي لا يوثق بأقواله هو مصدر الراوية القائلة إن ثلاثة أولاد ماتوا من كثرة ما نقل من دماثهم إلى البابا المحتضر أملا في إنقاذ حياته (٦٣) . وأوصى إنوسنت بثمانية وأربعين ألف دوقية (٦٠٠.٠٠٠ دولار) لأقاربه ، ومات ودفن في كنيسة القديس بطرس ، وغطى ؛ أنطونيو پلابونو خطيباته بضريح فخيم .

الباب السادس عشر

آل بورچيا

١٤٩٢ - ١٥٠٣

الفصل الأول

الكردنال بورچيا

ولد أظرف بابوات النهضة على الإطلاق في أكساتيفا Xativa من أعمال أسبانيا في اليوم الأول من شهر يناير عام ١٤٣١ . وكان والداه ابني عم كلاهما من آل بورچيا ، وهي أسرة يمكن أن تعد من الأشراف . وتلقى ردريجو Roderigo تعليمه في أكساتيفا ، وبلنسية ، وبولونيا ، ولما أصبح عمه كردنالا ثم البابا كلكستس الثالث Calixtus III فتح أمام الشباب طريق التقدم في السلك الكهنوتي . وانتقل ردريجو إلى إيطاليا وغير اسمه إلى بورچيا ، وأصبح كردنالا وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ولما بلغ السادسة والعشرين عين نائباً لقاضي القضاة أي رئيساً للحكومة البابوية وقام بواجبات منصبه بحزم وكفاية ، ونال بعض الشهرة في حسن الإدارة ، وعاش عيشة التقشف ، واتخذ له كثيراً من الأصدقاء من كلا الجنسين ، ولم يكن بعد ق.أ. - ولن يكون حتى يبلغ السابعة والثلاثين من العمر .

وكان في أيام شبابه وسيم الخلق ، جذاباً حلو الطبع ، حاراً في عشقه ، مرحاً في مزاجه ، قوياً مقنعاً في بلاغته وفكاهته المرحية . وقد بلغ في هذه الصفات كلها درجة يصعب معها على النساء أن يقاومنه . وإذا كان ردريجو

قد نشأ في جو التساهل الأخلاقي الذي يسود إيطاليا في القرن الخامس عشر ، حيث يرى كثيرين من رجال الدين والقساوسة يبيعون لأنفسهم التمتع بالنساء ، فقد قرر ردريجو أن يستمتع بكل النعم التي منحهم ومنحه إياها الله سبحانه : ويروي أن بيوس الثاني لأمه مرة لحضوره « رقصة خليعاً مثيراً للشهوات » ١٤٦٠ ، ولكن البابا قبل اعتذار ردريجو وأبقاه نائباً لقاضي القضاة ومعينه وموضع ثقته (١) . وفي ذلك العالم ولد لردريجو ابنه الأول پدرو لويس Pedro Luis أو جىء له به ، وولدت له كذلك ابنته چيrolاما التي تزوجت في عام ١٤٨٢ (٢) : أو جىء له بها . ولسنا نعرف من كانت أم ابنه أو ابنته . وعاش پدرو في أسبانيا حتى عام ١٤٨٨ ثم انتقل في ذلك العام إلى رومة حيث مات بعد عجيته إليها بقليل . ورافق ردريجو بيوس الثاني إلى أنكونا في عام ١٤٦٤ وهناك أصيب بمرض تناسلي خفيف « لأنه لم ينم بمفرده » على حد تعبير طبيبه (٣) .

ثم عقد حوالى عام ١٤٦٦ صلة أكثر دواماً من صلاته النسائية السابقة مع فانتسا ده كاتاني Vanzoza de Catanei ، وكانت وقتئذ في حوالى الرابعة والعشرين من العمر . وكان من سوء الحظ أنها تزوجت بدمينيكو دا رنيانو Domenico d'Arignano ولكن دمينيكو تركها في عام ١٤٦٨ (٤) . وولدت فانتسا لردريجو (الذى أصبح قساً في عام ١٤٦٨) أربعة أبناء : چيوتى في عام ١٤٧٤ ، وسيزارى في عام ١٤٧٦ ، ولكريدسيا في ١٤٨٠ ، وچيوفرى في ١٤٨١ . وقد نسب هؤلاء إلى فانتسا على شاهد قبرها . واعترف بهم ردريجو أبناء له في أوقات مختلفة (٥) . ويوحى وجود هؤلاء الأبناء له واحداً بعد واحد وجود علاقة بين ردريجو وفانتسا بمفردها (٦) ، ولعل الكردينال يورچيا إذا قورن بغيره من رجال الكنيسة يمتاز بقسط من الوفاء والاستقرار

(*) وقد كان رسكو Roscoe حكيماً حين قال : « يبدو أن علاقته بفانتسا كانت علاقة إخلاص وانتظام ، وأنه كان يراها زوجة شرعية ، وإن كان القانون ينكرها بطبيعة الحال » (٧) .

فى علاقته الذمائية . وكان أباً خيراً رحيماً ؛ وكان مما يؤسف له أن ما بذله من الجهد لترقية أبنائه فى المناصب الكنسية لم يكن على الدوام مما يرفع من شأن الكنيسة . ولما أن تطلع رديجور إلى كرسي البابوية وجد لفانتسا زوجاً متسامحاً ، وعمل على أن تعيش فى رخاء ونعيم . وقد ترملت مرتين ، وتزوجت بعداً ، ترملها ، ثم عاشت فى عزلة بعيدة عن المظاهر الفخمة ، وابتهجت حين علا صيت أبنائها وأثروا ، وحزنت لفراقها إياهم ، واشتهرت بعداً . بالتقى والصـلاح ، وتوفيت فى السادسة والسبعين من عمرها . (١٥١٨) : وأوسـت بأملاكها العظيمة القيمة للكنيسة . وأرسل ليوالعاشر رئيس تشريفاته الاشتراكى موكب تهنئتها (٧) .

ولما دخلت فى فهم معنى التاريخ إذا حكمتنا على اسكندر السادس من وجهة النظر الأخلاقية فى عصرنا هذا - أو على الأصح فى أيام شبابنا . وكان معاصروه ينظرون إلى خطيئاته الجنسية قبل أن يرقى عرش البابوية على أنها آثام مرذولة بحسب قوانين الكنيسة لا أكثر ، ولكنهم يرونها بالنسبة للجرم الأخلاقى السائد فى زمانه من الصفات التى يتسامح فيها ويعفى عنها ، بل إن رأى العام حتى أثناء الجليل المحصور بين الوقت الذى أنب فيه بيوس رديجور على انتهائه وارتفاعه ، عرش البابوية قد أصبح أكثر تسامحاً فى نظره إلى الانحراف الجنسى وعدم إطاعة قانون الكنيسة الذى يفرض العزوبة على رجال الدين . بل إن بيوس الذى نفسه كان له أطفال من عشيقاته فى أيام تربيته قبل أن ينظم فى سلك رجال الدين ، ولقد تدعا هو نفسه فى وقت من الأوقات إلى إحادة زواج النساء ؛ كذلك كان لسكستس الرابع عدة أبناء ، و جاء إنترينت بأبنائه إلى المائىكان . ولقد ندد بعضهم بأخلاق رديجور ، ولئن يـساو أن أتعـدأ لم يذكر شيئاً عن هذه الأخلاق حين انعقد المجلس الخامس لاجتماع لاونسنت . وكان خمسة بايوات منهم يتولوا من الحامس ذو الفضائل المعتمولة قد عينوه فى مناصب موفورة الدخـل خلال تلك الدنين كلها ، وهـذا إلى بهما شاقة ووضعوه فى مناصب عظيمة

التبعية ؛ وبلوح أنهم لم يعباؤا قط بما كان له من أبناء كثيرين (إذا استثنيتهم منهم بيوس الثانى فى وقت من الأوقات) (٩) . وكان كل الذى عنوا بملاحظته فى عام ١٤٩٢ هو أنه قد عين مرتين نائباً لرئيس المحكمة البابوية العليا ، وأنه قضى فى ذلك المنصب خمساً وثلاثين سنة ، وأن خمسة من البابوات المتعاقبين عينوه وأعادوا تعيينه فيه ، وأنه قام بمهامه بجد وحزم ملمحوظين ، وأن فخامة قصره فى الظاهر تخفى وراءها حياة خاصة بسيطة إلى حد عجيب ، وقد وصفه ياقوبو دا فلنبرا فى عام ١٤٨٦ بأنه : رجل ذو ذكاء يمكنه من عمل أى شىء يريد ، وذو عقل كبير ؛ وهو خطيب سريع اليدية ، فطن بطبيعته ، حاذق حذقاً عجيباً فى تصريف الأمور (١٠) . وكان أهل رومة يحبونه ، لأنه متعمهم بالألعاب ؛ ولما أن بلغته أنباء سقوط غرناطة فى أيدي المسيحيين متعمهم بمصارعة للثيران على الطراز الاسبانى .

ولعل الكرادلة الذين اجتمعوا فى المجمع المقدس قد تأثروا أيضاً بثروته ، لأن المناصب الإدارية التى تولاها خلال الحكم خمسة من البابوات قد جمعاته . أغنى الكرادلة الذين شهدتهم رومة إذا استثنينا دسنوثيل من هذا التعميم . وكانوا يعتمدون عليه فيما سيمنحه من الهدايا القيمة لمن يعطونه أصواتهم فى الانتخاب ، ولم يخيب هو رجاءهم فيما أملوه . فقد وعد الكردنال أسفوردسلا بأن يعينه نائباً عنه فى المحكمة البابوية العليا ، كما وعده بعدة مناصب تدر عليه إيراداً كبيراً ، وبقصر آل بورچيا فى رومة . أما الكردنال أرسينى فقد وعده بأسقفية قرطاجنة الأسبانية وإيراد كنائسها ، وبلبلنى منيتشيلى وسريانو ، وبأن يتولى حكم أقاليم الحدود . ووعد الكردنال سافلى Savelli بتشقيتها كستيلانا Civita Castellana وأسقفية مابورقة ، وما إلى ذلك . وقد وصف - لافيسورا هذه الأعمال بأنها : « توزيع لإنجيل لبضائعه على الفقراء » (١١) . على أنها لم تكن من الأعمال الغير المألوفة ، فقد كان يستخدمها كل مرشح للبابوية ، فى كثير من المحاميع المقدسة الماضية ، كما يستخدمها كل مرشح للمناصب

السياسية في هذه الأيام . ولسنا واثقين من أن الرشا النقدية كان لها أيضاً نصيب في هذا الانتخاب^(١٣) . وقد كان صاحب الصوت الخامس هو الكردنال غراردو Gherardo وهو رجل في السادسة والتسعين من عمره « لا يكاد يحتفظ بقواه العقلية »^(١٣) . واندفع الكرادلة جميعاً آخر الأمر فانضموا إلى الجانب الفائز حتى كان انتخاب رديجو بورجيا بإجماع الآراء (١٠ أغسطس سنة ١٤٩٢) . ولما سئل أى اسم يريد أن يسمى به وهو بابا أجاب بقوله : « باسم الإسكندر الذي لا يقهر » . وكانت هذه بداية وتذية لولاية دينية وثنية .

الفصل الثانى

إسكندر السادس

وكان اختيار الجمع المقدس هو الاختيار الذى يريده الشعب . ولم يحدث أن كان ابتهاج الناس بانتخاب البابا مماثلاً لابتهاجهم فى هذه المرة (١٤) ، كما لم يكن تتويج واحد من البابوات أفخم من تتويجه . لقد ابتهج الشعب بالموكب الفخم المؤلف من الخيوط البيضاء ، والأشخاص الرمزيين ، والسجف المنقوشة ، والصور الملونة ، والفرسان ، والعطاء ، والجنود الرماة ، والخيالة الأتراك ، والقساوسة السبعائة ، والكرادلة فى أثوابهم ذات الألوان الزاهية وأخيراً بالإسكندر نفسه ، وهو فى الواحدة والستين من العمر ، ولكنه رائع المنظر ، منتصب طويل القامة ، يفيض صحة ونشاطاً وكبرياء . « رصين الوجه مهيب الطلعة » كما يصفه شاهد عيان (١٥) ، يبدو كأنه إمبراطور حتى وهو يبارك الجموع المحتشدة . ولم يكن أحد غير عدد قليل من ذوى الأصلة أمثال جوليانو دلا روفيرى وجيوفانى ده ميديتشى يبدى مخاوفه من أن يستخدم البابا الحديد ، المعروف بأنه أب مغرم بأبنائه ، سلطانه فى رفع شأن أسرته بدل أن يستخدمه فى تطهير الكنيسة وتقويتها .

وبدأ أعماله بداية حسنة . فقد حدثت فى رومة فى الستة والثلاثين يوماً بين موت إنوسنت وتتويج الإسكندر مائتان وعشرون من حوادث الاغتيال التى عرفت . ولكن البابا الحديد ضرب المثل بأول قاتل قبض عليه ؛ فقد شتى هذا المجرم ، وشتى معه أخوه ، وهدم بيته ، وارتضت المدينة هذه القسوة ، وأخفت الجريمة رأسها ، وعاد النظام إلى رومة ، وابتهجت إيطاليا كلها إذ وجدت بدأ قوية تقبض على أزمة الشؤون (١٦) .

وكان الأدب والذين يترقبان من يأخذ بناصرهما وقد وجدا فى الإسكندر

نصيرهما ، فقد شاد البابا الحديد كثيراً من المباني داخل رومة وخارجها ، وتبرع بالمال الذى أنشئ به سقف جديد لكنيسة سانتا ماريا مجورى مضافاً إلى هدية من الذهب الأمريكى من عند فرديناند وإزبلا ، وأعاد تخطيط ضريح هديران فأحاله إلى قصر سانت أنجيلو الحصين ، وأعاد زخرفته من الداخل ليجعل منه سجوناً انفرادية للمساجين البابويين ، وأجندة مريحة للبابوات المنهكين . وأنشأ بين هذا القصر والفاتيكان طريقاً مغطى طويلاً وقاه من شارل الثامن فى عام ١٤٩٤ ، وأنجى كلمنت السابع من مكيدة لوثرية أثناء انتهاب رومة . واستخدم بنتور تشيو فى تزيين مسكن بورجيا فى الفاتيكان ، فأعيد بناء أربع من حججه الست ، وفتحت للجمهور أيام ليو الثامن ؛ وتحتوى كوة فى واحدة منها صورة رائعة للإسكندر نفسه — ذات وجه مشرق ، وجسم ممتلئ سليم ، وأثواب فخمة . وفى حجرة أخرى صورت مريم تعلم الطفل القراءة ، وقد وصفها فاسارى (١٧) بأنها صورة لجويليا فارنيزى Guilia Farnese وهى عشيقة مزعومة للبابا . ويضيف فاسارى إلى قوله السابق أن الصورة تحتوى أيضاً « رأس البابا إسكندر تزدان به » ولكننا لا نرى صورة له واضحة هناك .

وأعاد بناء جامعة رومة ، واستدعى إليها طائفة من المعالين الممتازين وكان يودى إليهم أجورهم بانتظام لم يسمع بمثله فى تلك الأيام . وكان يحب التمثيل ، ويسره أن يمثل طلاب المجمع العلمى فى رومة بعض المسالى والتمثيلات الراقصة فى الحفلات التى تقيمها أسرته ؛ وكان يؤثر الموسيقى الخفيفة على الفلسفة الثقيلة ؛ ومن أعماله أنه أعاد الرقابة على المطبوعات فى عام ١٥٠١ بأن أصدر مرسوماً يحرم طبع أى كتاب إلا بعد أن يوافق عليه كبير الأساقفة المحلى . ولكنه ترك حرية واسعة للهجاء والمناظرة . وكان يضحك من سخريات الفكهين فى المدينة ولا يعابها ، ورفض ما اقترحه عليه سيزارى بورجيا من وجوب تأديب هؤلاء الهجائين .

وقال يوما لسفير فيرارا : « إن رومة مدينة حرة يستطيع كل إنسان فيها أن يقول أو يكتب ما يشاء . وهم يقولون عنى كثيراً مما يسوءنى ولكننى لا أبالى بما يقولون » (١٨) .

وكان تصرفه شئون الكنيسة فى السنين الأولى من ولايته تصرفاً يشهد له بالقدرة والكفاية إلى حد غير مألوف . ومن الأدلة على ذلك أن إنوسنت السابع ترك الخزانة لمدينة ، « فى حاجة إلى كل ما وهب الإسكندر من مقدرة لإصلاح حال المالية البابوية ، وتطلبت منه موازنة الميزانية سنتين كاملتين » (١٨) .

وقد تذرع إلى ذلك بإنقاص عدد موظفى الفاتيكان ، وتخفيض النفقات ، ولكن السجلات كان يعنى بحفظها وتدوينها ، وكانت مراتب الموظفين تودى فى أوقاتها (١٩) . وكان الإسكندر يواظب على إقامة المراسم الدينية الشاقة التى يستلزمها منصبه بأمانة ، ولكنه كان يملأ ملل الرجل الكثير المشاغل . وكان رئيس تشريفاته رجلاً ألمانيا يدعى جوهان بركهارد Johan Burchard ، عمل على تخليد شهرة مولاه وسوء سمعته بأن دون فى يومياته كل ما شاهده تقريباً بما فى ذلك الكثير مما كان الإسكندر يود ألا يطلع عليه الناس . وقد وفى الإسكندر للكرادلة بما وعدهم به فى المجمع المقدس ، بل كان أكثر سخاء لمن كانوا أطول الناس مقاومة له أمثال الكردينال ده ميديتشى ، وعين بعد سنة من توليته اثنى عشرة كردينال جديداً زيادة على الكرادلة الأصليين . ومن هؤلاء من كانوا ذوى مقدرة وكفاية حققة ، ومنهم من عينوا استجابة لرغبة بعض السلطات السياسية التى كان من الحكمة استرضائها ؛ وكان اثنان منهم صغيرى السن إلى حد يدعو للقليل والقال ، وهما إبوليتو دست ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة وسيزارى بورجيا وكان فى الثامنة عشرة ؛ ومنهم ألسندرو فرينزى الذى كان مدينا بمنصبه إلى أخته جويليا فرينزى وهى فى اعتقاد الكثيرين

عشيقه البابا . وكان أهل رومة طويلاً اللسان ، الذين لم يدركوا وقتئذ أنهم سيلقبون ألسندرو في يوم من الأيام بولس الثالث ، يسمونه الكردينال ذا التنورة . وغضب جوليانو دلا روفيري أقوى الكرادلة الشيوخ حين وجد أنه وهو الذي كان يسيطر على إنوسنت الثامن ليس له نفوذ عند الإسكندر بعد أن اتخذ الكردينال اسفوردسا مستشاره الأمين وقربه إليه ، وانتابته نوبة من القنط فذهب إلى كرسية الأسقفى فى أستيا وأنشأ لنفسه حرساً مسلحاً ، ثم فر إلى فرنسا بعد عام من ذلك الوقت ، وطلب إلى شارل الثامن أن يغزو إيطاليا ، ويعقد مجلساً عاماً ، ويخلع الإسكندر الذى لا يتورع عن بيع المناصب الكهنوتية .

وكان الإسكندر فى ذلك الوقت يواجه المشاكل السياسية القائمة أمام بابوية تكثفها القوى الإيطالية التى تأتمر بها من كل جانب . وكانت الولايات البابوية قد وقعت مرة أخرى فى أيدى طغاة محليين ، يدعون أنهم خدام الكنيسة ولكنهم انتهزوا الفرص التى أتاحها لهم إنوسنت الثامن فاستردوا الاستقلال الفعلى الذى فقدوه هم وأسلافهم فى عهد ألبرنوز أوسكستس الرابع . وكانت الدول المجاورة للمدن البابوية قد استولت على بعض هذه المدن ، فاستولت نابلى مثلاً على سورا Sora وأكويلى فى عام ١٤٦٧ ، واستولت ميلان على تورلى فى عام ١٤٨٨ . ولهذا كان أول واحبات الإسكندر هو أن يخضع هذه الولايات تحت حكم بابوى مركزى ، يفرض عليها الضرائب ، كما أخضع ملوك أسبانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا السادة الإقطاعيين . وكانت هذه هى المهمة التى عهد بها إلى سيزارى بورجيا والى أنجزها بسرعة وقسوة جعلت مكيفلى يعجب به ويدهش من قدرته .

وكان أقرب إلى رومة وأشد مضايقة للبابا وإقلاقاً لراحته النبلاء أشياء المستقلين الحاضعون للبابا نظرياً والمعادون له والخطرون عليه فعلاً . وكان

ضعف البابوية من الناحية الزمنية منذ أيام بنديكس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣)
قد ترك لهؤلاء النبلاء سيادة إقطاعية على ضياعهم شبيهة بما كان لأمراء
الإقطاع في العصور الوسطى ، فكانوا يسنون لأنفسهم قوانينهم ، وينظمون
جيوشهم . ويحاربون ، كلما شاءوا ، حروبهم الخاصة غير مباليين بالبابوات
أنفسهم ، وقد أدى هذا كله إلى اضطراب النظام وكساد التجارة في
لانيوم . ولم يمحض على ارتقاء الإسكندر عرش البابوية إلا قليلا من الوقت .
حتى باع فرانثيسكوستوكسيو إلى فرجنو أرسيني Virginio Orsini ضياعاً
خلفها له والده إنوسنت الثامن بمبلغ ٤٠.٠٠٠ دوقه (٥٠٠.٠٠٠ دولار) .
ولكن أرسيني هذا كان ضابطاً كبيراً في جيش نابلي ؛ وكان قد تلقى من
فيرانتى الجزء الأكبر من المال الذى ابتاع به الضياع ، والواقع أن نابلي كانت
قد امتلكت في الأراضي البابوية حصنين ذوى مركزين حربيين خطيرين (٢٢).
ورد الإسكندر على هذا بأن عقد حلفاً مع البندقية ، وميلان ، وفيرارا ،
وسينا ، وبتجنيد جيش ، ونحصر الأسوار القائمة بين سانت أنجيو
والفاتيكان . وتحتفى فرديناند الثانى ملك أسبانيا أن يودى الهجوم المشترك
على نابلي إلى القضاء على سلطان أرغونة في إيطاليا ، فأقنع الإسكندر وفيرنتى
أن يتفاوضا ؛ ونفخ أرسيني البابا بأربعين ألف دوقه نظير احتفاظه بالأدلاك
التي اشتراها ، وخطب الإسكندر لابنه جيوفرى ، وكان وقتئذ في الثالثة
عشرة من عمره ، سانتشيا Sancia حفيده ملك نابلي الحسنة (١٤٩٤) .

وكافأ الإسكندر فرديناند على وساطته الموفقة بأن منحه الأوريكين .
ذلك أن كولبس كان قد كشف « جزائر الهند » بعد شهرين من تولية
الإسكندر ومنح فرديناند وإزبلا تلك البلاد . غير أن البرتغال طالبت بملك
العالم الجديد بالاستناد إلى مرسوم صدر من كالستس Calixtus الثالث
(١٤٧٩) . يؤيد فيها امتلاكها جميع الأراضي الواقعة على شاطئ المحيط
الأطلسي . وردت أسبانيا على هذا بأن المرسوم لم يكن يقصد غير الأراضي

الواقعة على الشاطئ الشرقى من ذلك المحيط . وكانت نيران الحرب وشيكة الاشتعال بين الدولتين حين أصدر الإسكندر مرسومين (فى الثالث والرابع من شهر مايو سنة ١٤٩٣) بمنحان أسبانيا جميع الأراضى المكتشفة فى غرب خط وهمى يمتد من أحد القطبين إلى القطب الثانى على بعد مائة فرسخ أسباني من جزائر أزوره والرأس الأخضر ، كما يمنح البرتغال جميع الأراضى المكتشفة فى شرقه ، مشروطاً ألا تكون الأراضى مما يسكنه المسيحيون ، وأن يبذل الفاتحون كل ما أوتوا من جهد فى أن ينشروا الدين المسيحى بين رعاياهم الجدد . ولم تكن « منحة » البابا بطبيعة الحال إلا تأييداً لحق الفتح بالسيف ، ولكنها حافظت على السلم فى شبه جزيرة أيبيريا ؛ ويبدو أن أحداً لم يفكر قط فى أن لغبر المسيحيين أى حق فى الأراضى التى يسكنونها .

وإذا كان فى مقدور الإسكندر أن يوزع القارات ، فقد وجد كثيراً من الصعوبة فى الاحتفاظ بالفاثيكان . فقد حدث عقب وفاة فيرنتي صاحب نابلى (١٤٩٤) أن استقر رأى شارل الثامن على غزو إيطاليا وإعادة نابلى إلى أملاك فرنسا . وخشى الإسكندر أن يخلع من عرشه فخطا تلك الخطوة الخطيرة وهى طلب المعونة من سلطان الأتراك . ولهذا بعث فى شهر يولية من عام ١٤٩٤ بأمين له يدعى جيورجيو بتشياردو *Giorgio Bocciardo* ليحذر بايزيد الثانى من عزم شارل على دخول إيطاليا والاستيلاء على نابلى ، وخلع البابا أو السيطرة عليه ، وتحريض چم على المطالبة بعرش آل عثمان ، واستغلال هذا فى حرب صليبية ضد القسطنطينية . وعرض الإسكندر أن ينضم بايزيد إلى البابوية ، ونابلى ، ضد فرنسا ، وربما انضمت إليهم أيضاً البندقية . واستقبل بايزيد بتشياردو بالحفاوة الماثورة عن الشرقيين ، ورده بالأربعين ألف دوقة المستحقة عليه نظير نفقات چم يصحبه رسول من عنده إلى الإسكندر . ولما وصل بتشياردو إلى سنغاليا *Senigallia* قبض عليه

چيوفنى دلا روفير أخو الكردنال الحائق ، واستولى على الأربعين ألف دوقه ، وعلى خمس رسائل قيل إنها مرسلة من السلطان إلى البابا . وتشير إحدى هذه الرسائل على البابا بأن يقتل جم ويرسل جثته إلى القسطنطينية على أن يؤدي السلطان عقب وصولها ثلثمائة ألف دوقه (٣,٧٥٠,٠٠٠ ؟ دولار) : (تستطيع بها يا صاحب العظمة أن تبتاع أملاكاً لأبنائك) (٢٣) . وأرسل الكردنال دلا روفيرى صوراً من هذه الرسائل إلى ملك فرنسا . وقال الإسكندر إن الكردنال قد زور الرسائل ، وإنه اخترع القصة من أولها إلى آخرها . والشواهد التي لدينا تؤيد رسالة البابا إلى بايزيد ، ولكنها لا تؤيد رد السلطان وتنطق بأنه في أغلب الظن مزيف (٢٤) . وكانت البندقية وناپلى قد دخلتا من قبل في مفاوضات مثل هذه مع الأتراك ، وسرى فرانسيس الأول يحذو محذوها فيما بعد ؛ ذلك أن الدين عند الحكام إنما هو أداة أدوات السلطان .

وأقبل شارل ، وتقدم مجتازاً ميلان الصديقة ، وأرهب فلورنس . وواقرب من رومة (ديسمبر عام ١٤٩٤) . وساعده آل كولنا باستعدادهم لغزو العاصمة . واستولى أسطول فرنسى على أستيا - مرفأ رومة على مصب التير - وهدد بمنع وصول الحبوب إليها من صقلية . وأعلن كثيرون من الكرادلة ، ومنهم اسكانيو اسفوردسا تأييدهم لشارل ؛ وفتح فرجينو أرسينى قصوره للملك ، وتوسل إليه نصف الكرادلة في رومة أن يخلع البابا (٢٥) . وانسحب الإسكندر إلى قصر سانت أنجيلو ، وبعث مندوبين عنه ليفاوضوا الفاتح . ولم يكن شارل يريد أن يثير أسبانيا ضده بإقدامه على خلع البابا ، بل إن هدفه كان الاستيلاء على ناپلى التي لم يكن ثراؤها يغيب قط عن عقول ضباطه . ولهذا عقد الصلح مع الإسكندر مشروطاً أن يسمح لحيوشه باختراق لانيوم دون عائق ، وأن يعفو البابا عن الكرادلة الذين انضموا إلى شارل ، وأن يسلمه جم . وقبل الإسكندر هذه الشروط ، وعاد

إلى الفاتيكان . واستمتع بركوع شارل ثلاث ركعات أمامه ، وتفضل فنهه من أن يقبل قدمي البابا ، وتلقى من الملك « طاعة » فرنسا الرسمية - أى تخليه عن جميع خططه التي كانت تهدف إلى خلع البابا . وزحف شارل على ناپلى في الخامس والعشرين من يناير ومعه جم ، ومات جم في الخامس والعشرين من فبراير على أثر نزلة شعبية ، ويقول بعضهم إن الإسكندر الماكر سقاه سمّاً بطيئاً ، ولكن أحداً لم يعد يصدق هذه القصة (٢٥) .

وما كاد الفرنسيون يرحلون حتى استرد الإسكندر شجاعته وأكبر الظن أنه أيقن في ذلك الوقت أن ولايات بابوية قوية ، وجيشاً صالحاً ، وقائداً محنكاً لا غنى عنها لسلامة البابوات من سيطرة أصحاب السلطة الزمنية (٢٦) . ولهذا عقد مع البندقية ، وألمانيا ، وأسبانيا ، وميلان حلفاً مقدساً (٣١ مارس سنة ١٤٩٥) هدفه في ظاهر الأمر الدفاع المتبادل ومحاربة الأتراك ، ولكنه يهدف في السر إلى طرد الفرنسيين من إيطاليا . وعرف شارل السر ، وارتد إلى پيزا عن طريق رومة ، وأراد الإسكندر أن يتحاشى الاصطدام به فراح إلى أرثينو وپروجيا . ولما فر شارل عائداً إلى فرنسا دخل الإسكندر رومة دخول الظافرين ، وطلب إلى فلورنس أن تنضم إلى الحلف وأن تطرد منها سفنرولا صديق فرنسا وعدو البابا أو ترغمه على السكوت ، وأعاد تنظيم الجيش البابوي ، ووضع على رأسه جيوفاني أكبر أبنائه الأحياء ، وأمره أن يفتح حصون آل أرسيني الثائرة ويضمها لأملاك البابوية . (١٤٩٦) . ولكن جيوفاني لم يكن قائداً محنكاً ، فهزم في سريانو Soriano وعاد إن رومة يجلله العار ، وانغمس في الشهوات التي أدت في أغلب الظن إلى موته المبكر . لكن الإسكندر رغم هذا استرد الحصون التي بعث لفرجينو أرسيني ، كما استرد أستيا من الفرنسيين ، وبدا له أنه تغلب على كل الصعاب ، فأمر بنتورتشيو أن ينقش على جدران الجناح البابوي في سانت أنجيلو مظالمات تمثل انتصار البابا على الملك . وكان الإسكندر وقتئذ قد وصل إلى ذروة مجده .

الفصل الثالث

الآتم

وحملت له رومة حسن إدارته الداخلية ونجاحه رغم تردده في سياسته الخارجية ، ولامته لوماً خفيفاً على مغامرات حبه ، ولوماً غنياً على سعيه لتوفير الثراء لأبنائه ، وحقدت عليه لتعيينه في مناصب الدولة برومة حشداً كبيراً من الأسبان كان مظهرهم الأجنبي ولغتهم الأجنبية مثاراً اغضب الإيطاليين . وكان عدد ضخم من الأسبانيين من أقارب البابا قد هرعوا إلى رومة « حتى لم تعد مائة بابوية تكفي ذلك الحشد من أبناء الأعمام » ، كما يقول شاهد عيان (٢٧) . وكان الإسكندر وقتئذ وقد أصبح إيطاليا كاملاً في ثقافته ، وسياسته ، وأساليبه ولكنه لا يزال يحب أسبانيا ، ويتحدث بالأسبانية أكثر مما يجب مع سيزارى ولكريديسيا ، ورفع إلى مقام الكردينالية تسعة عشر أسبانيا ، وأحاط نفسه بخدم ومساعدين قطلانيين ، حتى لقبه الإيطاليون الحاسدون آخر الأمر « البابا المهجين » (٢٨) يشيرون بذلك إلى انحداره من يهود أسبانيين اعتنقوا المسيحية . ورد الإسكندر على هذا بقوله إن كثيرين من الإيطاليين ، وبخاصة في مجمع الكرادلة ، قد غدروا به ، وإنه لا بد أن يجمع حوله طائفة من الأنصار يرتبطون معه برباط الولاء الشخصي القائم على علمهم بأنه هو حاميم الأوحدة في رومة .

وكان هو ، وأمرء أوروبا حتى زمن نابليون ، يقولون هذا القول عينه ليبرروا ترقية أقاربهم إلى مناصب الثقة والسلطان . وقد ظل البابا (*)

(*) انظر ما يقوله كريتن Creighton : « لم يكن الحلفاء من يوثق بهم في الظروف السياسية الإيطالية المزعزعة إلا إذا اعتمد إخلاصهم على بواعث المنفعة الخاصة لهم . ولقد فإن -

فترة من الوقت يأمل أن يعينه ابنه جيوفاني على حماية الولايات البابوية ، ولكن جيوفاني ورث عن أبيه حسه المرهف نحو النساء غير مصحوب بقدرته على حكم الرجال . وأدرك الإسكندر أن ابنه سيزارى دون سائر أبنائه هو الذى أوتي العزيمة والصرامة اللتين لا بد منهما لخوض غمار السياسة الإيطالية فى ذلك العصر المليء بالعنف ، فخلع عليه عدداً كبيراً من المناصب الدينية يدر عليه إيرادات ينفقها هذا الشاب ذى السلطان المازع الزيادة . وحتى لكريديسيا الطريقة نفسها اتخذت أداة سياسية ، فألفت نفسها وقد ارتقت إلى حكم إحدى المدن أو إلى فراش دوق جليل الشأن . وكان البابا يجب لكريديسيا حبا أدى ببعض المغتابين النمامين إلى اتهامه بمضاجعتها وتصويره بالوالد الذى ينافس أبنائه فى عشقها^(٢٩) . وقد حدث فى مرتين اضطرب فهما ألكسندر إلى الغياب عن رومة أن عهد إلى لكريديسيا بحجرة فى الفاتيكان وخولها حق فض رسائله وتصريف جميع الشؤون العادية . وكان تحويل النساء مثل هذه السلطة كثير الحدوث فى بيوت الحكام بإيطاليا - كما حدث فى فيرارا ، وأربينو ، ومانتوا - ولكن هذا العمل روع رومة نفسها وهى المتخمة بالمفاسد . ولما أن قدم جيوفاني وسانتشيا من نابلى بعد زفافهما ، خرج سيزارى ولكريديسيا لاستقبالهما . وهرول الأربعة إلى الفاتيكان ، وسعد الإسكندر بقرعهم . وفى ذلك يقول جوتشيارديني Quicciardini « لقد اعتاد غير الإسكندر من البابوات أن يخفوا فضائحهم بأن يسموا أبناءهم أبناء إخوانهم ، ولكن الإسكندر كان يسره أن يعرف العالم كله أبناءه »^(٣٠) .

= الإسكندر السادس اتخذ صلات الرواج فى أسرته وسيلة يحيط بها نفسه بحزب سياسي قوى . ولم يكن يثق بأحد غير أبنائه يتخذهم أدوات لتنفيذ خطته » من كتاب M. Creighton « تاريخ البابوية فى عهد الإصلاح الدينى » الجزء الثالث ٢٦٣ . وهذا الأسقف الأنجليكان لا يضارعه فى نزاهته وغازله علمه فى هذا الميدان إلا أمانة لدثج ثنى باستون Ludwig von Pastor وعلمه الواسع فى كتابه « تاريخ البابوات » وكان وجود هذين التاريخين العظيمين خليفاً أن يمحوا من زمن بعد غيوم الأقاصيص الخرابية التى نسرهما الكتاب المزمزون حول بابوات النهضة .

وكانت رومة قد غفرت للبابا علاقته بفانتسا الساذجة ، ولكنها دهشت لعلاقته بجوليا التي تنقلت من عشيق إلى عشيق . واشتهرت جوليا فرينزي Guilia Farnese بجمالها الرائع ، وخاصة بشعرها الذهبي ؛ فلذا أرسلته ووصل إلى قدميها كان له منظر يلهب دم رجال أقل توقداً من الإسكندر . وكان أصدقاؤها يلقبونها « الجميلة La Belle » . ويصفها سانودو Sanudo بأنها محبوبية البابا ، وأنها فتاة رائعة الجمال ، قوية الإدراك ، رحيمة ، ظريفة (٣١) . ووصفها إنفيسورا في عام ١٤٩٣ فقال إنها شهدت مأدبة زواج لكريديسيا في الفاتيكان ، وسماها محظية الإسكندر ؛ وأطلق ماتارتسو المؤرخ البيروجي هذا اللقب ذاته على جوليا ولكنه في أغلب الظن كان ينقل عن إنفيسورا ، وسماها أحد الظرفاء الفلونسيين في عام ١٤٩٤ « عروس المسيح Sposa di Cristo » وتلك عبارة لا تطلق عادة إلا على الكنيسة (٣٢) . وقد حاول بعض العلماء أن يظهروا اسم جوليا بحجة أن لكريديسيا التي دل البحث على لقاء سيرتها - ظلت صديقها إلى آخر أيامها ، وأن أرسينو أرسيني Orsino Orsini زوج جوليا بنى معبداً تكريماً لذكراها الشريفة (٣٣) . وولدت جوليا في عام ١٤٩٢ ابنة ميميت لورا Laura ، قيدت رسمياً منسوبة إلى أرسيني ؛ ولكن الكردنال ألسندرو فارينزي اعترف بأن الطفلة ابنة الإسكندر نفسه (٣٤) (*) . وينسب إلى البابا أيضاً ابن غامض خفي ولد له من امرأة أخرى حوالي عام ١٤٩٨ ويعرف في يومية بركهارد باسم الطفل رومانوس Infans Romanus (٣٥) . وليست نسبته إلى البابا مؤكدة ، ولكن زيادة واحد أو نقصه في عدد أولئك الأبناء أمر غير ذى بال .

وليس ثمة شك في أن الإسكندر هذا كان رجلاً شهوانياً حار الدم .

(*) يرى ماستور (في الجزء الخامس هامش ص ٤١٧) أن هذا دليل قاطع على إثم الإسكندر ، ولكن المفتابين المعادين للبابا قد سوبوا سمعته تسويهاً يجهل المشفقين عليه لا يقسرون في الحكم على أخلاقه استناداً إلى هذا الدليل .

إلى درجة لا تتفق قط مع العزوبة : والشواهد على ذلك كثيرة : منها أنه أقام احتفالا عاما في الفاتيكان مثلت فيه مسلاة (فبراير ، ١٥٠٣) ، وأنه استمتع في هذه المناسبة بكثير من ضروب الملاحى ، وسره أن يلتف حوله عدد من النساء الرائعات الجمال ، وأن يجلسن على مقاعد منخفضة عند قدميه : ذلك أنه كان رجلا ، ويبدو أنه كان يشعر بما يشعر به كثيرون من رجال الدين في تلك الأيام ، وهو أن فرض العزوبة على رجال الدين خطأ وقع فيه هلدبراند ، وأن الكرادلة أنفسهم يجب أن يسمح لهم بأن يستمتعوا بلذة صحبة النساء ، وإحهن . وكان يظهر لثانتسا مشاعر الحنان الزوجى ؛ ولعله كان يظهر لجوليا الحب الأبوى . لكن إخلاصه لأبنائه ، الذى كان يتغلب فى بعض الأحيان على إخلاصه لمصالح الكنيسة ، يمكن أن يتخذ حجة تبرر بها حكمة القانون الكنسى الذى يفرض العزوبة على القسيسين .

وكان الإسكندر فى السنين الوسطى من ولايته ، وقبل أن يطغى عليه فيها سيزارى بورجيا ، يتصف بكثير من الفضائل . نعم إنه كان فى تصريح الشئون العامة مهيبا ذا شمم وكبرياء ، ولكنه كان فى أحواله الخاصة مرحا ، طيب السريرة ، بشوشا ، حريصا على الاستمتاع بالحياة ، يستطيع أن يضحك ملء شديقه حين يرى من نافذة غرفته استعراضا للرجال المقنعين « ذوى أنوف مزيفة طويلة كبيرة الحجم فى شكل عضو الذكيرة » (٣٦) .

وكان وقتئذ لدينا إلى حد ما إذا جاز لنا أن نتق بصورته وهو يصلى القيا رسمها له بنتورتشيو والتي يبدو لنا أنها صورة صادقة . ومع هذا فإن كل ما كتب عنه يشهد بأنه كان مقتصدا فى طعامه وشرابه ، وأن مائدته كانت تبلغ من البساطة حدا ينفر منه الكرادلة (٣٧) . وأنه لم يكن يرمى - حتى يذنه أثناء قيامه بالشئون الإدارية ، فكان يقضى فى العمل جزءا كبيرا من

الدليل ، ويراقب يجد ونشاط شئون الكنيسة في جميع أنحاء العالم المسيحي .

ترى هل كان استمساكه بالدين المسيحي تصنعاً ورياء ؟ أكبر الظن لا .
ودليلنا على ذلك أن رسائله حتى التي تختص منها بجويليا مليئة بعبارات التقى
التي لم تكن من مستلزمات الرسائل الخاصة (٣٨) . ولقد كان هو رجل
نشاط وعمل تغلبت عليه أخلاق زمانه السهلة غير المتحرجة ؛ حتى لم يكن
يمرى ، إلا في القليل النادر من الأوقات ، أن ثمة تناقضاً بين حياته وبين
مبادئ الأخلاق المسيحية . وكان كمعظم الذين يستمسكون بقواعد الدين
كاملة ، يسلك مسلك رجال الدنيا كاملاً . ويبدو أنه كان يشعر أن البابوية
في الظروف المحيطة بها في عهده تحتاج إلى حاكم سياسى لا إلى ولي من أولياء
الله الصالحين . وكان يعجب بالتقى والصلاح ، ولكنه كان يظن أن هذا من
مستلزمات الرهينة والحياة الخاصة ، لا من صفات رجل يضطر إلى أن
يعامل في كل خطوة من خطواته طغاة ، دهاة ، يعملون للكسب والسلطان ،
أو دبلوماسيين غادرين لا ذمة لهم ولا ضمير . وانتهى به الأمر إلى اتباع
جميع أساليبهم ، واصطناع أكثر ما تحوم حوله الريب من حيل من سبقوه
في البابوية -

واضطرتّه حاجته إلى المال لأداء نفقات حكومته وحروبه ، فباع
المناصب ، واستولى على ضياع الموتى من الكرادلة ، واستغل عيد سنة ١٥٠٠
أنتم استغلال ، فكان الإعفاء من الواجبات الدينية والإذن بالطلاق يمنحان على
أنهما عملان مربحان في المساومات السياسية : مثال ذلك أن لادسلاس ملك
المجر دفع ٣٠,٠٠٠ دوقة نظير إلغاء زواجه ببياتريس أميرة نابلى ، ولو أن
هنرى الثامن قد وجد بابا كالإسكندر يتعامل معه ، لبقى إلى آخر أيامه
حامي حى الدين . ولما لاح أن العيد سيخفق من الناحية المالية لأن الذين
كانوا يريدون الحج قعدوا في منازلهم خوفاً من اللصوص ، أو الوباء
أو الحرب ، لم يشأ الإسكندر أن يخسر ما قارده لنفسه من مال ، وجرى على

سنة أسلافه البابوات ، فأصدر مرسوماً بابوياً (٤ مارس سنة ١٥٠٠)
يفصل فيه ما يستطيع المسيحيون أدائه من المال ليحصلوا على الغفران الذى
كانوا سيحصلون عليه بالحج إلى رومة ؛ وبأى ثمن يستطيع التائبون أن
يفقر لهم زواجهم من المحارم ، وكم يؤدى رجل الدين لكى يفقر له بيع
المنصب أو « الشذوذ » (٣٩) . وأمر فى السادس عشر من ديسمبر أن يمد
العيد حتى يوم الغطاس . ووعد الحياة دافعى المال بأن أموالهم ستستخدم
فى حرب صليبية على الأتراك ، وفى بهذا الوعد بالنسبة إلى الأموال
المجموعة من بولندة والبندقية ، ولكن سيزارى بورچيا استخدم ما تجمع
من الأموال فيما شنه من الحروب لاستعادة الولايات البابوية (٤٠) .

وأراد الإسكندر أن يزيد حفلات العيد جلالاته فى الثامن والعشرين
من سبتمبر عام ١٥٠٠ اثنى عشر كردنالا جديداً بلغ مجموع ما أدوه
ثماناً لمناصبهم ١٢٠,٠٠٠ دوقه ، ويقول جوتشياردينى إن هذه المناصب
« لم يرق إليها أكثر الناس جدارة بها بل كانت من نصيب من يؤدون فيها
أغلى الأثمان » (٤١) . ثم عين فى عام ١٥٠٣ تسعة كرادلة آخرين حصل
منهم على أثمان مجزية (٤٢) . وأنشأ كذلك فى هذه السنة ذاتها ثمانين منصباً
فى الحكومة البابوية لا موجب لها على الإطلاق ، وبيع كل منصب من هذه
المناصب بسبعائة وستين دوقه كما يقول جوستيانينى Quistianini سفير
البندقية وأحد أعداء البابا (٤٣) . ولصق أحد الهجائين على تمثال يسكوينو
(١٥٠٣) هذا الهجاء اللاذع : « إن المفاتيح ومذابح الكنائس والمسيح يبيعها
الإسكندر ، وحتى له أن يبيعها ، فتد أدى هو ثمنها » (٤٤) .

وكان الثانون الكنسى ينص على أن تعود أملاك رجال الدين إلى الكنيسة
بعد وفاتهم ، إلا إذا قضى البابا غير هذا (٤٥) . وكان الإسكندر يتقضى
بغير هذا على الدوام إلا إذا كان المتوفى من الكرادلة . واستجاب الإسكندر
لضغط سيزارى بورچيا وإلحاحه فجعل الاستيلاء على الثروة التى يتركها

وراءهم كبار رجال الكنيسة من المبادئ العامة المقررة ، وجاءت بهذه الطريقة أموال موفورة إلى بيت المال . وخدع كثيرون من الكرادلة البابا بمنح هبات كثيرة من أموالهم قبل وفاتهم ، ومنهم من عمد في أثناء حياته إلى إنفاق أموال كثيرة لإعداد أنصاب تذكاريه لهم تبقى بعد موتهم . ولما مات الكردنال ميشيل (١٥٠٣) جرد عملاء البابا من فورهم بيته من كل ما كان فيه ، وقبض البابا ثمنه ، إذا صدقنا ما يقوله جوستيانا ، البالغ مائة وخمسين ألف دوقية . وكان مما يشكو منه الإسكندر أنه لم يتسلم منه نقداً سوى ٢٣٨٣٢ دوقية (٤٦) .

وسرّجنى هنا البحث المفصل فيما يعزى للإسكندر أو سيزارى بورجيا من دس السم لكبار رجال الكنيسة الذين تطول أعمارهم ، ولكننا نقبل مؤقتاً النتيجة القائلة بأننا « لانجد قط دليلاً يثبت أن الإسكندر قد دس السم لإنسان » (٤٧) . على أن قولنا هذا لا يثبت براءته ، وربما كان هو أمهر من أن يترك وراءه للتاريخ ما يدينه ، لكنه مع ذلك لم ينج من المهجائين والتمامين ، وغيرهم من الظرفاء الذين كانوا يبيعون نكاتهم القائلة إلى أعدائه ، وقد رأينا كيف كان سنادسارو يسلط شعره القاتل المقتفى على البابا وولده أثناء النزاع الذى شجر بين البندقية وناپلى ، كذلك سخر أنفيسورا قلمه للتشنيع على البابا خدمة لأن كولنا ، وكان جيرونيمو متشيونى Geronimo Mancioni فى يد بارونات سافلى أقوى من فرقة عسكرية . وكان من الوسائل التى استخدمها الإسكندر نفسه فى حروبه مع نبلاء كميانيا ، أن أصدر فى عام ١٥٠١ مرسوماً بابوياً يفصل فيه الجرائم التى ارتكبتها آل سافلى وكولنا . وكان أشد من هذا مبالغة - الرسالة الذائعة الصيت التى كتبها متشيونى والمسماة « رسالة إلى سلفيوسافلى » يعدد فيها رذائل الإسكندر وسيزارى بورجيا وجرائمهما . وقد نشرت هذه الوثيقة فى مدى واسع ، وكان لها أثر كبير فى تصوير الإسكندر بصورة وحش فى قسوته

وشندوذه^(١٨) . وفاز الإسكندر في حروب السيف ، ولكن أعداءه النبلاء ، الذين لم يكبح جماحهم عدوه البابا يوليوس الثاني ظفروا به . حرب التلم ونقلوا صورتها التي صورته بها إلى التاريخ .

ولم يكن يبالي قط بالرأى العام ، وقلما كان يرد على السباب التي ضاعفت من غير رحمة عيوبه الحققة . لقد عقد الرجل العزم على إقامة دولة قوية ، وكان يظن أن هذه الدولة لا تقام بالأساليب المسيحية . وكان استخدمه لأدوات السياسة الماثورة التقليدية - الدعاوة ، والخداع ، والدسائس ، والنظام ، والحرب - لا بد أن يسىء إلى أعيان رومة ، ودول إيطاليا الذين يرون أن من مصلحتهم أن يسود الصعف والفوضى في البابوية نفسها وولاياتها . وكان الإسكندر في بعض الأحيان يقف ليحكم على حياته حسب المقاييس الإنجيلية ، ثم يقر بأنه كان يبيع الرتب الكهنوتية ، وأنه فاسق ، وأنه قضى بالحرب على حياة بني الإنسان : وقد فقد مرة مبادئه المكيقلية التي لا تعيد صاحبها بالتبعة الأخلاقية ، واعترف بذنوبه وأقسم أن يصلح من أمره وأمر الكنيسة .

وكان يحب ابنه جيوفني جداً يفوق حبه لكرديسيا نفسها ؛ ولما أنه ابنه بديرو لويس حرص الإسكندر على أن يهب جيوفني دوقية غنية في أسبانيا .

وكان من اليسر أن تحب فتاة هذا الصبي ، فقد كان وسيماً ، رقيقاً ، مرحاً ، ولكن الأب الشفوق بولده لم يكن يرى أن الشاب خلق للحب بل للحرب ؛ ولهذا عينه قائداً للجند ، وأثبت القائد الشاب أنه غير كفء لهذا العمل ، فقد كان جيوفني يرى أن امرأة جميلة أئمن من فتح مدينة . وفي الرابع عشر من شهر يونية تعشى مع أخيه سيزاري وغيره من الضيوف في بيت أمه فائندسا ، وافترق جيوفني عن سيزاري وسائر الضيوف وهم عائدون ، وقال إنه يريد أن يزور سيدة من معارفه .

ولم يُرَ حياً بعد تلك الساعة . ولما لوحظت غيبته طلب البابا أن يبحث عن ابنه الحبيب ، واعترف صاحب زورق أنه رأى جثة تلقى في نهر التيبر في ليلة الرابع عشر من الشهر ، ولما سئل لمَ لم يبلغ عنها ، قال إنه شاهد في حياته مائة حادثة من هذا النوع ، ولأنه تعلم ألا يشغل باله بها . وفقدش مجرى النهر ، ووجدت الجثة ، مطعونة في تسعة مواضع مختلفة ؛ ويلوح أن الدوق الشاب هاجمه عدد من الأشخاص ، وحطم الحزن قلب الإسكندر وأدى به إلى أن يغلق على نفسه باب غرفته الخاصة ، ويمتنع عن الطعام ، وكان أنينه يسمع في الشارع نفسه .

وأمر أن يبحث عن القتلة ، ولكن لعله ارتضى بعد قليل من الوقت أن يبقى الحادث في طي الخفاء . وكانت الجثة قد عثر عليها بالقرب من قصر أنطونيو بيكو ديلا ميرندولا Anonio Pico della Mirandola ويقال إن الدوق أغوى ابنته الحسنة ، ويعزو كثيرون من المعاصرين ومنهم اسكالونا Scalona سفير مانتوا مقتله إلى جماعة من السفاحين المتشردين استأجرهم الكونت لهذا الغرض ، ولا يزال قولهم هذا أقرب التفسير احتمالاً (٤٩) . ويعزو آخرون ومنهم سفيرا فلورنس وميلان في رومة هذه الجريمة إلى أحد أبناء أسرة أرسيني التي كانت وقتئذٍ مشتبكة مع البابا في حرب (٥٠) . ويقول بعض الثرثارين النيامين إن جيوفاني غازل أخته لكريدسيا ، وإن مقتله كان بأيدي بعض أتباع زوجها جيوفاني اسفوردسا (٥١) ؛ ولم يتهم أحد في ذلك الوقت سيزارى بورجيا ، ويبدو إن سيزارى وهو وقتئذٍ في الحادية والعشرين من عمره ، كان على أتم وفاق مع أخيه ، فقد كان كـردنالا ، وكان يسير في طريق الرقي الخاص به ، ولم يغير هذا الطريق ويسلك طريق الجندية إلا بعد أربعة عشر شهراً من الحادث ، ولم يمد شيئاً ما من مقتل أخيه ، ولم يكن هو ليتنبأ بأن جيوفاني سيفارقه في طريقه وهما عائدان من بيت فاندسا . ولم يرتب الإسكندر وقتئذٍ في

سيزارى ، بل إنه فعل ما يدل على عكس هذا ، فعينه مصفيا لتركته .
وكان أول ماورد من الأقوال عن أن سيزارى هو القتال فى رسالة
كتبها بنيا Pinga سفير فيرارا فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٤٩٨
بعد ثمانية عشر شهراً من وقوع الحادث ، ولم يربط الرأى العام بينه وبين
الجريمة إلا بعد أن كشف عن كل ما فى أخلاقه من قوة وقسوة ؛ وحينئذ
فقط اتفق مكيشلى وجوتشياردينى على اتهامه بها . ولعله كان قادراً على
ارتكابها فى مرحلة أخرى من مراحل تطوره لو أن جوقى عارضه فى
أمر من الأمور الحيوية : ولكننا نكاد نجزم أنه برىء من هذه الجريمة .

ولما استرد البابا سلطانه على نفسه جمع مجلساً من الكرادلة (١٩ يونيه
سنة ١٤٩٧) ، وتلقى تعازيهم وأبلغهم أن « دوق غنديا كان أحب إليه من
أى شخص آخر فى العالم » ، وقال إن هذه المصيبة « وهى أكبر
المصائب التى يمكن أن تحل به » عقاباً له من عند الله على ذنوبه ، ثم
أضاف « ولقد عقدنا العزم على أن نصلح من شأن حياتنا ، وأن نصلح
الكنيسة وستكون المناصب من هذه الساعة وفقاً على من يستحقونها ،
تعطى حسب أصوات الكرادلة . ولن نتحيز قط لأقاربنا ، وسنبداً
الإصلاح بإصلاح أنفسنا ، ثم نسير به فى جميع مراتب الكنيسة حتى ننجز
العمل كله » (٥٣) . وعينت لجنة من ستة كرادلة لتعد برنامجاً للإصلاح .
وأخذت تعمل بجد وقدمت للإسكندر مرسوماً بهذا الإصلاح بلغ من
عظم الشأن درجة لو نفذت معها مواده لنجبت الكنيسة من حركة الإصلاح
الدينى التى حدثت فى هذه الفترة ومن حركة الإصلاح المضادة . غير
أنه لما سئل الإسكندر كيف تقوم موارد البابوية : بغير المال الذى يدفع
نظير التعيين فى المناصب الكنسية ، بالوفاء بنفقات الحكومة ، لم يجد
جواباً شافياً . وكان لويس الثانى عشر يتأهب فى ذلك الوقت لغزو إيطاليا

مرة أخرى ، وعرض سيزارى بورجيا أن يسترد الولايات البابوية من « نائبي البابا » المعاندين : واستحوذ على روح البابا ذلك الأمل العظيم وهو إيجاد صرح قوى يهب الكنيسة سلطانا ماديا وماليا في عالم متمرّد غير مستقر . ولهذا أخذ يربح الإصلاح من يوم إلى يوم ؛ ثم نسب آخر الأمر وسط الانتصارات المثيرة التي نالها . ولد له أخذ يفتح له مملكة ، ويجعله ملكا بحق .

الفصل الرابع

سيزارى بورجيا

وكان لدى الإسكندر أسباب كثيرة للفخر بالابن الذى أصبح الآن أكبر أبنائه ؛ فقد كان سيزارى أشقر شعر الرأس واللحية كما يريد كثير من الإيطاليين أن يكونوا ، حاد البصر ، فاره الطول ، معتدل القامة ، قوى البنية ، ثابت الجنان لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه . ويقال عنه ، كما يقال عن ليوناردو إنه يستطيع أن يلوى حذاء فرس بيده العارية . وكان يمتطى صهوة الجياد الجاحدة التى كان يجمعها لاسطبله . وكان يخرج إلى الصيد بتلهف الكلب الذى شم رائحة الدم . وقد أدهش جماعة من الناس فى أثناء عيد رومة حين قطع رأس ثور فى مصارعة للثيران فى أحد ميادين رومة بضربة واحدة من يمينه . وفى اليوم الثانى من شهر يناير سنة ١٥٠٢ ، ركب إلى حانة مصارعة للثيران نظمها هو فى ميدان سان بيثرو ، ومعه تسعة غيره من الاسبان ، وهاجم بمفرده وبيده حربته ثورا من اثنين هما أشد الثيران وحشية أطلقا فى الحلبة ؛ فقد نزل عن جواده وأخذ يصارعه راجلا بعض الوقت ، حتى إذا أثبت ما يكفى من بسالته ومهارته ترك الحلبة إلى المحلة (٥٤) . وقد أدخل هذا الصراع إلى رومانيا Ramagna كما أدخله إلى رومة ؛ ولكنه رد إلى أمبانيا بعد أن قتل فيه عدد من المصارعين الهواة .

ونحن إذا ما صورناه فى صورة وحش ضار أخطأنا فى هذا التصوير أشد الخطأ ؛ وقد وصفه أحد معاصريه بأنه : « شاب عظيم النشاط إلى حد لا يضارعه أحد فيه ، وذو استعداد ممتاز ، بشوش ، بل قل مرح ، عالى الهمة على الدوام » (٥٥) . ووصفه آخر بقوله إنه « يفوق أخاه دوق

غنديا في منظره وذكائه» (٥٠) . وقد أدرك الناس دماثة أخلاقه ، وأعجبوا بنابسه الغالى البسيط ، ونظرته المسيطرة الآمرة . وطلعة الرجل الذى يشعر بأنه قد ورث العالم . وكانت النساء يعجبن به ولكنهن لا يحببنه ، فقد كن يعرفن أنه يستخفهن حين يتصل بهن وحين يبتذهن . وكان قد درس من القانون في جامعة بروجا ما يكفي لأن يقوى من حاجة ذهنه الفطرية ؛ ولم يكن يجد إلا القليل من الوقت ينفقه في قراءة الكتب أو في « تثقيف » عقله ، وإن كتب الشعر من آن إلى آن كما كان يفعل كل الناس ، وبلغ منه أن كان يزدهى على شاعر بين موظفيه . وكان يقدر الفن تقدير العارف به القادر على التفريق بين الطيب منه والخيث ؛ وشاهد ذلك أنه لما رفض الكردنال رفالو رياريو أن يتناع صورة الكوييد لأنها لم تكن قديمة بل كانت من صنع شاب فاورنسى غير مشهور يدعى ميكيل أنجيلو بيونارتي عرض فيها سيزارى ثمناً عالياً .

وما من شك في أنه لم يخلق ليكون من رجال الدين ؛ ولكن الإسكندر الذى كانت له أسفغيات لإمارات تحت تصرفه عينه كبيراً لأساقفة بلانسية (١٤٩٢) ، ثم كردنالا (١٤٩٣) ؛ ولم يكن أحد من الناس يرى أن هذه مناصب دينية بحق ، بل كانت في نظر الناس وسائل تدر دخلا على الشبان الذين لهم أقارب ذوو نفوذ ، والذين يستطيع تدريبهم لتصرف شئون أهلاك الكنيسة والإشراف على موظفيها . وتدرج سيزارى في المراتب الكهنوتية الصعري . ولكنه لم يصبح قط قساً . ولما كان قانون الكنيسة يحرم الأبناء غير الشرعيين من الكردنالية ، فقد أعان الإسكندر بمرسوم صادر في ١٩ من سبتمبر سنة ١٤٩٣ أنه ابن شرعى لثاندسا ودارنيانو d'Arignano . ولم يكن من الأمور المبدئية أن يصفه البابا سيكستس الرابع في مرسوم أصدره في ١٦ أغسطس سنة ١٤٨٢ بأنه ابن « ردريجو ، الأسقف ونائب رئيس المحكمة » . وغض الجمهور النظر عن هذا التناقض ، واكتفى بالابتناسام ،

فقد اعتد أن يرى الأكاذيب القانونية تستر الحقائق التي لم يحن بعد وقت إعلانها .

وسافر سيزارى إلى نابلى في عام ١٤٩٧ بعد قليل من وفاة جيوفاني ، مندوباً من قبل البابا ، وكان من حظه أن توج ملكاً من الملوك . ولعل لمس التاج قد أثار وقتئذ عواطفه ، فلما عاد إلى رومة ألح على أبيه أن يسمح له بالتخلي عن منصبه الكنسي ؛ ولم تكن ثمة وسيلة لتخليه عنه إلا بأن يعترف الإسكندر صراحة أمام مجمع الكرادلة بأن سيزارى ابن غير شرعى له . وهذا ما صرح به فعلاً ، وأعقبه إعلان يقول إن تعيين النغل الشاب كرادلاً مخالف للقانون (١٧ أغسطس عام ١٤٩٨) (٥٧) . ولما عادت إلى سيزارى بنوته غير الشرعية ، انهمك بكليته في الأعمال السياسية .

وكان الإسكندر يرجو أن يرضى فدريجو Federigo الثالث ملك نابلى بسيزارى زوجاً لابنته كارلوتا Carlotta ، ولكن فدريجو كانت له مبول غير هذه المبول . وساء ذلك البابا أشد إساءة ، فولى وجهه شطر فرنسا يرجو أن يستعينها على استعادة الولايات البابوية . وواتته الفرصة حين طلب إليه لويس الثاني عشر أن يبطل زواجاً أرغم عليه في شبابه وادعى الآن أنه لم يصل إلى غايته . ولما حل شهر أكتوبر من عام ١٤٩٧ أرسل الإسكندر ابنه سيزارى إلى فرنسا يحمل إلى الملك مرسوماً بالطلاق ومائتي ألف دوقية يخطبها زوجة له . وسر لويس هذا الطلاق ، وسره فوق ذلك إذن البابا له بزواج آن البريطانية أرملة شارل الثامن ، فعرض على سيزارى يد شارلوت دالبرت Charlotte d'Albert أخت ملك نبرة ؛ ولم يكتف بهذا بل منح سيزارى لقب دوق فلنتنوا Valentinois وديوا Diois ، وهما مقاطعتان فرنسيتان لآبابوية عليهما بعض الحق القانوني . وفي شهر مايو من عام ١٤٩٩ تزوج الدوق الجديد فلنتينو Valentino — وهو الاسم الذى تسمى به بعدئذ في إيطاليا — شارلوت الثرية ، الحسنة ، الطيبة ؛ وأقامت رومة ،

حين أبلغها الإسكندر النساء ، معالم الأفراح . وأطلقت الألعاب النارية ابتهاجاً بزواج أميرها . وأوجب هذا الزواج على البابوية أن تعقد حلفاً مع ملك يستعمل علماً لغزو إيطاليا ويستولى على ميلان ونابلى . وبذلك لم يكن جرم الإسكندر في عام ١٤٩٩ أقل من جرم لودوفيكو وسفونارولاني عام ١٤٩٤ . وأسس هذا الحلف جميع أعمال الحلف المقدس الذى كان للإسكندر يد في عقده سنة ١٤٩٥ ومهد السبيل لحروب يوليوس الثانى . وكان سيزارى بورجيا من بين الأعيان الذين ساروا في ركاب لويس الثانى عشر إلى ميلان في السادس من أكتوبر سنة ١٤٩٩ ، وقد وصف كستجليوني الذى كان فيها وقتئذ دوق فلنتينو بأنه أطول رجال حاشية الملك قامه وأعظمهم جالا^(٥٨) . ولم يكن كبرياؤه يقل عن مظهره . وقد نقش على خاتمه : « افعل ما يجب أن تفعله ، وليكن بعد ذلك ما يكون » . أما سيفه فقد نقش عليه مناظر من حياة يوليوس قيصر ؛ وكان يحمل شعارين : فكان على أحد وجهيه : « ألقى النرد » وعلى الوجه الآخر : « إما قيصر أو لا أحد »^(٥٩)

ووجد الإسكندر أخيراً في هذا الشاب الجريء والمحارب السعيد القائد الذى ظل يبحث عنه زمناً طويلاً ليقود قوات الكنيسة المسلحة ويستعيد بها الولايات البابوية . وأمدّه لويس بثلاثمائة من حملة الرماح الفرنسيين ، وجند أربعة آلاف من الغسقونيين والسويسريين ، وألفين من المرتزقة الإيطاليين . وكان هذا جيشاً أقل مما يحتاج إليه للتغلب على اثني عشر من الحكام المستبدين ، ولكن سيزارى كان تواقاً إلى هذه المغامرة . وأراد البابا أن يضيف الأسلحة الروحية إلى الأسلحة العسكرية ، فأصدر مرسوماً يعلن فيه ذلك الإعلان الخطير زهو أن كترينا اسفوردسا وابنها أنافيانو يمتلكان إمولا وفورلى - ويندلفومالاتستا يمتلك ريمينى - وجويليوفارانو Giulio Varano يمتلك كمرينو - وأستورى منفريدى Astorre Manfredi يمتلك فائندسا - وجويدويادو يمتلك أرينو - وجيوقي اسفوردسا يمتلك بنزارو - لأنهم

اغتصبوا أرضين ، وأملاكاً ، وحقموها تحتص بها الكنيسة قانوناً وعدلاً ، وأنهم جميعاً طغاة مستبدون أساءوا استخدام سلطتهم ، واستغلوا رعاياهم ، وأن عليهم الآن أن يتخلوا عن أملاكهم أو يطردوا منها قوة واقتداراً (٦٠) . ولربما طاف بخاطر الإسكندر - كما يتهمة بعضهم - أن يضم هذه الإمارات كلها في مملكة واحدة يحكمها ابنه . ولكنه لم يكن يتمكر جدياً في هذا العمل . ذلك أنه كان يدرك بـلا ريب أن إخلاءه لن يسكنوا ، وأن الدولة الإيطالية لن تسكت ، زمناً طويلاً على هذا الاغتصاب الذي هو أشد مخالفة للقانون ، وأكثر بغضاً لهم ، من أى حكم يراد أن يحل محله . وربما كان سيزارى نفسه يحلم ببلوغ هذه الغاية ، وكان مكيفلى يرجو تحقيقها ، ويسره أن يرى يداً قوية مثل يد سيزارى توحد إيطاليا وتخرج منها جميع الغزاة ؛ غير أن سيزارى نفسه ظل حتى آخر أيام حياته يعلن أنه لا غاية له غير أن يسترد ولايات الكنيسة للكنيسة ، وأنه يقنع بأن يكون حاكماً على رومانيا Romagna من قبل البابا (٦١) .

وزحف سيزارى على رأس جيشه في شهر يناير عام ١٥٠٠ على فورلى بعد أن اجتاز جبال الأبينين ؛ وسلمت إمولاً من فورها لمنذوبه ، وفتح أهل فورلى أبوابها ترحيباً ، ولكن كترينا اسفوردسا فعلت ما فعلته قبل اثني عشر عاماً من ذلك الوقت فامتنعت هى وحاسيتها فى القلعة ودافعت عنها دفاع الأبطال . وعرض عليها سيزارى شروطاً سهلة . ولكنها آثرت أن تقاتل ، واستطاعت القوات البابوية بعد حصار قصير أن تفتح القلعة وتعمل السيف فى رقاب المدافعين عنها . وأرسلت كترينا إلى رودة ، واستضيفت ضيافة لا ترغب فيها فى جناح بلغديز بقصر الفاتكان ، وأبت أن تنزل عن حقها فى حكم فورلى وإمولاً ، وحاولت الفرار . فقلت إلى سانت أنجيلو ، ثم أطلق سراحها بعد ثمانية عشر شهراً : وآوت إلى دير للنساء . وكانت امرأة بأسلة ، ولكنها كانت سليطة صفابة (٦٢) . وحاكمة

إقطاعية من أسوأ طراز ، وكان رعاياها وغيرهم من أهل رومانيا Romagna يرون أن قيصر منتقم بعثه الله ليظهر البلاد من الظلم والاستبداد للذين داموا عصوراً طوالاً^(٦٣) .

ولكن انتصار سيزارى الأول كان قصير الأجل ، فقد تورد جنوده الأجانب لأنه لم يجد ما يكتفى من المال لأداء أجورهم ، وما كاد يسترضيهم ، حتى استدعى لويس الثانى عشر الفرقة الفرنسية لتساعده على استرداد ميلان التى استعادها لدوفيكو من وقت قريب . وسار سيزارى على رأس الباقين من جنوده إلى رومة ، واستقبل فيها استقبالا لا يكاد يقل مهابة عن استقبال القواد الرومان المنتصرين . وابتهج الإسكندر بانتصار ابنه ، وفى ذلك يقول سفير اللبندقية : « إن البابا أكثر ابتهاجاً مما رأيته فى أى وقت من الأوقات »^(٦٤) . وعين سيزارى نائباً عن البابا فى المدن المفتوحة ، وشرع من ذلك الحين يدفعه الحب الشديد إلى قبول نصائح ولده ؛ وامتلات خزائنه بالأموال التى جمعها من عيد رومة ومن بيع مناصب الكرادلة . واستطاع سيزارى بفضلها أن يضع خطة حملة أخرى . وكان أول ما عمله أن عرض مبلغاً مغرباً من المال على باولو أرسيني ليقنعه بأن يضم هو ورجاله إلى القوات البابوية ؛ وجاء باولو كما جاء على أثره عدد آخر من الزلاء وبهذه الضربة الماهرة قوى سيزارى جيشه ، وحى رومة من غارات البارونات أثناء غياب الجيوش البابوية وراء الأبنين . ولعل هذه المعربات نفسها ، وما بذله لناصره من وعود بالغنائم هى التى ضمن بها خدمات جيان پولو بيجليوني سيد بروچيا وجنوده ، واستخدم بها قيتيلتسو فيتلى Vitezzo Vitelli ليقود مدفعيته . وبعث إليه لويس الثانى عشر بلواء صغير من حملة الرماح ، ولكن سيزارى لم يعد يعتمد على الإمدادات الفرنسية . فلما تم له هذا الاستعداد هاجم فى سبتمبر من عام ١٥٠٠ بتحريض الإسكندر القصور التى يحتلها آل كولنا وسفلى المعادين له فى لاتيوم .

، واستسلمت له هذه القصور الحصينة واحداً بعد واحد ، وسرعان ما كان في مقدور الإسكندر أن يطوف وهو آمن طواف المنتصر بالأقاليم التي فتحتها البابوية من زمن طويل ، واستقبل في كل مكان بالترحاب من الشعب (٦٥) ، لأن رعايا البارونات الإقطاعيين لم يكونوا يحبونهم .

ولما بدأ سيزارى حملته الكبرى الثانية (أكتوبر عام ١٥٠٠) كان تحت إمرته جيش مؤلف من ١٤٠٠٠ جندي ، ومعه حاشية من الشعراء ، وكبار رجال الدين ، والعاشرات لخدمة جنوده . وعرف بندية مالاتستا أنهم زاحفون على ريميني فأخلاها قبل وصولهم إليها ، وفر جيوفاني أسفوردسا من بزارو ، ورحبت المدينتان بمقدم سيزارى وعدتاه محرراً لهما ، لكن استورى مانفريدى قاومه في فائندسا ، وأيده أهلها بإخلاص وولاء ، وعرض عليه بورجيا شروطاً للتسليم كريمة رفضها منفردي ، ودام حصار المدينة طوال الشتاء ثم استسلمت فائندسا آخر الأمر بعد أن وعدا سيزارى بأن يكون رحماً بأهلها جميعاً . وكان مسلكه مع أهلها بعد استسلامها حسناً ، وأننى على منفردي ودفاعه القوى ثناء مستطاباً أحبه من أجله - كما يبدو - الثناء الهزوم ولبت معه ضمن حاشيته أو أركان حربه . وفعل هذا الفعل نفسه أخ أصغر لآستورى ، وإن كان هو ومنفردي قد أجزى لهما أن يذهبا إلى حيث شاءا (٦٦) ، وظلا شهرين يسيران في ركاب سيزارى في جميع تجواله ، ويعاملان معاملة كلها لإجلال ولكنهما ما أن وصلا رومة حتى زج بهما فجأة في قصر سانت أنجيلو الحصين ، حيث بقيا عاماً كاملاً ، حتى إذا كان اليوم الثانى من شهر يونية سنة ١٥٠٢ قلدت مياه نهر التر بجنتيهما على الشاطئ . ولستنا نعرف السبب الذى من أجله قتلها سيزارى أو الإسكندر ، ومنتظر هذه الحادثة كغيرها من الحوادث الكثيرة التى تبلغ المائة عدا من الأسرار الغامضة التى لا يسبر غورها إلا العارفون .

وأخذ سيزارى بعد أن أضاف « رومانيا » إلى ألقابه يدرس « الخريطة » ، وقرر بعد دراستها أن يتم الواجب الذى عهد به إليه أبوه . وكان

قد بقى عليه أن يستولى على كرينو وأربينو . ولا شك في أن أربينو كانت بابوية في شرائعها ، ولكنها كانت دولة نموذجية من حجة النظر السياسية في تلك الأيام ؛ وبدأ أن من العار أن يخلع عن عرشها شخصان محبوبان مثل جويدويلدو وإلزيبا ، ولعلها في هذه الأيام الأخيرة كانا يقبلان أن يكونا نائبين عن البابا بالاسم وبالفعل معاً . ولكن سيزارى كان يدعى أن تلك المدينة تسد أسهل طريق له إلى البحر الأدرياتي ، وأن في مقدورها إذا وقعت في أيدي معادية له أن تقطع عليه سبل الاتصال مع سيزارى وريميني ؛ ولنا نعرف هل وافق الإسكندر على هذه الحجج ، ويبدو أن ذلك بعيد احتمال ، لأنه أقنع جويدويلدو في ذلك الوقت بأن يعبر جيش البابوية مدافعه (٦٧) . وأقرب من هذا إلى العقل أن سيزارى خدع أباه ، أو بدل خططه . وسواء كان هذا أو ذاك فإنه بدأ حملته الثالثة في الثاني عشر من يونيو عام ١٥٠٢ وبصحبه ليوناردو دافنتشي كبيراً لمهندسيه ؛ وكان متجهاً في الظاهر نحو كاميرينو Camerino . ولكنه بدل خطته على حين غفلة . فاتجه نحو الشمال ، واقترب من أربينو بسرعة لم يجد معها حاكمها المريض متسماً من الوقت للهرب إلا بشق الأنفس . وترك هذا الحاكم المدينة تسقط في يدي سيزارى دون أن تدافع عن نفسها (٢١ يونيو) . وإذا كان هذا الفتح قد تم بعلم الإسكندر وموافقته ، فإنه يكون من أدنى أنواع الغدر وأوجهها للاحتقار في التاريخ ، وإن كان مكيفاً بتهيج بما ينطوى عليه من مكر ودهاء . وعامل المتصر أهل المدينة شبيهة بركة السنابير ، ولكنه استحوذ على ما كان للذوق المغلوب من مجموعات فنية ثمينة وباعها ليؤدي بها رواتب جنده .

واستولى قائده فيتيلي Vitelli في هذه الأثناء على أردسو التي كانت تابعة لفلورنس من زمن طويل ، ويبدو أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه وعلى مسؤوليته . وارتاع مجلس السيادة لهذا العمل فأرسل أسقف فلتييرا . ومعه مكيفاً ، ليستغيث بسيزارى في أربينو . واستقبلهم القائد باطلف كان له

الفضل في بلوغه ما يصبو إليه . فقد قال لهم : « إلى آت إلى هنا لأكون طاعية مستبداً ، بل جئت لأقضى على الطغاة المستبدين » (٦٨) . ووافق على أن يمنع زحف فيتيلى ، وأن يعيد أردسو إلى طاعة فلورنس ، وطلب في نظير هذا أن توضع سياسة عديدة المعالم للصدادة المتبادلة بينه وبين فلورنس . وظن الأسقف أنه مخلص في قوله ، وكتب مكيفلى إلى مجلس السيادة بحماسة غير دبلوماسية يقول :

إن هذا السيد جايل عظيم ، وإنه ليبلغ من الجرأة حداً يبدو معه كل مشروع مهما عظم شأنه صغيراً في عينه . وهو يحرم نفسه من الراحة ليظفر بالجد ويستحوذ على الأمصار ، ولا يجد الخطر ولا التعب سبيلاً إلى نفسه . وهو يصل إلى المكان الذى يريده قبل أن يدرك الناس نواياه ؛ وهو يكسب محبة جنوده ، وقد اختارهم من أحسن الناس في إيطاليا ؛ وأدى هذا كله إلى نصره وقوته ، وساعده على ذلك حظه الموفق على الدوام » (٦٩) .

وسلمت كيرينوفى ٢٠ يولييه إلى قواد سيزارى ، وعادت الولايات البابوية بابوية كما كانت قبل . وحكمها سيزارى بنفسه أو على أيدى نوابه حكماً صالحاً يبرر ما كان يدعيه من أنه ثل عروش الطغاة ؛ وبلغ من ذلك أن هذه المدن كلها ، إذا استثنينا منها أرينو وفانلسا ، حزنت لاستوطه (٧٠) . وسمع سيزارى أن چيان فرنشيسكو جندساجا (أخا لازبنا وزوج لازبلا) ذهب هو وجماعة من الأشخاص البارزين إلى ميلان ليستعدوا عليه لويس الثانى عشر ، فأسرع باخترق إيطاليا ، وواجه أعداءه ، ولم يلبث أن استعاد رضاء الملك (أغسطس سنة ١٥٠٢) ، وما هو جدير بالملاحظة أن يجمع أسقف ، ومليك ، ودبلوماسى اشتهر فيما بعد بالدهاء ، حتى ذلك الوقت ، وحتى بعد مغامرته المريبة ، أن يجمع هؤلاء على الإعجاب بسيزارى ويؤمنوا بعدالة مسلكه وأهدافه .

لكن إيطاليا كانت مع ذلك لا تخاو من رجال في أماكن مختلفة منها
يتمنون سقوطه . فالبنديقية مثلاً ، وإن كانت قد منحتة مواطنيتها الفخرية ،
لم يكن يسرها أن تعود الولايات البابوية قوية كما كانت من قبل ، وأن
تسيطر على جزء كبير من شاطئ البحر الأدرياتي . وامتعضت فلورنس
وهي تذكر أن فورلى التي لا تبعد عن أرضها أكثر من ثمانية أميال كانت
في يدى شاب عبقري في شئون السياسة والحرب مجرد من الضمير
ولا يحسب حساباً للعواقب . وعرضت بيزا عليه أن يتولى أمرها . فرفض
هذا العرض في أدب ؛ ولكن من بدرى ، فقد يبدل خطته كما بدلهما
وهو في طريقه لكبيرينو . وربما كانت الهدايا التي بعثت بها لإزبلا له
ستاراً يخفى ما تشعر به هي وماتتوا من استياء لاغتصابه أربينو . ولقد
نحرت انتصاراته ببيوت آل كولنا وسافلى ، وكذلك آل أرسيني وإن لم
يصب هؤلاء ما أصاب ببيوت الأسرتين الأوليين ، وكانوا جميعاً يترقبون
الساعة التي يستطيعون فيها أن يكونوا حلفاء معادياً له . ولم يكن « أحسن
رجاله » ، الذين قادوا فيالقه ونالوا له النصر . واثقين من أن خطوته
التالية لن تكون هي الهجوم على بلادهم هم أنفسهم ، ومنها ما كانت
تطالب به الكنيسة . وكان جيان پولوبجليونى ترتعد فرائضه فرقاً من
استحواذ سيزارى على پروچيا ، كما كانت ترتعد فرائض جيوفنى بنتيفجليو
لحكمه بولونيا ؛ وكان باولو أرسينى ، وفرانشيسكو أرسينى ، ودوق
جرافينو يتساءلون كم من الزمن يمضى قبل أن يفعل سيزارى بآل أرسينى
ما فعله بآل كولنا . وقد ثارت ثائرة فيبيلى بعد أن اضطر إلى التخلي عن
أردسو ، فدعا هؤلاء ومعهم ألفيرتو Oliveretto صاحب فرمو وبندلفو
بيتروتشى صاحب سينا وممثلين لجويلوبلندو للاجتماع في لاجيوني
La Mageone على بحيرة ترازمينى Lake Trasimene (سبتمبر سنة
١٥٠٤) . وانفقوا في هذا الاجتماع على أن يوجهوا جيوشهم ضد

سيزارى ، فية بضروا عليه ، ويخلعوه ، ويقضوا على حكمه فى رومانيا وأقاليم الترخوم ، ويعيدوا الأمراء الذين ثلث عروشهم . وكانت هذه مؤامرة قوية واسعة النطاق ، لو أنها نجحت لكان نجاحها سبباً فى القضاء على الخطط التى أحسن تدبيرها الإسكندر وولده .

وبدأت المؤامرة بسلسلة من الانتصارات الباهرة . فقد نظمت الفتن فى أربينو وكمرينو واستعين على تنظيمها بأهل الدينين ، وطردت الحاميات البابوية منهما ، وعاد جويدوبلدى إلى قصره (١٨ أكتوبر سنة ١٥٠٢) ، ورفع الأمراء الساقطون رعوسهم فى كل مكان ، وأخذوا يضعون الخطط لاستعادة ما كان لهم من سلطان . ووجد سيزارى فجأة أن قواده يعصون أوامره ، وأن قواه قد نقصت إلى حد يستحيل عليه معه أن يحتفظ بفتوحه ، وأسعفه الحظ فى هذه الأزمة فوات الكردنال فيرارى Ferrari ، وأسرع الإسكندر فاستولى على الخمسين ألفاً من الدوقات التى تركها وراءه ، وباع بعض المناصب التى كان الكردنال يتولاها ، وأعطى ما حصل عليه إلى سيزارى ، فبادر هذا بتجيش جيش جديد قوامه ستة آلاف جندي . وأخذ الإسكندر فى ذلك الوقت يتفاوض وحده مع المتأمرين ، وبذل لهم وعوداً سخية ، ورد الكثيرين منهم إلى طاعته ، فلم يفته شهر أكتوبر حتى عتدوا جميعهم الصلح مع سيزارى . وكان هذا عملاً دبلوماسياً رائعاً مدهشاً ؛ وقبل سيزارى معذرتهم بصمت المتشكك المرتاب ، ولم يفته أن يلاحظ أن آل أرسينى لا يزالون يستولون على حصون دوقية أربينو وإن كان جويدوبلدى قد فر منها مرة أخرى .

وفى شهر ديسمبر حاصر قواد سيزارى تنفيذاً لأمره بلدة سنجاليا القائمة على البحر الأدرباوى ، وسرعان ما استسلمت المدينة ، ولكن قائد الحصن أبى أن يسلمه إلا لسيزارى نفسه ، فأرسل رسولا إلى الدوق فى سيسينا ، فاستحث ، خطى بإزاء الساحل ومن ورائه ثمانمائة من أشد جنوده إخلاصاً .

فلما بلغ سنجاليا حيا زعماء المؤامرة الأربعة - فيتيدلدسو فينلي ، وباولو ، وفرانتشيسكو أرسيني ، وألثرتو - تحية طيبة في الظاهر ، ودعاهم إلى مؤتمر يعتقدونه معه في قصر الحاكم ؛ فلما جاءوا أمر بالقبض عليهم ، وأمر في تلك الليلة نفسها (٣١ ديسمبر سنة ١٥٠٢) بخنق فينلي وألثرتو . أما باولو وفرانتشيسكو أرسيني فقد أودعا السجن حتى يفاوض سيزاري أباه في شأنهما ، ويبدو أن آراء الإسكندر كانت تتفق مع آراء ولده ، وفي اليوم الثامن عشر من يناير أعدم الرجلان .

وازدهى سيزاري بضربته الحاذقة في سنجاليا ؛ فقد كان يظن أن من حقه على إيطاليا أن تشكره إذ أنجأها بهذه الوسيلة الطريفة من أربعة رجال لم يكتفوا بأن يكونوا إقطاعيين مغتصبين لأراضي الكنيسة ، بل كانوا فوق ذلك مستبدين رجعيين ظالمين لرعاياهم الضعفاء المساكين . ولربما أحس بقليل من وخز الضمير لأنه اعتذر عن فعلته لمكيثلي بقوله : « إن من الخير أن نفتنص الذين أثبتوا براعتهم في اقتناص غيرهم » (٧٢) . ووافقه مكيتلي على هذا أتم الموافقة ؛ وكان في ذلك الوقت يرى أن سيزاري أظلم الناس بسالة وحكمة في إيطاليا كلها . ويرى باولو جيوفيو Paolo Giovio ، المؤرخ والأسقف ، في القضاء على المتأمرين الأربعة « حيلة من أطرف الحبل » (٧٣) . وأرادت إزبلا دست أن تضمن لنفسها النجاة فأرسلت تنهئ سيزاري على فعلته ، كما أرسلت إليه مائة قناع يتسلى بها « بعد كفاحه وتعبه في هذه الحملة المجيدة » ، وأثنى لويس الثاني عشر على هذه الضربة ووصفها بأنها « عملاً خليقاً بأيام رومة المجيدة » (٧٤) .

وكان في وسع الإسكندر وقتئذ أن يعبر عن غضبه الشديد من المؤامرة التي دبرت ضد ولده ، من المدن التي استردتها الكنيسة ، فادعى أن لديه من الأدلة ما يثبت أن الكردينال أرسيني قد ائتمر مع أقاربه لاغتيال سيزاري (٧٥) ، ثم أمر باعتقال الكردينال وطائفة أخرى من المشتبه فيهم

(٣ يناير سنة ١٥٠٣) ، واستولى على قصره وصادر كل أملاكه . وقضى الكردنال نجبه في السجن في الثاني والعشرين من فبراير ، ولعل موته كان بسبب احتياج أعصابه وانهيار قواه ، وإن كانت رومة تقول إن البابا قد سمه .

وأشار الإسكندر على سيزارى أن يستأصل شأفة آل أرسينى بأجمعهم من رومة وكمپانيا ؛ لكن سيزارى لم يكن مثله شديد الرغبة في هذا العمل ، ولعله هو أيضاً كان منهوك القوى ؛ فأجل عودته إلى العاصمة بعض الوقت ، ثم شرع على كره منه (٧٦) في محاصرة حصن جيوليو أرسينى الحصين في تشيرى Ceri (١٤ مارس من عام ١٥٠٣) . واستخدم في هذا الحصار - ولعله استخدم في غيره أيضاً - بعض الآلات الحربية التى اخترعها ليوناردو . ومن هذه الآلات برج متحرك يتسع لثلاثمائة رجل ، ويمكن رفعه إلى أعلى أسوار العدو (٧٧) . واستسلم جيوليو ، ورافق سيزارى إلى الفاتيكان يطلب إليها الصلح ؛ وارتضى الإسكندر أن يصطلح على شرط أن ينزل آل أرسينى عن جميع قلاعهم في الأملاك البابوية ؛ وقبل جيوليو هذا الشرط . وكان پروچيا وفيرمو قد قبلنا في هدوء حاكمين عليهما بعث بهما سيزارى . ولم تكن بولونيا قد استردت بعد ، لكن فیرارا ارتضت مسرورة أن تكون لكريدسيا بورچيا دوقة لها . وإذا استثنينا هاتين الإماراتين الكبيرتين - وهما اللتان شغلنا خلفاء الإسكندر - استطعنا أن نقول إن البابوية استردت أملاكها بتمامها ، وبهذا وجد سيزارى بورچيا نفسه وهو في الثامنة والعشرين من عمره يحكم مملكة لا يضارعها من حيث اتساع رقعتها في شبه الجزيرة إلا مملكة نابلى ؛ وأجمع الناس كلهم على أنه أقوى رجال إيطاليا وأعلامهم شأناً .

وظل بعدئذ وقتاً ما هادئاً هدوءاً غير معتاد في الفاتيكان ؛ ولقد كنا نتوقع أن يرسل في ذلك الوقت في طلب زوجته ولكنه لم يفعل . وكان قد تركها في فرنسا عند أسرتها ، وكانت قد ولدت له طفلاً في أثناء غيابه

فى الحرب ؛ وكان يكتب إليها ويرسل لها الهدايا أحياناً ، ولكنه لم يرها بعد قط . وعاشت دوقة فالنتوا عبثة متوسطة منزلة فى بورج Bourge أو فى قصر لاموت فى La Motte Feuilly فى الدوفينية ؛ يداعبها الأمل فى أن يعث فى طلبها أو أن يأتى هو إليها . ولما أن نكب وتخلّى عنه من حوله حاولت أن تذهب هى إليه ، ولما مات علنت الستر السوداء على بيتها ، وظلت تلبث ثياب الحزن عليه حتى توفيت . ولعله كان يعث فى طلبها فيما بعد لو أنه أتاحت له فترة من السلم دامت أكثر من بضعة أشهر ، وأكثر من هذا احتمالاً أنه لم يكن ينظر إلى زواجه بها إلا على أنه صفقة سياسية لا أكثر ، وأنه لم يكن يشعر نحوها بشيء من الحنان . ويبدو أنه لم يكن بفطرته حنوناً إلا بقدر معتدل ، وأنه كان يحتفظ بهذا التندر للكريسيما التى كان يحبها جداً هو كل ما يستطيع أن يحب ه امرأة . وشاهد ذلك أنه وهو يسرع من أربينو إلى ميلان مع لويس الثانى عشر ليخادع بذلك أعداءه ، خرج عن خط سيره ليزور أخته فى فيرارا وكانت وقتئذ فى أشد حالات المرض . ووقف عنا، فرارا مرة أخرى وهو عائذ من ميلان ، واحتضنها بين ذراعيه ، بينما كان الأطباء يحجمونها ، وبقي معها حتى زال عنها الخطر (٧٨) . وجملة القول أن سيزارى لم يكن قد خاق للزواج وكانت له عشيقات ، ولكن عشقه لم يدم لأيهن طويلاً ؛ وسبب ذلك أن حرصه على السلطان يستنفد كل جهوده ، فلا يترك لأية امرأة مكاناً تنفذ منه إلى نفسه وتستولى على عواطفه .

ولما كان فى رومة كان يعيش معيشة العزلة ، ويكاد يكون مختلفياً عن الناس ؛ وكان يقضى الليل فى العمل وقلما كان يراه أحد بالنهار . ولكنه كان يشغل بجد حتى الوقت الذى يبدو أنه يستريح فيه من عناء الأعمال ؛ وكان يفرض رقابة شديدة على عماله فى الولايات البابوية ويعاقب من يسيئون استخدام سلطتهم ، وأمر بإعدام واحد منهم لقسوته

واستغلاله نفوذه ؛ وكان على الدوام يجد من الناس من يحتاجون إلى أن يعلمهم كيف يحكمون رومانيا أو يحافظون على النظام في رومة . وكان الذين يعرفونه يقدرون ذكاءه ، وقدرته على أن ينفذ مباشرة للب الموضوع الذى يعالجه ، واغتنامه كل فرصة تتيحها له الظروف وإقدامه على العمل السريع الحاسم المثمر . وكان محبوباً من جنائه ، لأنهم كانوا يعجبون في السر بنظامه الذى ينجيهم من المهالك بقسوته : وكانوا يوافقون كل الموافقة على كل ما يلجأ إليه من الرشا ، وأساليب المكر والخداع التى قال بها من عدد أعدائه وأضعف بها عنادهم ، وأنقص من عدد المعارك الحربية التى خاضها جنوده وعدد قتلهم فيها خاصوه بها^(٧٩) . وكان الدبلوماسيون يغضبون إذ يجدون أن هذا القائد الشاب السريع الحركة الذى لا يهاب الردى يفوقهم في القدرة على التفكير والحاجة والدهاء ، وأن في مقدوره إذا دعت الحاجة أن يكون مثلهم في الكياسة والفصاحة والفتنة .

وقد جعلته نزعته إلى السرية هدفاً سهلاً للهجائن في إيطاليا ، وللشائعات الوقحة التى كان في وسع السفراء المعادين أو الأشراف الساقطين أن يخترعوها عنه أو ينشروها . وليس في استطاعتنا الآن أن نميز الحقيقة من الخيال في هذه التهم الفظيعة . ومن هذه الأقوال الواسعة الانتشار أنه كان من عادة الإسكندر وولده أن يعتقلا الأغنياء من رجال الكنيسة لتهم تداع عنهم ، ثم يطلقهم إذا أدوا مبالغ كبيرة من المال فدية أو غرامة ؛ فقد قيل مثلاً إن أسقف تشيزينا سجن في قلعة سانت أنجيلر بدعوى أنه ارتكب جريمة لم تدع حقيقتها . ثم أطلق سراحه بعد أن دفع للبابا عشرة آلاف دوقة^(٨١) .

وليس في وسعنا أن نقول أهذه عدالة أم لصوصية ؛ ولكننا إنصافاً للإسكندر يجب ألا ننسى أنه كان من عادة المحاكم الكنسية والمدنية في

تلك الأيام أن تحكم في الجرائم بغرامات كبيرة تؤدى للمحكمة بدل السجن الذى يكلف الدولة نفقات باهظة . ويقول جوستينياني سفير البندقية وفيتوريو سويريني سفير فلورنس إن اليهود كثيراً ما كانوا يعتقلون متهمين بالإلحاد ، وإن الطريقة الوحيدة التى يستطيعون بها إثبات إيمانهم هى أداء مبالغ ضخمة للخزانة البابوية (٨٢) . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن رومة اشتهرت فى تلك الأيام بحسن معاملة اليهود ، ولم يكن أى يهودى يعد من الملاحدة ، أو يقدم لمحكمة التفتيش لأنه يهودى .

وتهم كثير من الشائعات آل بورجيا بتسميم الكرادلة لتعجل بعودة نمباعمهم إلى الكنيسة . وخيل إلى الناس أن بعض هذه الحوادث ثابت صحيح - يؤيد صحته التواتر لالبراهين - ولذلك ظل المؤرخون البروتستانت بوجه عام يصدقونه حتى زمن يعقوب بركهاردت (١٨١٨ - ١٨٩٧) الفطن الأريب (٨٣) ؛ وكان باستور Pastor المؤرخ الكاثوليكي يعتقد أن « من الأمور المرجحة كل الترجيح أن سيزارى سم ميشيل ليحصل بذلك على ما يريده من المال » (٨٤) . وقد بنى حكمه هذا على أن مساعد شماس فى عهد يوليوس الثانى (وهو الشديد العداء للإسكندر) يدعى أكوينو داكلوريدو Aquino da Colloredo أقر بعد أن عذب أنه سم الكردينال ميشيل بتحريض الإسكندر وسيزارى (٨٥) . وقد يعدر مؤرخ فى القرن العشرين إذا شك فى اعترافات تنتزع من صاحبها بالتعذيب ؛ ولقد أثبت إحصائى مغامر أن نسبة الوفيات بين الكرادلة لم تكن فى أيام الإسكندر أعلى منها فى العهود السابقة له أو اللاحقة (٨٦) ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن رومة كانت فى الثلاث السنين الأخيرة من حكمه ترى أن من أشد الأخطار أن يكون الرجل كردينالاً وغنياً (٨٧) . وقد كتبت لإزبلا دست إلى زوجها تحذره بأن يكون حريصاً كل الحرص فيما يقوله عن سيزارى لأنه « لا يتردد مطلقاً فى أن يدبر المؤامرات للقضاء على ذوى قرباه » (٨٨) . والظاهر أنها

صدقت القصة التي تروى عن قتله دوق غنديا . وكان الثرثارون من أهل رومة يتحدثون عن سم بطيء المفعول يسمونه الكنتريلا Cantarella أهم عناصره الزرنيخ . ويقولون إنه إذا وضع مسحوقه في الطعام أو الشراب - وحتى في نبيذ العشاء الرباني نفسه - فإنه يحدث موتاً بطيئاً يصعب تتبع سببه . غير أن المؤرخين في هذه الأيام يرفضون بوجه عام ما يروى من القصص عن الموت البطيء في أيام النهضة ويرون أنها من خالق الخيال ، وإن كانوا يعتقدون أن آل بورجيا في حالة أو حالتين قد سموا بعض الكرادلة الأغنياء (١٨٩) (٥) . وقد تؤدي البحوث في مستقبل الأيام إلى تكذيب هذه الحالات بأجمعها .

ورويت قصص شر من هذه عن سيزارى . منها واحدة تؤكد لنا أنه أراد مرة أن يسلي الإسكندر ولكريدسيا فأطلق في فناء عددًا من المسجونين حكم عليهم بالإعدام ، ثم وقف هو في مكان أمين وأظهر حذقه في الرماية بإطلاق سهام قاتلة عليهم واحداً بعد واحد بينما كانوا هم يتحدثون عن عاصم لهم من سهامه (٩٠) . والمصدر الوحيد لهذه القصة هو كاپيليو مندوب البندقية : ونحن في هذه الحال بين اثنتين ، فلما أن السياسى كاذب في قوله ولما أن سيزارى قاد أتى هذا الأمر حقاً ، ولكن أول القرصين أرجح في رأينا من ثانيهما .

أما بقاء فظائع آل بورجيا عن العقل فهي التي تظهر في يوميات بيركهارد Burchard رئيس القشرفات في عهد الإسكندر ، وهي يوميات

(*) يميل الباحثون بوجه عام إلى برئته من أطماعه ، يرى به من النعم الأخلاقية ، وإن كانوا يفترون جميع المخاللات الدائمة التي مراد بها إظهار الإسكندر في صورة الممل الأعلى للبابوات . ونهى بعد ذلك نهمة اللاهم المرعى بسبب حشعه المالى ، وهي تهمة تبدو أنها ثابتة ، أو قريبة من الثبوت ، في حالة واحدة لا أكبر ، ولكن هذه الحالة قد تسندل منها على أن حالات أخرى صحيحة . « تاريخ كمبرج الحديث Cambridge Modern History المجلد الأول ، ص ٢٤٢ . »

يوثق بها عادة . ففيها نجد تحت تاريخ ١٠ أكتوبر من عام ١٥٠١ وصفاً لعشاء في جناح سيزارى بورچيا في قصر الفاتيكان . أخذت فيه العاهرات العاريات يجرين وراء عدد من الكسائنات نثرت على الأرض والإسكند و الكريديسيا ينظران إلين^(٩١) . وتظهر هذه النصبة أيضاً في أقوال المؤرخ البروجي ما تارتسو الذى لم ينقلها عن بركهارد (لأن اليوميات كانت لا تزال سرّاً مكنوناً) بل أخذها عن الشائعات التى انتشرت من رومة في أنحاء إيطاليا ويقول : « إن هذا كان معروفاً في طول البلاد وعرضها »^(٩٢) . فإذا كان هذا صحيحاً فإن من العجب ألا يرد له ذكر في تقرير سفير فيرارا . وقد كان وقتئذ في رومة ، وعهد إليه فيما بعد أن يفحص عن أخلاق لكريديسيا ، وهل تليق بأن تزوج ألفنسو ابن الدوق إركولى . بل إن هذا السفير قد أثنى عليها أعظم الثناء في تقريره هذا (كما نرى ذلك بعد) ؛ فيما أن يكون الإسكندر قد رشاه وإما أنه لم يلتفت إلى الشائعات التى لا يقوم عليها الدليل . ولكن ترى كيف وصلت هذه القصة إلى يوميات بركهارد ؟ فهو لا يدعى أنه كان من الحاضرين في هذا المجلس ، ومن أبعد الأشياء أن يكون من حاضريه لأنه كان من ذوى الأخلاق القويمة . وهو لا يضمن مذكراته عادة إلا ما يشهده من الحوادث ، أو ما ينقل إليه ، ويبدأ بالدليل . ترى هل أقحمت القصة إقحاماً في المخطوط ؟ إن كل ما بقى من المخطوط الأصلي لا يزيد على ست وعشرين صفحة تبحث كلها في أحوال الفترة التى أعقبت مرض الإسكندر الأخير . أما ما بقى من اليوميات فإنه لا توجد منه إلا نسخ منقولة عنها ، وكل هذه النسخ تذكر القصة ، ولربما كانت قد دسها فيها كاتب معاد ظن أنه يستطيع تفكيكه التاريخ الخاف بقصة من القصص الطريفة ؛ أو لعل بركهارد قد أجاز مرة للشائعات أن تدسب إلى مذكراته ، أو لعل النسخة الأصلية قد نهت إلى أن هذه القصة من الشائعات لا أكثر ، وأكبر الظن أن هذه القصة تعتمد على مأدبة أقيمت فعلاً وأن الزخرف المكنهر قد أضافه إليها الحقد أو الخيال . وقد كتب

فرنشيسكو پيى سفير فلورنس ، وهو الذى كان على الدوام من أعداء آل بورچيا لأن فلورنس كانت فى جميع الأوقات على خلاف معهم ، كتب فى غداة هذا الحادث يقول : إن البابا ظل إلى ساعة متأخرة من الليلة السابقة فى جناح سيزارى ، وإنه كان فى هذا الجناح « رقص وضحك » (٩٣) . ولم يرد فى قوله هذه ذكر للعاهرات . وليس من المعقول أن يخاطر البابا ، الذى كان يندل غاية الجهد ليزوج ابنته دن وارث دوقية فيرارا ، بإفساد سمعته فى هذا الزواج وفى عقد حلف دبلوماسى جليل الخطر بالنسبة له ، وذلك بأن يسمح للكريدسيا بأن تشهد مثل هذا المأظر (٩٤) . ولنتقل الآن إلى لكريدسيا نفسها .

الفصل الخامس

لكريديسيا : ١٤٨٠ - ١٥١٩

كان الإسكندر يعجب بولده ، ولعله كان يخافه ، ولكنه كان يحب ابنته بكل ما في الطبيعة البشرية من عاطفة قوية . ويدو أنه كان يجد في جمالها المتوسط ، وفي شعرها الذهبي الطويل (الذي بلغ من الثقل حداً يسبب لها الصداع) ، وفي قوامها الخفيف المتزن حين ترقص (٩٥) ، وفي إخلاصها البنوى له في كل ما عاناه من تحقير وحرمان ، نقول يبدو أنه كان يجد في هذا كله متعة أكثر مما وجده يوماً من الأيام في مفاتن فانتسا أو جويليا . ولم تكن ذات جمال بارع غير معتاد ، ولكنها وصفت في أيام شبابها بأنها **ملوة الوم** dolce ciera ؛ وقد احتفظت بهذا « الوجه الحلو » إلى آخر حياتها التقية بين ما كان يحيط بها من فظاظه والخلال ، وفي خلال ما مر بها من مرارة الطلاق ، وارتباعها وهي ترى زوجها يقتل ، وتقول إنها تكاد ترى متتلة بعينها . ويدل على احتفاظها به أن ذلك من الأقوال التي تتردد على ألسنة الشعراء في فيرارا .

وتتفق الصورة التي رسمها لها ينتو رتشيو والمحفوفة في جناح آل بورجيا في الفاتيكان مع وصفها هذا في أيام شبابها .

وذهبت لكريديسيا إلى دير النساء لتتلقى فيه تعليمها كما كانت تذهب إليه كل من تستطيع أداء نفقات هذا التعليم من البنات الإيطاليات ، وانتقلت في سن غير معروفة من بيت أمها فانتسا إلى بيت دنا أدريانا ميلا ، وهي عمه للإسكندر . وفي هذا البيت عقدت صداقة وثيقة دامت طول حياتها مع جويليا فرنيزي Giulia Farnese كنة أدريانا ، وعشيقة والدها المزعومة : وقد وهبت لكريديسيا كل ما يستطيع الحظ الطيب أن يهبها إياه ما عدا

البنوة الشرعية ، ولهذا نشأت في جو من الأنوثة المرحية المبهجة ، وكان الإسكندر سعيداً لسعادتها .

وانتهى هذا الشباب الذي لم يتسرب إليه الهم بالزواج ؛ وأكبر الظن أنها لم يسئها قط أن أباه هو الذي اختار لها زوجاً ؛ فقام هذا هو العادة المألوفة في زواج البنات الطيبات ؛ ولم يكن لينشأ عن هذا الاختيار من الشقاء أكثر مما ينشأ عن اعتمادنا نحن على الحكمة الكامنة في الاختيار القائم على الحب الغرامي . وكان الإسكندر يرى ، كما يرى أي حاكم سواه ، أن زواج أبنته يجب أن يكون سبيلاً لضمان مصالح الدولة ، وما من شك في أن هذا أيضاً كان يبدو أمراً معقولاً لا غبار عليه في عيني لكرياميسيا . وكانت ناهل وقتئذ عدوة للبابوية ، وميلان عدوة لناهل ، ولهذا فإن زواجها الأول قيدها وهي في سن الثالثة عشر بـجيوفاني اسفوردسا سيد پزارو ، وابن أخي لدفيكو ، ونائب حاكم ميلان (١٤٩٣) ؛ وكان وقتئذ في سن السادسة والعشرين ، وأخذ الإسكندر يشيع حبه الأبوي بتهينة بيت الزوجين في قصر الكردينال دسينو القريب من الفاتيكان .

ولكن اسفوردسا كان مضطراً إلى الإقامة في پزارو بعض الوقت ، ومن أجل ذلك اصطحب زوجته الشابة معه . وقد ذبلت نضرتها في هذه الشرايط النائية ، بعيدة عن أبيها المعظم بها ، ومباهج رومه وديعتها . ولم تنقض على انتقالها إلا بضعة أشهر حتى عادت إلى العاصمة . ولحق بها جيوفاني فيها فيما بعد ، ولكنه ظل بعد عيد الفصح من عام ١٤٩٧ في پزارو وبقيت هي في رومه . وفي الرابع عشر من شهر يونيو طلب إليه الإسكندر أن يفصم عرى الزوجية بحجة أن الزوج عقيم — وهي السجدة الوحيدة التي يرى القانون الكنسي أنها تجيز فصم عرى الزواج ، وآوت لكرياميسيا بعدئذ إلى دير للنساء لتدفن فيها حزنها أو عارها . أولتقطع ألسنة الوشاة (٩٦) . ثم قتل أخوها دوق غنديا بعد بضعة أيام من ذلك الوقت ،

وتهاشم المكهون المظرفون من أهل رومة أن مقتناه كان بأيدي عملاء اسفوردسا لأنه حاول إغواء لكريدسيا (٩٧) . وأنكر زوجها أنه عنين ، وأشار إلى أن الإسكندر كان يضاجع ابنته . وعين البابا لجنة ، يرأسها اثنتان من الكرادلة ، لتنظر هل بلغ الزواج غايته . وأقسمت لكريدسيا أنه لم يبلغها ، وأكدت اللجنة للإسكندر أنها لا تزال عذراء . وعرض الدقيقو على جيوفني أن يثبت قدرته الجنسية أمام لجنة تضم المندوب البابوي في ميلان ، ولكن جيوفني رفض هذا العرض ، ولما نجد مأخذاً عليه في رفضه . بيد أنه وقع وثيقة رسمية يعترف فيها بأن الزواج لم يافع غايته ، ورد إلى لكريدسيا بانثتها البالغ قدرها ٣١,٠٠٠ دوق ، وفصمت عررة الزوجية في ٢٠ ديسمبر من عام ١٤٩٧ . وولدت لكريدسيا لزوجها التاليين أبناء وإن لم تلد أبناء لجيوفني ؛ ولكن زوجة اسفوردسا الثالثة ولدت في عام ١٥٠٥ ولداً يظن أنه ولده (٩٨) .

وكان يظن من قبل أن الإسكندر إنما فصم عقدة الزواج ، ليستطيع عقد زواج آخر أكثر فائدة سياسية من الزواج الأول . ولكننا لا نجد دليلاً يؤيد هذا الادعاء ؛ وأكثر من هذا احتمالاً أن لكريدسيا قد أفصحت عن الحقيقة الحزنة . ولم يشأ الإسكندر أن يبقها بلا زوج ؛ فأخذ يسعى إلى التقرب من نابلي ألد أعداء البابوية ؛ وعرض على الملك فديريجو أن يزوج لكريدسيا من دن ألفنسو دوق بستانجلي Besceglie ، وهو ابن نغل لألفنسو الثاني ولي عهد فديريجو . ووافق الملك على هذا العرض ، ووقع عقد الخطبة الرسمي (في يونيو سنة ١٤٩٨) . وكان وكيل فديريجو في هذا الزواج هو الكردنال اسفوردسا ، عم جيوفني ، أطلق لكريدسيا . وشجع لدفيكو صاحب ميلان فديريجو على قبول هذه الخطبة (٩٩) ، ويبدو أن عم جيوفني لم يسته قط فصم عرى الزوجية الأولى ، واحتفل بالزفاف في الفاتيكان في شهر أغسطس التالي .

ويسرت لكريديسيا الأمور بأن أحبت زوجها ، ويسرها فوق ذلك أن تكون له بمنزلة الأم ، فقد كانت هي وقتئذ في الثامنة عشرة من عمرها وهو بعد طفل في السابعة عشرة . ولكن كان من سوء حظهما أن يكونا شخصين ذوي شأن في العالم ، وأن يكون للسياسة مكان في فراشهما الزوجي . ذلك أن نابلي رفضت أن تقدم زوجة لسيزارى بورچيا فذهب إلى فرنسا يطالب فيها هذه الروجة (أكتوبر سنة ١٤٩٨) . وتحالف الإسكندر مع لويس الثاني عشر عدو نابلي اللدود ؛ وساء بستشيجلى الشاب أن يجد رومة تتفاوض مع وكلاء ملك فرنسا ، فما كان منه إلا أن فر مسرعاً إلى نابلي ، وحطم هذا القرار قلب لكريديسيا ؛ وأراد الإسكندر أن يسترضيها ، ويجبر قلبها المكلول فعيّن نائباً عنه في اسپليتو (أغسطس عام ١٤٩٩) . وعاد ألفنسو فانضم إليها هناك ، وزارهما الإسكندر في نبي ، وطمأن الشاب ، وعاد بهما إلى رومة ؛ وفيها وضعت لكريديسيا ولداً سُمي ردرىجو باسم أبيها . ولكن سعادتهما كانت في هذه المرة أيضاً قصيرة الأجل ؛ ذلك أن ألفنسو قد امتلأ قلبه بغضاً لسيزارى بورچيا ، وربما كان سبب ذلك البغض أن ألامنسو نمسه كان متوتر الأعصاب حاد المزاج ، أو لعل سببه أن سيزارى بورچيا كان في نظره رمزاً للحلف الفرنسى مع البابوية ، وبادله سيزارى بغضاً ببغض وزاد عليه الاحتقار . وحدث في مساء اليوم الخامس عشر من يولية سنة ١٥٠٠ أن هجم على ألفنسو جماعة من السفاحين المأجورين أثناء خروجه من كنيسة القديس بطرس . وأصيب ألفنسو بعدة جراح ، ولكنه استطاع أن يصل إلى بيت كرنال سانتا ماريا في برتيكو . واستدعيت لكريديسيا له فلما رأته أغمى عليها ، ولكنها سرعان ما أفاق ، وأخذت هي وأختها سانتشيا تعنى به أعظم عناية . وأرسل الإسكندر حرساً مؤلفاً من خمسة عشر رجلاً ليدفع عنه أى أذى آخر ، ونقه ألفنسو على مهل ، وأبصر يوماً ما سيزارى يسير في حديقة قريبة منه ، ولم يكن يخالجه أدنى شك في

أن هذا هو الرجل الذى استأجر من كانوا يريدون قتله ، فأمسك بقوس وسهم وأطلق السهم يريد أن يقتله به . وأحداً السهم المهدف خطأ يسيراً ، ولم يكن سيزارى بالرجل الذى يتيح لعدوه فرصة أخرى ، فاستدعى حراسه ، وبعث بهم إلى حجرة ألفنسو ، ويبدو أنه أمرهم بقتله . فوضعوا وسادة على وجهه وما زالوا يضغطون بها عليه حتى مات مخنقاً . وربما كان ذلك على مرأى من زوجته وأخته (١٠٠) . وصدق الإسكندر رواية سيزارى للقصة ، وأمر بدفن ألفنسو في غير احتفال وبذل كل ما في وسعه لمواساة لكريدسيا التى كان خطبها أفدح من أن يواسى .

وانزوت لكريدسيا في بيبي ، وهناك كتبت رسائلها المسماة *أفغنس الأميرات* وأمرت بإقامة الصلوات تطلب بها الرحمة لألفنسو . ومن الغريب أن سيزارى زارها في بيبي (أول أكتوبر سنة ١٤٩٩) ؛ ولما يمض على موت ألفنسو أكثر من شهرين ونصف شهر ، وأنها استضافته طول الليلة . ذلك أن لكريدسيا كانت صبوراً لينة الجانب . ويبدو أنها أخذت مقتل زوجها على أنه رد فعل طيعى من أخيها على محاولة قتله . ويلوح أنها لم تكن تعتقد أن سيزارى هو الذى استأجر السفاحين اللذين حاولوا اغتيال ألفنسو ولم يفلحوا في محاولتهم ؛ وإن كان ينبغي إلينا أن هذا هو أرجح التفسير لهذه المأساة التى هى إحدى المآسى الغامضة في عصر النهضة ؛ ولقد أظهرت في المدة الباقية من حياتها كثيراً من الشواهد على أن حبها لأخيها لم تمنح جميع هذه المحن . ولعل حبه لها وحب أبيها ، اللذين يبلغان من القوة كل ما تستطيعه العاطفة الأسبانية الجاثشة ، هو الذى جعل الفكهين من أهل رومة ، أو بالأحرى من أها نايل (١٠١) المعادية ، يتهمونها بتلى الدوام بمضاجعة أبيها وأخيها ، حتى رد وصفها أحد الكتاب ذلك الوصف الجامع الموجز بأنها : « ابنة البابا » وزوجته ، وزوجة ابنه » (١٠٢) ، وصبرت على هذا أيضاً وهى هاذئة مستسلية ؛ ولقد أجمع المطلقون الباحثون

في هذه الفترة أن هذه كلها اتهامات قاسية لا نصيب لها من الصحة (١٠٣) ، ولكن هذه المطاعن ظلت تدنس اسمها عدة قرون (*) .

ولسنا نرجح أن سيزارى قتل ألفنسو لزوجها من بعده زواجا أكثر نفعا من الوجهة السياسية . فقد عرضت بعد فترة الحزن على كبير من أسره ، رسينى ، ثم على آخر من أسرة كولنا - وهما زواجان لا يبلغان من الفائدة السياسية مبلغ زواجهما من ابن وارث عرش نابلى : ولسنا نسمع بأن الإسكندر عرض على إركولى دوق فيرارا أن يزوجهما من ابنة ألفنسو (١٠٤) ، إلا في نوفمبر من عام ١٥٠٠ ، كما أننا لم نسمع إلا في سبتمبر من عام ١٥٠١ أنها خطبت له . ويأوح أن الإسكندر كان يأمل أن فيرارا التى يحكمها زوج ابنته ، ومنتوا التى ارتبطت مع فيرارا بالزواج من زمن بعيد ستكونان في واقع الأمر ولايتين بابويتين ، وأيد سيزارى هذه الخطة لأنها تؤمن له فتوحه أكثر من ذى قبل ، وتضع في يده قاعدة طيبة يهجم منها على بولونيا . وتردد إركولى وألفنسو للأسباب التى سبق تفصيلها ؛ وكان ألفنسو قد عرضت عليه يد كونيته أنجوليم Angoulême ولكن الإسكندر أضاف إلى عرضه وعدا بيائة ضخمة ، وبما يكاد يكون إلغاء تاماً للحجزة التى كانت فيرارا تعطيها للبابوية . على أن أحدا رغم هذا كله لا يصدق أن أسرة دن أقدم الأسر الحاكمة في أوروبا ، وأعظمها ثراء كان يقبل لكريديسيا زوجة لدوقها المرتقب لو أنها كانت تصدق القصص القذرة التى كان يذيعها سرا الكتاب النمامون في رومة . وإذا لم يكن إركولى أو ألفنسو قد رأيا لكريديسيا حتى ذلك الحين ، فلإنهما جريا على الخطة المألوفة في هذا الزواج السياسى ، وطلبا إلى سفير فيرارا

(*) انظر تاريخ كيمبرج الحديث Cambridge Modern History المجلد الأول
س ٢٢٩ : « لا شيء أبعد عن لكريديسيا الحقيقية من لكريديسيا التى يصفها كتاب المسرحيات
والروايات الغرامية . »

في رومة أن يبعث لها بتقرير عن شكلها وأخلاقها ، وميراتها . وجاءهما الرد الآتى :

سيادى العظيم : ذهبت اليوم مع دن جيراردو مراتشيني Gerardo Saraceni في زيارة إلى السيدة العظيمة لكريدسيا لنبلغها احترامنا بوصفنا نائبين عن فخامتكم وعن جلالة دون ألفنسو . وتحدثنا إليها طويلا في مختلف الشئون . وخرجنا من حديثنا معها على أنها غاية في الذكاء والظرف ، وأنها سيدة غاية في الرشاقة . والنتيجة التي وصلنا إليها أنك يا صاحب الفخامة ودن ألفنسو العظيم ستسرون منها غاية السرور . فهي فضلا عن رشاقها الفائقة في كل شيء ، متواضعة ، ودودة ، مؤدبة ، وهي إلى هذا كله مسيحية مؤمنة تخاف الله . وستذهب غداً للاعتراف ، وستتناول العشاء الربنى في أسبوع عيد الميلاد . وهي في منتهى الجمال ، ولكن سحر أدها وظرفها ليدهشنا أكثر من جمالها ، وجملة القول أن أخلاقها تنفى عنها كل مظنة « السوء » . بل أننا على العكس من هذا لانجد فيها إلا كل ما هو خليق بالثناء . . . رومة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٥٠١ . . .

خادمكم

جوانس لوكاس Joannes Lucas (١٠٥)

واقفنا صاحب الفخامة والجلالة من آل استنسى وبعثنا بطائفة فخذة من الفرسان تصحب العروس من رومة إلى فيرارا . وأعد سيزارى بورجيا من عنده مائتى فارس لهذا الغرض عينه ، كما أعد طائفة من الموسيقيين والمهرجين لتسليتها في رحلتها الشاقة . ودل الإسكندر على افتخاره وسعادته بأن أمددها بخاشية من ١٨٠ شخصا تضم خمسة أساقفة . وحمل جهازها على عربات صنعت لهذه الرحلة خاصة ، وعلى مائة وخمسين بغلا ، وكان من هذا الجهاز حالة تبلغ قيمتها ١٥٠٠٠٠ دوقية (١٨٧٥٠٠ دولار) ، وقبة قيمها عشرة آلاف دوقية ، و٢٠٠ صبرة كلفت كل

واحدة منها مائة دوقه (١٠٦) . وبدأت لكريدسيا سفرها في اليوم السادس من يناير عام ١٥٠٢ بعد أن استأذنت سرّاً من والدتها فائندسا ، وعبرت إيطاليا للانضمام إلى خطيبها . وأخذ الإسكندر بعد أن ودعها ينتقل في الموكب من مكان إلى مكان ، ليلقي عليها نظرة أخرى ممتطية صهوة جوادها الأسباني الصغير المكسو كله بالجلد والذهب ، وظل يرقبها حتى اختفت عن الأنظار وحاشيتها التي تضم ألف رجل وامرأة ، ولعله كان يظن أنه لن يراها مرة أخرى .

وأكبر الظن أن رومة لم تشهد قط من قبل مثل هذا الموكب يخرج منها ، كما أن فيرارا لم تشهد قط موكبا مثله يدخلها . واستقبل لكريدسيا بعد رحلة دامت سبعة وعشرين يوما ، الدوق إركولى ودن ألفنسو على رأس موكب كبير من الأعيان ، والأساتذة ، وخمسة وسبعين من الرماة حملة الأقواس ، وثمانين من النافخين في الأبواق والمزامير ، وأربع عشرة عربية مستوية السطح تحمل سيدات من بنات الأسر الكريمة في ثياب فخمة . ولما بلغ الموكب الكنيسة الكبرى نزل من أبراجها رجلان ممن يمشون على الحبال ، وقدا التحية للكريديسيا . ولما بلغ الموكب قصر الدوق ، أطلق سراح جميع المسجونين ، وابتهج الشعب بجمال دوقته المقبلة وبسماتها ، وسعد ألفنسو بأن كانت له هذه الزوج العظيمة الفاتنة (١٠٧) .

الفصل السادس

انهيار سلطان آل بورجيا

يبدو وأن الإسكندر قضى سنى حياته الأخيرة سعيداً موفقاً . فقد تزوجت ابنته فى أسرة من الأدواق ، وكانت فـرأرا كلها تجلها وتعظمها ؛ كذلك أنجز ولده ما عهد إليه بوصفه قائداً وحاكماً ؛ وكانت الولايات البابوية مزدهرة ذات حكومة ممتازة . ويصف سفير البندقية البابا فى تلك السنين بأنه مرح نشيط ، يبدو أنه مرتاح الضمير « لا ينغص عليه حياته شىء » . وقد بلغ فى أول يناير من عام ١٥٠١ سن السبعين ولكنه ، كما يصفه السفير : « ينحى إلى من يراه أنه ينقص فى السن يوماً عن يوم » (١٠٨) .

وحدث فى الخامس من شهر أغسطس من عام ١٥٠٣ أن كان الإسكندر ، وسيزارى ، وجماعة غيرهما يتعشون فى الهواء الطلق فى بيت الكردينال أدريانو دا كورنيتو Adriano da Corneto الخلوى غير البعيد عن الفاتيكان ، وبقوا جميعاً فى حديقة المنزل حتى منتصف الليل لأن حرارة الجو فى داخل الدار لم تكن تطاق . فلما كان اليوم الحادى عشر أصيب الكردينال بحمى شديدة دامت ثلاثة أيام ثم زالت . وفى اليوم الثانى عشر أصيب البابا وولده بحمى وتىء واضطرا لملازمة الفراش . وتحدثت رومة كعادتها عن السم وقال القامون إن سيزارى أمر بـدس السم للكردينال ليحصل على ماله ، وإن الضيوف كلهم تقريباً أكلوا خطأ من الطعام المسموم . لكن المؤرخين الآن متفقون مع الأطباء الذين عاجلوا البابا على أن الحمى هى عدوى من الملاريا سببها طول التعرض لهواء الليل فى رومة فى منتصف الصيف (١٠٩) . وقد أصيب بهذا المرض نفسه نصف آل بيت

البابا ، وكان كثير من هذه الإصابات مميتا(١١٠) ، وقد مات بها في رومة عدة مئات في ذلك الفصل عينه .

وظل الإسكندر ثلاثة عشر يوماً بين الحياة والموت ، يستعيد صحته تارة حتى يستطيع عقد المجالس الدبلوماسية ؛ بل حدث في الثالث عشر من أغسطس أن تسلى بلعب الورق . وحججه الأطباء عدة مرار ، ولعلمهم قد أخذوا من دمه في إحداها أكثر مما يجب ؛ بحيث استنزفوا قواه الطبيعية . وتوفي البابا في الثامن عشر من أغسطس ؛ وما لبثت جثته أن أصبحت سوداء اللون كريهة الرائحة ، تؤيد زعم من يشيعون بأنه مات مسموماً . ويقول بركهارد إن النجارين والمجذفين كانوا يتفكهون ، ويجدفون ، وهم يجدون من الصعب عليهم أن يحشروا الجثة المنفوخة في التابوت الذي أعد لها(١١١) ؛ ويضيف الثرثارون أنهم رأوا شيطانا صغيراً ساعة أن مات الإسكندر يحمل روحه إلى الجحيم(١١٢) ؛

وابتهج أهل رومة لموت البابا الأسباني وانتشر الشغب في المدينة ، وطرده «القطلاتيون» منها أو قتلوا وهم في طريقهم إلى خارجها ، ونهب الغوغاء بيوتهم ، وحرق مائة بيت منها . ودخل المدينة جنود آل كولنا وأرسيه المسلحون في الثاني والعشرين والثالث والعشرين من أغسطس . غير عابئين باحتجاج مجمع الكرادلة . وفي ذلك يقول جوتشياردينى الوطنى الفلورنسى .

« وتجمع أهل رومة بسرعة لا يكاد يصدقها الإنسان ، وتزاحوا حول جثة البابا في كنيسة القديس بطرس ، ولم يكن في مقدورهم أن يشعوا عيونهم من منظر ذلك الأفعوان الهالك الذى طمس على قلوب العالم كله ، وأعمى بصائره بمطامعه التى تجاوزت كل حد ، وبغدره البغيض ، وما ارتكبا من أعمال القسوة الرهيبة التى لا يحصى لها عدد ، وفجوره الوحشى ، وعرضه للبيع كل ما هو مقدس وغير مقدس دون تفرقة بين هذا

وذلك (١١٣) . ويتفق ميكثلى مع جوتشيارديى فيقول إن الإسكندر :
لم يؤثر عنه إلا الخداع ، وإنه لم يكن يفكر فى غير هذا طول حياته
كلها ، ولم يقسم قط لإنسان إيماناً أقوى من إيمانه بإنجاز الوعود ثم ينقض
هذه الأيمان فيما بعد . ولكنه مع هذا نجح فى كل شئ لأنه كان ملماً كل
الإلام بهذا الجزء من العالم (١١٤) .

وقد بنيت هذه الأحكام على فرضين أساسيين أولهما أن القصص التى
كانت تروى فى رومة عن الإسكندر صادقة ، وثانيهما أن الإسكندر لم
يكن محتماً فى سلوك السبل التى سلكها لاستعادة الولايات البابوية . ويشترك
المؤرخون الكاثوليك فى الطعن على أساليب الإسكندر وأخلاقه ، وإن
كانوا يدافعون عن حقه فى استعادة سلطان البابوية الزمنى . ومن ذلك
ما يقول باستور الأمين .

« إن الماس بوجه عام يصفونه بأنه حيوان لا إنسان ، ويلصقون به
كل أنواع الجرائم الشنيعة . ولكن البحث النقدى الحديث يحكم عليه
حكماً أعدل من هذا ، وينبئ عنه بعض ما يلصق به من أشنع التهم ،
غير أننا وإن كان من واجبنا أن نكون حذرين فى قبول القصص التى
يرونها معاصرو الإسكندر عنه دون بحث وتحقيق ، وإن كان الفكهون
الحاقدون من الرومان قد وجدوا متعة لهم فى أكل لحمه ميتاً دون رحمة ،
فوصفوا حياته فى مطاعنهم الشعبية ونكاتهم الشعرية أوصافاً قدرة لا يصدقها
إنسان ، نقول إنه وإن كان من واجبنا أن نكون حذرين فى قبول هذا
كله فإن ما ثبت عليه من هذه التهم ليضطرنا إلى رفض ما يبذل فى هذه
الأيام من محاولات ترمى إلى تبرئته ، لأن فى هذه المحاولات عبثاً بالحقيقة
لا يليق : - . ويستحيل علينا من وجهة النظر الكاثوليكية أن نتجاوز الحد
اللائق فى لوم الإسكندر وتعنيفه .

وكان المؤرخون البروتستانت كراماً فى حكمهم على الإسكندر ، فاصطنعوا

معه اللين في بعض الأحيان . فقد كان وليم رسكو William Roscoe من أوائل الذين قالوا كلمة طيبة عن البابا وذلك في كتابه الشهير *حياة لو العاشر وبابوية* (١٨٢٧) :

« مهما تكن جرائمه ، فإن الذي لاشك فيه أنها قد بولغ فيها كثيراً ، فليس ثمة من ينكر أنه قد صرف جهوده في رفع شأن أسرته ، وأنه استخدم السلطة التي أسبغها عليه منصبه في فرض سيطرته الدائمة على إيطاليا في شخص ابنه ؛ ولكن يبدو أننا نظلم الإسكندر إذا وصمناه بقسط خاص غير عادي من السفالة والإسفاف في الوقت الذي كان فيه أمراء أوروبا كلهم تقريباً يحاولون تحقيق مطامعهم بوسائل لا تقل لإجراماً عن وسائله . فيينا كان لويس ملك فرنسا ، وفرديناند ملك أسبانيا يتآمران للاستيلاء على مملكة نابلي واقتسامها بينهما ، ويستخدمان في ذلك أساليب من الغدر لا يمكن أن نوفيها ما تستحقه من المقت واللعنات ، فإن الإسكندر بلاريب أن يظن نفسه محقاً في كبح جماح البارونات المشاكسين ، الذين ظلوا أجيالاً طوالاً يمزقون أملاك الكنيسة بالحروب الداخلية ، وفي إخضاع صغار الأمراء في رومانيا ، وهم الذين كانوا يعترفون له بحق السيادة عليهم ، والذين حصل معظمهم على أملاكهم بوسائل لا نجد لها ما يبررها ، وهي أبعد عن العدالة من الوسائل التي استخدمها هو ضدهم . أما التهم التي يعتقد بصدقها كثيرون من الناس ، وما يعزى إليه من الصلة الإجرامية بينه وبين ابنته . . . فليس من العسير أن نثبت بعدها عن الصواب . يضاف إلى هذا أن ردائل الإسكندر كان يصحبها ، وإن لم يعرضها ، كثير من الصفات الطيبة العظيمة التي يجب ألا نمر بها صامتين في حكمنا على أخلاقه . . . وإن أشد الناس عداوة له لا ينكرون أنه ذو عبقرية فذة ، وذاكرة عجيبة ، وأنه كان فصيح اللسان ، يقطاً ، بارعاً في تصريح جميع شئونه (١١٦) » .

وقد أوجز الأسقف كريتن Creighton أخلاق الإسكندر وأعماله

بما يتفق بوجه عام مع حكم رسكو عليه ، وكان أكثر رافة به من باستور (١٧).
زئمة حكم آخر متأخر عن حكم هؤلاء جميعاً وهو أرحم به منهم ونعني به
حكم العالم البروتستنى رتشرد جارنت Richard Garnett فى تاريخ
كيمبردج الحديث :

« لقد كسبت أخلاق الإسكندر بلا ريب من بحوث المؤرخين المحدثين .
ولقد كان من الطبيعى أن يظهر بمظهر الظلم والفجور رجل اتهم بهذه الجرائم
الكثيرة ، وكان بلا ريب مصدر الكثير من الفضائح . غير أن هذا الوصف
أو ذاك لا يليق به . لقد كان العامل الأساسى فى أخلاقه كلها فطرته الغزيرة
الفياضة . ويسميه سفير البندقية الرجل « الجسدى » وهو لا يقصد بهذا
أن يعزو إليه أية نقيصة من النقائص الخلقية ، بل يقصد أنه رجل حاد
الطبع ، عاجز عن السيطرة على عواطفه وانفعالاته النفسية . وكانت طبيعته
هذه مبعث الحيرة للإيطاليين المحدثين غير ذوى العواطف الجياشة من رجال
الصنف الدبلوماسى الذين يكثرون بين الحكام ورجال السياسة ؛ وقد أساءوا
كثيراً إلى الإسكندر بعجزهم عن فهمه على حقيقته ، مع أنه فى واقع الأمر
لم يكن أقل إنسانية من معظم أمراء زمانه بل كان يفوقهم كثيراً فى هذا
المجال . وكانت هذه الغريزة الجسدية العارمة مصدر كثير من الخير والشر
فيه . ذلك أنها قد ساقته إلى شهوانية عارمة من نوع ما . وإن كان فى نواح
أخرى معتدلاً زاهداً ، وسبب ذلك أنه لم تكن تقيده مبادئ أخلاقية قوية
أو أفكار روحية مستمدة من الدين . أما فى صورتها التى هى أدعى إلى
الإجلال والتقدير ، وهى حبه لأسرته فتمد ساقته هذه النزعة إلى الاعتداء
على جميع مبادئ العدالة ، وإن لم يفعل حتى فى هذه الناحية أكثر من قيامه
بعمل ضرورى محتوم لا يمكن أدائه « بالماء المقدس » كما قال أحد عماله ؛
لكن دهائة أخلاقه ومرحه قد أبعداه عن الاستبداد بالمعنى العادى لهذا اللفظ...
فقد كان فى العادة يعنى بمصالح شعبه من الناحية المادية ، ولهذا يعد من

خير الحكام فى زمانه ، وكان فى حكمه يضارع خير حكام تلك الأيام من الناحية العملية ، غير أن عدم تقيده فى سياسته بالمبادئ الأخلاقية قد أفسد عليه ما كان يستطيع أن يدركه ببصيرته القوية النفاذة ، ذلك أنه كانت تعوزه الحكمة العليا التى تمكنه من أن يدرك خصائص الفترة التى يعيش فيها ويتنبأ بمجريات أمورها ، ولم يكن يعرف للمبدل معنى « (١١٨) » .

والذين لهم ما للإسكندر من إحساس مرهف بمفان النساء ورشاقتهن لا تطاوعهم نفوسهم على أن يقدفوه بالحجارة بسبب عشقه وهيامه بالنساء ، ذلك أن ما يؤخذ عليه فى هذه الناحية قبل أن يرتقى عرش البابوية لم يكن فيه من الغضائح أكثر مما فى مغامرات لىباس سلفيوس Aeneas Sylius المحب إلى المؤرخين ، أو يوليوس الثانى الذى أكرمه الأيام فغفرت له آثامه . ولم بسجل التاريخ أن هذين البابوين قد عنيا بعشيقتهما وأبنائهما كما عنى الإسكندر بعشيقاته وأبنائه . والحق أن الجلو الذى كان يحيط بالإسكندر كان فيه من خصائص الأسرة والمنزل ما كان يجعله رجلاً خليقاً بالاحترام إلى حد ما ، لو أن قوانين الكنيسة وعادات إيطاليا فى عصر النهضة ، وألمانيا وإنجلترا فى زمن الإصلاح الدينى ، قد أجازت زواج رجال الدين . ذلك أن خطاياهم لم تكن خطايا ارتكبتها ضد الطبيعة البشرية ، بل كانت ضد القواعد التى تلزم رجال الدين بأن يظلوا عزاباً ، وهى القواعد التى رفضها نصف العالم المسيحى بعد قليل من ذلك الوقت . وليس فى مقدورنا أن نقول إن صلته بجويليا فرنيزى كانت صلة جسدية ؛ ومبلغ علمنا أن فائندسا ، ولكريديسيا ، وزوج جويليا لم يعترضوا قط على هذه الصلة ؛ ولعلها لم تكن أكثر من المتعة البسيطة التى يجدها الرجل سوى فيما تستمتع به امرأة جميلة من جاذبية ومرح وحيوية .

ومن واجبتنا حين نحكم على أعمال الإسكندر السياسية أن نفرق بين غاياته ووسائله . فأما غاياته فقد كانت كلها غايات مشروعة - هى استعادة

« ميراث الرسول بطرس » (وأهم ما فيه لاتيوم القديمة) من البارونات الإقطاعيين أصحاب النظام الفاسد المضطرب ، وأن يسترد من الطغاة المغتصبين الولايات التي هي من أملاك الكنيسة من أقدم الأزمنة . وأما الوسائل التي استعان بها الإسكندر وسيزارى على تحقيق هذه الغايات فقد كانت هي بعينها التي استعانت بها جميع الدول الأخرى في ذلك الوقت وذلك المكان - الحرب ، والدبلوماسية ، والحداع ، والغدر ، وخرق المعاهدات ، والتخلى عن الحلفاء . لقد كان ترك الإسكندر الحلف المقدس ، وشراؤه الجنود الفرنسيين والمعونة الفرنسية بتسليم ميلان لفرنسا : من الجرائم الكبرى في حق إيطاليا ، وإن هذه الوسائل الدنيوية التي تستخدمها الدول في غايات النزاع الدولي التي لا يعرف فيها معنى للقانون ، إن هذه الوسائل لتشمئز منها نفوسنا إذا استخدمها بابا تعهد أن يحافظ على مبادئ المسيح وأيا كان الخطر الذي تتعرض له الكنيسة في أن تصبح خاضعة لسلطان حكومة مسيطرة عليها - كما خضعت لفرنسا أيام وجودها في أفنيون - إذا ما فقدت أملاكها ، فقد كان أفضل لها أن تضحى بسلطتها الزمنية كلها ، وأن تعود فقيرة كما كان صيادو الجليل ، من أن تلجأ إلى الأساليب الدنيوية لتحقيق أغراضها السياسية . ذلك أنها حين لجأت إلى هذه الوسائل ووفرت لها ما يلزمها من المال فذكرت دولة وخسرت ثلث العالم المسيحي .

ولنعد إلى سيزارى بورجيا فنقول إنه بعد أن شفى شفاء بطيئاً من المرض الذي قضى على حياة البابا ، وجد نفسه محوياً بما لا يقل عن عشرة أخطار لم يكن يتوقعها . ومنذا الذي كان يتنبأ بأنه هو وأباه سيُعجزان كلاهما عن العمل في وقت واحد . فبينما كان الأطباء يحجمونه استرد آل كولنا وأرسيني مسرعين القلاع التي انتزعها منهم قبل ؛ وشرع الأمراء المخلوعون في رومانيا ، تشجيعهم البندقية يطالبون باستعادة إماراتهم ؛ وكان غوغاء رومة الذين أفلت الآن زمامهم بعد أن مات

الإسكندر يتحفزون لنهب الفاتيكان في أية لحظة من الملاحظات . وينهبون الأموال التي يعتمد عليها سيزارى في أداء رواتب جنده . فلم ير سيزارى بدءاً من أن يرسل عدداً من الرجال المسلحين إلى الفاتيكان ؛ وأرغم هؤلاء الكردينال كسانوفا Cassanuova بقوة السيف على أن يسلمهم ما في الخزانة من الأموال ؛ وهكذا فعل سيزارى ما فعله يوليوس قيصر قبل خمسة عشر قرناً من ذلك الوقت . فقد جاء إليه الجنود بمائة ألف دوقية ذهباً ، كما جاءوا إليه بصحاف وجواهر قيمتها ثلثمائة ألف دوقية ، وأرسل في الوقت عينه سفناً وجنوداً يمنع بها الكردينال جوليانو دلا روفيرى أقوى أعدائه من الوصول إلى رومة ؛ وكان يحس بأنه إن لم يستطع إقناع المجمع المقدس بانتخاب بابا من أنصاره فقد ضاعت كل آماله .

وأصر الكرادلة على أن يجلو جنود سيزارى وآل أرسينى وكولنا عن رومة حتى يستطيعوا أن يختاروا البابا الجديد في جوخال من الإرهاب ؛ ووافق الأطراف الثلاثة على هذا المطلب ، فانسحب سيزارى ورجاله إلى تشيفيتا كستلانا Civita Castellana ، في الوقت الذي دخل فيه الكردينال جوليانو رومة ، وتزعم في مجمع الكرادلة القوى المعادية لآل بورچيا . وفي الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٥٠٣ اختارت الأحزاب المتنافسة في مجمع الكردينال فرانتشيسكو پكولوميني Francesco Piccolomini بابا مرضاة لجميع الأطراف المتنازعة ، وتسمى باسم پيوس الثالث ، تكريماً لعمه إينياس سلفيوس . وكان پيوس رجلاً غزير العلم طيب الخلق ، وإن كان أيضاً أباً لأسرة كبيرة (١١٩) . وكان وقتئذ في الرابعة والستين من عمره مصاباً بخراج في ساقه . وكان من أصدقاء سيزارى ولذلك سمح له بالعودة إلى رومة ، ولكن پيوس مات في الثامن عشر من شهر أكتوبر . وأيقن سيزارى أنه لا يستطيع وقتئذ أن يمنع انتخاب الكردينال دلا روفيرى وهو بلاريب أقدر رجل في المجمع المقدس ؛ لهذا عقد سيزارى

اجتماعاً خاصاً مع جوليانو وأزالا في ظاهر الأمر ما كان بينهما من عداوة : فقد وعد جوليانو بتأييد الكرادلة الأسبان (الأوفياء لسيزارى) ، ووعد جوليانو إذا اختير للبابوية بتثبيتته دوقاً على رومانيا وقائداً للجيش البابوية . وابتاع جوليانو أصوات بعض الكرادلة الآخرين برشا بسيطة (١٢٠) . وبذلك اختير جوليانو دلاً رومانياً باباً (في ٣١ أكتوبر سنة ١٥٠٣) واتخذ لنفسه اسم يوليوس الثاني كأنه يريد أن يكون هو نفسه قيصرًا ، وأن يفوق الإسكندر . وأجل تنويجه حتى اليوم السادس والعشرين من نوفمبر لأن المنجمين تنبأوا باقتران بعض الكواكب في ذلك اليوم اقتراناً يبشر بالخير .

ولم تنتظر البندقية مطلع نجم سعيد ، فقد استولت على ريميني ، وحاصرت فانتلسا ، وكشفت عن نيتها في أن تستولى على ما تستطيع الاستيلاء عليه من رومانيا قبل أن تتمكن الكنيسة من إعادة تنظيم قواها . وأمر يوليوس سيزارى بالتوجه إلى إمولاً وتجهيز جيش جديد لحماية الولايات البابوية . ووافق سيزارى على هذا وسار إلى أستيّا معزماً أن يبحر منها إلى فيزا . لكن رسالة جاءت إليه من البابا وهو في فيزا تأمره بأن يسلم ما في يديه من حصون رومانيا : وارتركب سيزارى في تلك الساعة خطأ موبقاً يوحى إلينا بأن المرض قد أفسد عليه رأيه إذ رفض أن يطيع أمر البابا ، وإن كان من واجبه أن يعلم حق العلم أنه أمام رجل لا يقل عنه في قوة إرادته إن لم يفقهه . وأمره يوليوس أن يعود إلى رومة ؛ وأطاع سيزارى الأمر ، فلما عاد قبض عليه في منزله . وجاءه جويدوبلندو الذي أعيد في ذلك الوقت إلى أرينو ، ثم عين فوق ذلك قائداً للجيش البابوية ليرى سليل آل بورچيا الساقط ، وأذل سيزارى نفسه أمام الرجل الذي خلعه ونهب أملاكه ، وأطلعه على كلمة السر في الحصون ، وأعاد إليه بعض نفائس الكتب والستر المزركشة التي بقيت بعد نهب أرينو ، وتوسل

إليه أن يتوسط بينه وبين يوليوس . ورفضت تشيزينا Cesena وفورلى أن تطيعا كلمة السر حتى يطلق سراح سيزارى ، ولكنى يوليوس رفض أن يطلق سراحه إلا بعد أن يقنع قلاع رومانيا بالتسليم إلى البابا . وتوسلت لكريدسيا إلى زوجها أن يساعد أخاها ؛ ولكنى ألفنسو (ولم يكن وقتئذ قد جلس على عرش الدوقية بل كان فقط ولى عهد لها) لم يفعل شيئاً . فما كان منها إلا أن بلأت إلى لازبلا دست ؛ ولم يكن حظها معها بأحسن من حظها مع ألفنسو ، ولعلها هى وألفنسو قد عرفا أن يوليوس لن يتحول عن رأيه ، فلم ير سيزارى آخر الأمر بدا من أن يطلب إلى مؤيديه فى رومانيا أن يسلموا الحصول ؛ وأطلق البابا سراحه ؛ فمر إلى نابلى (١٩ أبريل سنة ١٥٠٤) .

ورحب به فيها جندسالوده كردوبا (جندسالو القرطبي) الذى أمته على حياته أثناء مروره بها . وعادت إليه شجاعته أسرع من عودة بصيرته ، فنظم قوة صغيرة ، وبينما كان يستعد إلى الإبحار بها بيومينو Piombino (بالقرب من لغورن Leghorn) إذ قبض عليه جندسالو بأمر فرديناند ملك أسبانيا ، وكان يوليوس هو الذى دفع هذا الملك الكاثوليكي إلى العمل لأنه لم يشأ أن يثير سيزارى فى البلاد حرباً أهلية . ونقل سيزارى إلى أسبانيا فى شهر أغسطس وظل يعانى مرارة السجن عامين كاملين ، وحاولت لكريدسيا مرة أخرى أن تطلق سراحه ولكنها لم توفق . كذلك دافعت عنه زوجته التى هجرها عند أخيها جان دالبرت Jean d'Albert ملك نبرة ، ودبرت له خطة للهرب ، وخرج سيزارى من السجن مرة أخرى وأصبح طليقا فى نبرة فى شهر نوفمبر من عام ١٥٠٦ . وسرعان ما واتته الفرصة ليرد لدا لبرت الجميل . ذلك أن كونت لرين Lirne ، وهو من أتباع الملك خرج على سيده ، فتولى سيزارى قيادة جزء من جيش جان وهاجم به حصن الكونت فى فيانا Viana . وخرج الكونت على رأس

الحامية من الحصن وهجم على سيزارى ، فصدده هذا ، وتعقب القوة المهزومة بتهور وقلة مبالاة ؛ وجاء الممدد إلى الكونت وقتله ، وهجم على عدوه ، وفر جنود سيزارى القلائل ، ولم يثبت إلا هو نفسه ورفيق له واحد ، وحارب حتى أثنى بالجراج ومات فى القتال (١٢ مارس سنة ١٥٠٧) وهو فى سن الحادية والثلاثين .

وكانت هذه خاتمة شريفة لحياة تحيط بها الريب . ذلك أن فى حياة سيزارى يورچيا أشياء كثيرة لا تروقنا ، نذكر منها كبريائه وتبعججه ، وإهماله زوجته الوفية ، ومعاملته النساء كأنهن أدوات للملذات العابرة ، وقسوته على أعدائه فى بعض الأحيان — مثال ذلك حكمه بالإعدام على جويليو فارنو Giulio Varno صاحب كبرينو Camerino وعلى ولديه ؛ وقتله فيما يبدو اثنين من أبناء منفريدى Manfredi ، وهى قسوة تناقض كل التناقض رافة الرجل الذى يتسمى باسمه (*) . وكان يعمل عادة بالمبدأ القاتل إن تحقيق أغراضه يبرر فى رأيه كل وسيلة يستخدمها لهذه الغاية ، فالغاية فى رأيه تبرر الوسيلة . لكننا نذكر مع هذا أنه كان يجد نفسه محوطاً بالأكاذيب ، وأنه استطاع أن يتفوق فى الكذب على من عداه حتى كذب عليه يوليوس . ونكاد نجزم بأنه لم تكن له يد فى مقتل أخيه جيوفنى ، ولكن أكبر الظن أنه هو الذى حرض السفاحين على قتل دوق بيسشيغلي Bisceglie ، ولعله كانت تنقصه — بسبب مرضه — القدرة على مواجهة مصائبه بشجاعة وكرامة ، وكان موته هو العمل الوحيد الذى شرفت به حياته .

ولكنه حتى هو كان يتصف ببعض الفضائل ، فما من شك فى أنه كان ذا كفاية غير عادية مكنته من أن يرقى هذا الرقى السريع ، وأن يتعلم بهذه السرعة فنون الزراعة ، والتفاوض ، والحرب ؛ ولما أن عهد إليه بذلك الواجب الشاق ، واجب استعادة سلطة البابا فى الولايات البابوية ، ولم يكن

تحت لوائه لإلا قوة صغيرة ، قام بهذا الواجب بحركة سريعة مذهشة .
ومهارة في الفنون العسكرية ، واقتصاد في الوسائل . ولما عهد إليه أن يحكم
وأن يفتح حبا رومانيا بأكثر ما استتمعت به منذ قرون من عدالة في الحكم
ورضاء في السلم . ولما أمر بأن يطهر الكهانيا من الأتباع العصاة المتمردين
المشاكسين ، قام بهذا العمل بسرعة يصعب على بوليوس قيصر نفسه أن
يزه فيها ؛ ولعله حين طافت هذه الأعمال العظيمة برأسه قد راوده الحلم
الذى راود پترارك ومكبلى : وهو أن يهب لإيطاليا ، بالفتح إذا لزم الأمر ،
الوحدة التى تمكنها من أن تقف في وجه قوى فرنسا وأسبانيا المركبتين (*) .
ولكن انتصاراته ، وأساليبه ، وقوته ، وأعماله السرية الخفية ، وهجته
الريفة التى لا يحصى لها عدد ، جعلته سوط عذاب على إيطاليا بدل أن يجعله
عاملا على تحريرها . ذلك أن عيوبه الخلقية كانت سببا في القضاء على
ما أنجزه من الأعمال بقوته العقلية . وكانت مأساته الأساسية أنه لم يتعلم
قط أن يحب .

ولنتل مرة أخرى كلمة موجزة عن لكريدسيا : ألا ما أكبر الفرق
بينها وبين أخيها الذى هوى من حالى مجده ، فى تواضعها ، وهناعتها فى
سنيها الأخيرة . ذلك أنها ، وقد كانت فى رومة مضغة فى فم كل نمام ،

(*) « أصبحت هذه الأمم » - فرنسا ، وأسبانيا ، وإنجلترا ، وهناريا - « وقتئذ
دولا ملكية قوية ليس فى مقدور تلك الإضمامة المفككة من الولايات الإيطالية » أن تقف فى
وجهها . ولقد كان يسع رجلا مثل سيزارى بورجيا ، فى أغلب الظن ، أن ينجبها لو أنه
كان يقوم بأعماله فى أوائل القرن الخامس عشر لافى نهايته وكان أقرب ما حدث
إلى الوحدة فيها هو إقامة سلطة البابا الزمنية التى كان الإسكندر وبوليوس أكبر العاملين عليها .
ولسنا ننكر أن ما استخدم من الوسائل لإنشائها كثيرا ما كان ذميما إلى أبعد حد ، ولكن
إقامة هذه السلطة كان يبرره ما تقول إليه البابوية من ضعف لو لم تفسأ ، والثمره الطيبة التى
أمرها وجودها بعد أن أصبحت هى كل ما بقى فى إيطاليا من آثار الكرامة والاستقلال .
تاريخ كيمبرج الحديث ، المجلد الأول ص ٢٥٢ .

قد أحبا أهل فيراراً ورأوا فيها مثلاً أعلى للفضائل النسوية (١٢١) . فقد حاولت فيها أن تنسى جميع محن ماضيها ومآسيه ؛ واستعادت مرح شبابها ولم تخرج في ذلك عن حدود الاعتدال والأناة ، وأضافت إلى مرحها هذا اهتماماً كريماً بحاجات غيرها من الناس . وقد أثنى عليها أريستو ، وتيبالديو Tibaldeo ، وبمبو وتيتو ، وإركولى اسفوردسا في أشعارهم ثناء جنت منه أكبر الفائدة ؛ فقد وصفوها بأنها « أجمل فتاة » ولم يشر أحد منهم إليها بسوء . ولعل بمبو أراد أن يكون لها كما كان أبلار لهلواز Heloise (*) وقد أضحت لكريدسيا وقتئذ تجيد عدة لغات فتكلم الأسبانية ، والإيطالية ، والفرنسية ، وتقرأ « قليلاً من اليونانية وأقل منها من اللاتينية » . ويقول بعضهم إنها كانت تقرض الشعر بهذه اللغات جميعاً (١٢٢) ، وقد أهدي إليها ألدوس مانيتوس Aldus Manitius الطبعة التي أصدرها من ديوان استرتسي Strozzi وأشار في المقدمة إلى أنها عرضت عليه أن تمول مشروعه العظيم في الطباعة (١٢٣) .

وقد وجدت بين هذه المشاغل العلمية الكثيرة متسعاً من الوقت حلت فيه لزوجها الثالث ثلاثة بنين وبناتاً واحدة . وقد سر منها ألفنسو على طريقته الدافقة العارمة . من ذلك أنه لما دعاه الداعي إلى مغادرة فيراراً في عام ١٥٠٦ أنابها عنه في حكمها ، فقامت بواجبات الحكم فيها بحكمة وحسن بصيرة جعلنا أهل فيراراً يميلون إلى مسامحة الإسكندر إذ تركها في وقت ما تشرف على شئون الفاتيكان .

(*) كان أبلار أول الأمر معلماً لهلواز ، ثم هام بها وانتهى حبهما بأذى المآسى وأروعهما في التاريخ . وقد دارت بينهما رسائل أدبية تعد من أشهر الرسائل في آداب العصور الوسطى . وقد ترجمت هذه الرسائل إلى كثير من اللغات ومنها اللغة العربية . انظر قصتهما ورسائلهما في كتابنا : « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

وكرست جهودها في السنين الأخيرة من حياتها لتربية أبنائها وتعليمهم ،
ولأعمال البر والرحمة ، وأضحّت راهبة فرنسية من الطبقة الثالثة ، ووضعت
في الرابع عشر من شهر يولية عام ١٥١٩ طفلها السابع ، لكنه مات قبل
أن يرى الضوء ، ولم تغادر قط فراش المرض . ، حتى إذا كان اليوم الرابع
والعشرون من ذلك الشهر ماتت وهي في سن التاسعة والثلاثين لكريليسيا
بورچيا التي ظلمها الناس أكثر مما ظلمت هي نفسها :

الباب السابع عشر

يوليوس الثانى

١٥٠٣ - ١٥١٣

الفصل الأول

المحارب

إذا ما وضعنا أمامنا صورة رفائيل الفاحصة العميقة ليوليوس الثانى حكمنا من فورنا بأن جوليانو دلا روفيرى كان من أقوى الشخصيات التى جلست على كرسى البابوية . ذلك أنا نرى فى الصورة رأساً ضخماً ينحنى من فرط الإجهاد ومن التواضع المتوالى ، وجهة عريضة عالية ، وأنفاً كبيراً ينم عن العناد ، وعينين وقورتين ، عميقتين ، نفاذتين ، وشفتين منطبقتين تشهدان بالصلابة والعزيمة ، ويدبن مثقلتين بأختام السلطة ، ووجهاً مكتئباً يكشف عما فى السلطة من خداع . وهذا هو الرجل الذى ظل عشر سنين يقذف بإيطاليا فى أتون الحرب والاضطراب ، والذى حررها من الجيوش الأجنبية ، وهدم كنيسة القديس بطرس القديمة ، واستدعى برامنتى ومائة غيره من الفنانين إلى رومة ؛ وكشف ، ونمى ، ووجه ميكل أنجيلو ورفائيل ، وقدم للعالم على أيديهم كنيسة للقديس بطرس جديدة ، وسقفاً جديداً لمعبد مسيئى وقاعات الفاتيكان . ذلك رجل ليس كمثل كثير من الرجال .

وأكبر الظن أن طبعه الحاد كان يميزه منذ نشأته . وكان مولده بالقرب

من سافونا Savona وهو ابن أخ لسكستس الرابع ، وقد وصل إلى الكردنالية في السابعة والعشرين من عمره ، وظل فيها قلقا ساخطا ثلاثين وثلاثين سنة قبل أن يرقى إلى المنصب الذى كان يرى أنه حقه الواضح ، ولم تكن عنايته باليمين التى أقسمها بأن يبقى عزبا أكثر من عناية معظم زملائه^(١) فقد قال كبير حجابيه فى الفاتيكان بعدئذ أن يوليوس الثانى لم يكن يسمح بأن تقبل قدمه لأن « المرض الفرنسى » كان يشوهها^(٢) . وكانت له ثلاث بنات غير شرعيات^(٣) ، ولكن مشاغله الكثيرة فى محاربة الإسكندر لم تكن تتيح له وقتا لإظهار العطف الأبوى الذى كان يظهره الإسكندر نفسه والذى كان يغضب المنافقين من بنى الإنسان . وكان يكره الإسكندر لأنه فى رأيه دنخيل أسفانى ، ولا يرى أنه يليق للبابوية ، ويسميه نصابا ، ومغتصبا^(٤) ، وقد بذل كل ما فى وسعه لخلعه ، ولم يتورع حتى من استعداد فرنسا على إيطاليا ودعوتها إلى غزوها ، وكان الإسكندر يشن الحرب باسمه أما يوليوس فكان يخوضها بشخصه ، فقد أصبح البابا ابن السنين من العمر جنديا ، وكان ارتداء الثياب العسكرية أيسر له من المسوح البابوية ، وكان يحب المعسكرات وحصار المدن ، وتصويب المدافع ومشاهدة الهجمات توجه أمام عينيه . وكان يسع الإسكندر أن يعيب ويلعب ؛ أما يوليوس فكان يجد اللعب من أشق الأعمال لأنه يحب أن يواجه الناس برأيه فيهم ؛ « وكثيراً ما كانت لغته تتجاوز كل الحدود فى وقاحتها وعنفها » و « كان هذا العيب يزداد زيادة واضحة كلما تقدمت به السن »^(٥) . ولم تكن شجاعته ، كما لم تكن لغته ، تعرف لها حداً ، وكان حين تثابه العلة المرة بعد المرة أثناء حروبه يحجر أعداءه إذ يستعيد صحتته ويتنفس عليهم مرة أخرى .

وكان لابد له أن يفعل ما فعله الإسكندر فيبتاع بالمال عدداً قليلاً من الكرادلة ليتمرروا له سبيله إلى عرش البابوية ، ولكنه شهر هذه العادة فى

مرسوم له أصدره عام ١٥٠٥ . وإذا لم يكن قد أسرع في إصلاح هذه العادة لئلا يسبب له المتاعب ، فإنه قد رفض التحيز للأقارب رفضاً يكاد يكون تاماً ، وكلما كان يعين أحداً من أقاربه في منصب ما . بيد أنه كان يحدو حنو الإسكندر في بيع المناصب الكنسية والترقى إلى الدرجات العليا فيها ، وقد أغضب ألمانيا ببيع صكوك الغفران وبناء كنيسة الرسول بطرس^(٦) . وكان حسن الإدارة لموارده المالية ، واتفق المال في شئون الحرب وعلى الفن في وقت واحد ، وترك لليو في خزانته بعض المال الزائد على حاجته . وقد أعاد النظام الاجتماعي إلى رومة بعد أن ضعف هذا النظام في السنين الأخيرة من بابوية الإسكندر ، وحكم ولايات الكنيسة حكماً صالحاً امتاز بالحكمة في تعيين الموظفين وحسن توجيههم ؛ وسمح لآل أرسيني وكونا بالعودة إلى احتلال حصونهم ، وسعى لكسب ولاء هاتين الأسرتين القويتين بصلات الزواج بينهما وبين أقاربه .

ولما ارتقى كرسي البابوية وجد ولايات الكنيسة مضطربة ، ووجد أن نصف أعمال الإسكندر وسيزارى بورجيا قد تصدعت ؛ فقد استولت البندقية على فائندسا ، ورافنا ، وريميني (١٥٠٣) ؛ وعاد جيوفاني اسفوردسا إلى پزارو ، وأصبح آل بجليوني مرة أخرى سادة في پروجيا ، وآل بنتيفجلى سادة في بولونيا . وكان ما فقده من إيرادات هذه المدن يمدد الإدارة البابوية بالإفلاس ، وكان يوليوس يتفق مع الإسكندر في أن استغلال الكنيسة الروحية يتطلب امتلاكها الدائم للولايات البابوية ؛ وارتكب من أول الأمر الخطأ الذي ارتكبه الإسكندر إذ استعان بفرنسا — وبألمانيا وأسبانيا أيضاً — على أعدائه الإيطاليين . ووافقت فرنسا على أن ترسل ثمانية آلاف من جنودها نظير تعيين ثلاثة من رجالها الدينيين في مناصب الكرادلة ؛ ووعدت نابلي ، ومانتوا ، وأربينو وفيرارا ، وفلورنس بأن ترسل إمدادات صغيرة . وفي أغسطس من عام ١٥٠٦ خرج يوليوس

من رومة على قوته الصغيرة — المكونة من أربعائة فارس ، ومن حرمه السويسرى ، وأربعة كرادلة . وعين جويدو بلدو ، دوق أرينو الذى عاد إلى حكمها ، قائداً عسكرياً للجيش البابوية ، واكن البابا سار على رأسها بنفسه — وكان ذلك منظرا لم تره رومة من عدة قرون . وظن چيان پاولو بجليونى أنه لا يستطيع هزيمة هذا الحلف ، فجاء إلى أرفينو ، واستسلم للبابا ، وطلب إليه المغفرة . وزجر الإسكندر قائلا : «إني أغفر لك خطاياك الجسدية ولكنى سأعاقبك عليها جميعا حين ترتكب أول خطيئة صغرى» (٧) . واعتمد يوليوس على سلطته الدينية فدخل پروچيا بحرس قليل العدد ، وكان فى استطاعة بجليونى أن يأمر رجاله بالقبض عليه وإغلاق أبواب المدينة وهو فى داخلها ، ولكنه لم يجرؤ على هذا العمل . ودعش مكيفلى ، وكان وقتئذ قريباً منه ، إذ أضعاع بجليونى هذه الفرصة التى يستطيع فيها أن «يعمل عملاً خالداً الذكر» ؛ فقد كان فى وسعه أن يكون أول من يظهر للقساوسة عدم احترام الناس لمن يحيا حياتهم ويحكم مثل حكمهم ، وكان فى مقدوره أن يضرب ضربة تبلغ من العظمة حدا يرجح ما فيها من إثم ، وكل ما قد يعقبها من أخطار» (٨) . وكان مكيفلى يعارض فى أن تكون للبابوية سلطة زمنية كما كان يعارض فى ذلك معظم الإبطالين ، ويعارض كذلك البابوات الذين كانوا أيضاً ملوكا . ولكن بجليونى كان أيضاً يخشى على حياته ويعرف قيمها ، ولعله كان يرى أن نجاة روحه أجل شأناً من شؤونه بعد موته .

ولم يقض يوليوس فى پروچيا إلا وقتاً قصيراً ، فقد كانت بولونيا هدفه الحقيقى ؛ ولهذا قاد جيشه الصغير فى الطرق الوعرة واجتازته به جبال الأپنين إلى سيزينا ، ثم انقض على بولونيا من الشرق ، بينما كان الفرنسيون يهاجمونها من الغرب . وأيد يوليوس هذا الهجوم بمرسوم بابوى يقضى بحرمان آل بنتيشجلى وأشياعهم ، ويعرض فيه الغفران الشاهل على كل من

يقتل أى واحد منهم . وكان هذا طرازا جديداً من الحرب ، يجد معه بنيتيفجلى بدا من الفرار ، ودخل يوليوس المدينة فى هودج محمول على أكثاف الرجال ، وحياه أهلها تحية محررهم من الظلم والاستبداد (١١ نوفمبر سنة ١٥٠٦) . فلما تم له ذلك أمر ميكى أنجيلو بأن يقيم له تمثالا فى مدخل سان پيترونيو San Petronio ، وعاد بعدئذ إلى رومة ، وسار فى شوارعها راكبا عربة النصر وحياه أهلها تحية قيصر المنتصر .

ولكن البندقية كانت لا تزال تمتلك فائتلسا ، ورافنا ، وريميني ، وكانت عاجزة عن أن تقدر روح البابا الحرية . وجازف يوليوس بإيطاليا فى سبيل الاستيلاء على رومانيا ، فاستنجد بفرنسا ، وألمانيا ، وأسبانيا لإخضاع البندقية ملكة البحر الأدريائى . وسرى فيما بعد مبلغ استجابتها . حلف كبريه (١٥٠٨) لهذه الدعوة ، وأنهم لم يحرصوا على مساعدة يوليوس بل كانوا يحرصون على تقطيع أوصال إيطاليا ، أما يوليوس فإنه بانضمامه إلى تلك الدول قد غلب غضبه الحق من البندقية على حبه لإيطاليا : وبينما كان حلفاؤه يهاجون البندقية بجبوشهم وجه إليها يوليوس مرسوما بالحerman واللجنة يعد من أصرح المراسيم وأقواها فى التاريخ كله . وكتب النصر ليوليوس ، وردت البندقية المدن المختلصة إلى الكنيسة ، وقبلت أشد الشروط إذلالا لها ، وتلقى مندوبوها غفران البابا ومحو اللعنة فى موكب طويل آلم أرجلهم وركبهم أشد الألم (١٥١٠) . وندم يوليوس فى ذلك الوقت على استنجاهه بالفرنسيين ، فبدل سياسته معهم وأخذ يعمل على طردهم من إيطاليا ، وأقنع نفسه بأن الله يبدل سياسته المقدسة تبعا لهذا . ولما أن أبلغه السفير الفرنسى نبأ انتصار الفرنسيين على البنادقة ، وأضاف إلى هذا النبأ أن « هذه إرادة الله » رد عليه يوليوس مغضبا بقوله « إن هذه إرادة الشيطان » .

ثم حول نظراته العسكرية نحو فيرارا . فهامى ذى إقطاعية بابوية لا ينكر

أحد تبعينها له ، ولكن الإسكندر اكتفى منها بعد خطبة لكريدسيا بجزية رمزية ، يضاف إلى هذا أن الدوق ألفنسو ، بعد أن انضم إلى فرنسا في الحرب ضد البندقية بناء على طلب البابا ، رفض أن يعقد الصلح معها بناء على طلب البابا نفسه ، وبقي حليفاً لفرنسا . ولهذا صمم يوليوس على أن تصبح فيرارا ولاية بابوية بقضها وقضيضها . وبدأ حملته بمرسوم بابوي بحرماتها من حظيرة الكنيسة (١٥٠١) ، وبهذا المرسوم أصبح صهر أحد البابوات ابناً جائراً ومصدر هلاك ودمار في نظر بابا آخر . واستولى يوليوس على مودينا دون عناء كبير ، وبمساعدة البندقية . وبينما كان جنود البابا يستريحون في المدينة ارتكب هو خطأ موبقاً بدهابه إلى بولونيا ، حيث وردت إليه الأنباء على حين غفلة بأن جيشاً فرنسياً يقف على أبوابها بأوامر تقضى بمساعدة ألفنسو . ولم يكن في وسع الجيوش البابوية أن تقوم بمساعدته لبعدها وقتئذ عن المدينة ، ولم يكن في داخل بولونيا أكثر من تسعمائة جندي ، كما أنه لم يكن من المستطاع الاعتماد على مقاومة أهل المدينة للغزاة الفرنسيين لأن المندوب البابوي الكردينال ألدوزي Alidosi كان قد ساهمهم الخسف . وتملك اليأس فترة من الوقت يوليوس وكان وقتئذ مصاباً بالحمى وطريح الفراش ، ففكر في أن يتجرع السم (١٠) ، وأوشك أن يقع مع فرنسا صلحاً مذلاً ، وإذا المدد يصل إليه من أسبانيا والبندقية ، وارتد الفرنسيون ، وبعث يوليوس وراءهم بمنشور مقذع بجرمهم فرداً وجماعة من حظيرة الدين .

وكانت فيرارا في ذلك الوقت قد سلمت نفسها تسليحاً قوياً رأى يوليوس معه أن قواه لا تكفي للاستيلاء عليها . غير أنه لم يشأ أن يحرم وقتئذ من مجده العسكري فسار بنفسه على رأس جيشه إلى حصار ميراندولا Mirandola ، وهي مركز أممي من مراكز دوقية فيرارا . (١٥١١) ومع أنه كان وقتئذ في السادسة والثمانين من عمره ، فقد سار فوق الثلج الكثيف الطبقات ، وخالف السوابق الماضية بأن خاض غمار الحرب في

الشتاء ، ورأس المجالس العسكرية الفنية ، ووجه العمليات الحربية ومواقع المدفعية ، وفتش على جنده بنفسه ، وأولع بحياة الجندية ، ولم يسمح لأحد بأن يفوقه في الشتائم والنكات العسكرية (١١) . وكان الجنود أحياناً يسخرون منه ويضحكون ، ولكنهم كانوا في الأغلب الأعم يثنون على بسالته . ولما أن قتلت نيران العدو جندياً كان بجانبه ، انتقل إلى موضع آخر من الميدان ، ولما أن وصلت قذائف مدفعية ميرندولا إلى هذا الموضع الثاني عاد إلى موضعه الأول ، وهز كتفيه المقوستين استخفافاً بخاطر الموت . واستسلمت ميراندولا بعد مقاومة دامت أسبوعين ، وأمر البابا بأن يعدم جميع من يوجد فيها من الجنود الفرنسيين ؛ ولعل الطرفين قد دبوا معاً ألا يوجد فيها أحد من أولئك الجنود . وحى البابا المدينة من النهب ، وفضل أن يطعم جيشه ويموله بأن يبيع ثمنى كردناليات جديدة (١٢) .

وذهب إلى بولونيا ينشد الراحة ، ولكنه ما لبث أن حاصره فيها الفرنسيون مرة أخرى ؛ ففر منها إلى ريميني ، وأعاد الفرنسيون آل ينتيفجلي إلى الحكم ؛ ورحب الأهليون بعودة حكامهم الظالمين المطرودين ، ودمروا القصر الحصين الذي أنشأه يوليوس من قبل ، وحطموا التمثال الذي أقامه له ميكل أنجيلو ، وباعوا قطعه البرنزية إلى ألفنسو دوق فيرارا . وصب هذا الدوق الصارم ذلك البرنز وصنع منه مدفعاً سماه لاجوبيليا تكريماً منه للبابا . ورماه البابا بقرار آخر حرم فيه كل من اشترك في القضاء على السلطة البابوية في بولونيا . ورد الجنود الفرنسيون على هذا بالاستيلاء على ميرندولا من جديد ؛ ووجد يوليوس في ريميني وثيقة موقعاً عليها من الكرادلة ملصقة بباب كنيسة سان فرانشيسكو ، تدعو إلى عقد مجلس عام في مدينة پيزا في أول سبتمبر من عام ١٥١١ ، لبحث مسالك البابا .

وعاد يوليوس إلى رومة محطماً بالحسم ، تكتشفه المصائب من كل جانب ولكنه لم تذله الهزائم . وفي هذا يقول جوتشيارديني :

لقد وجد البابا نفسه وقد خدعته آماله الكاذبة أشد الخداع ؛ ولكنه كان يبدو ن مظهره شبيهاً بما وصف به كتاب الخرافات القديمة أناتايوس Anataeus الذى كان إذا لمس الأرض كما قطع أوصاله البطل هرقل عادت إليه قواه وميرته . فقد كان للشدائد على البابا هذا الأثر نفسه ؛ ذلك أنه حين كان يبدو فى أشد حالات الانقباض واليأس ، لا يلبث أن يستعيد نشاطه ، ويعود مرة أخرى أصلب مما كان عوداً وأكثر مما كان ثباتاً وأقوى إصراراً وعزيمة .

وأراد أن يقوم بحركة مضادة لحركة الكرادلة المتذمرين ، فدعا إلى عتد مجلس عام فى قصر لانتران فى التاسع عشر من إبريل سنة ١٥١٢ . وظل يكدح ليلاً ونهاراً لينشئ حلفاً ضد فرنسا . وأوشك أن ينجح فى غرضه وإذا هو يصاب بحمى شديدة الوطأة (١٧ أغسطس سنة ١٥١١) . وظل بين الحياة والموت ثلاثة أيام كاملة ، حتى إذا كان اليوم الحادى والعشرون من شهر أغسطس أغمى عليه إغماءة بلغ من طولها أن استعد الكرادلة لعقد مجمع مقدس لاختيار خلفه . ودعا بمبيوكولنا Pompeo Colonna أسقف ريتى Rieti فى الوقت عينه أهل رومة إلى الثورة على حكم البابا مدينهم وإعادة جمهورية ريندسو Rienzo . ولكن البابا أفاق من الإغماء فى اليوم الثانى والعشرين ، وتغلب على أطبائه ، وشرب جرعة كبيرة من التبيد ؛ ولشد ما أدهش جميع الناس ، وخيب ظن الكثيرين منهم ، بشفائه من مرضه ؛ وزالت الحركة الجمهورية وعفت آثارها من رومة . وأعلن يوليوس فى الخامس من أكتوبر أنه أنشأ حلفاً مقدساً من البابوية ، والبندقية ، وأسبانيا ، وفى السابع عشر من نوفمبر انضم إليه هنرى الثامن ممثلاً لإنجلترا . فلما حصل على هذا التأييد ، سجد الكرادلة الذين دعوا إلى مجلس پيزا من مناصبهم ، وحرم اجتماع هذا المجلس ؛ ولما أذن مجلس المسيادة فى فلورنس بناء على أمر ملك فرنسا بأن يجتمع المجلس المحرم فى

پيزا ، أعلن يوليوس الحرب على فلورنس وأخذ يعمل في الخفاء لعودة آل ميديتشى . واجتمع في پيزا سبعة وعشرون من رجال الكنيسة وممثلون للملك فرنسا ، وبعض الجامعات الفرنسية ، (٥ نوفمبر سنة ١٥١١) ؛ ولكن أهل المدينة غضبوا غضبة تنذر المجتمعين بالخطر ، ولم تكن فلورنس نفسها راضية عن هذا العمل ، فاضطر المجلس للانتقال إلى ميلان (١٢ نوفمبر) حيث كان في مقدور المؤتمرين المنشقين أن يتحملوا وهم آمنون سخرية الشعب تحت حماية الجنود الفرنسيين :

ولما كسب يوليوس هذه المعركة . معركة الأساقفة ، عاد مرة أخرى إلى حرب السلاح ، واستعد لها بأن ابتاع التحالف مع السويسريين الذين سبروا جيشاً ليهاجم الفرنسيين في ميلان ؛ ولكن هذا الهجوم أخفق ، وعاد السويسريون إلى بلادهم ، فلما حل عيد الفصح في الحادى عشر من إبريل عام ١٥١٢ أوقع الفرنسيون بقيادة جاستن ده فوا Gaston de Foix وبعمونة مدفعية ألفنسو القوية هزيمة متكررة بجيش حاف رافنا المختلط ، وانتقلت رومانيا كلها تقريباً تحت سيطرة فرنسا . وتوسل كرادلة يوليوس إليه أن يعقد الصلح ؛ ولكنه أبى ؛ واحتفل المجلس المنعقد في ميلان بهذا النصر المؤزر بأن أعلن خلع البابا ؛ وضحك يوليوس من هذا الإعلان . وفي اليوم الثانى من شهر مايو حملوه في هودج إلى قصر لاتران ، حيث افتتح مجلس لاتران الخامس ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى تركه يتطور تطوره البطيء ، وأسرع هو إلى ميدان القتال :

وفي اليوم السابع عشر من شهر مايو أعلن أن ألمانيا قد انضمت إلى الحلف المقدس ضد فرنسا . واشترى يوليوس السويسريين مرة أخرى فدخلوا إيطاليا عن طريق التيرول Tirol وزحفوا ليلقوا جيشاً فرنسياً أفسد نظامه النصر وموت قائده . وكان الزاحفون أكبر عدداً من الفرنسيين فترك هؤلاء رافنا ، وبولونيا ، وميلان نفسها ، وانسحب الكرادلة المنشقون إلى

فرنسا ؛ وفر آل بنتيفجلى مرة أخرى ، وأصبح يوليوس سيد بولونيا وإقليم رومانيا ؛ وانتز هذه الفرصة للاستيلاء أيضاً على پارما ، وبيتاشندسا ، وكان يأمل الآن أن يستولى على فيرارا التى لم يعد فى وسعها أن تعتمد على مساعدة تأتيها من فرنسا . وعرض ألفنسو أن يأتى إلى رومة ويطلب الغفران وشروط الصلح إذا أمّنه البابا على حياته فى الذهاب والعودة ؛ وأجابه يوليوس إلى طلبه ، وجاء ألفنسو ، وتفضل البابا فغفر له ؛ ولكنه لما رفض أن يستبدل بفيرارا بلدة أستى Asti الصغيرة ، أعلن يوليوس أن ما وعده به من الأمان غير قائم ، وأنزله بالسجن والاعتقال . وأحسن فريديسيو كولنا Fabrizio Colonna الذى كان مكلفاً بحراسة الدوق فى مجيئه أن شرفه قد مس ، فساعد ألفنسو على الهرب من رومة ؛ فعاد إلى فيرارا بعد أن قاسى أشد الأخطار فى الطريق ، وفيها عاد مرة أخرى يساح حصونه وأسواره .

وفى ذلك الحين أخذ يضمحل ما كان يتمتع به البابا المحارب من نشاط جبار ، فأوى إلى فراش المرض فى أواخر شهر يناير من عام ١٥١٣ مصاباً بعدة أدواء ، وقال الثرثارون الثمامون الذين لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلوبهم إن مرضه هو النتيجة التى تعقب « الداء الفرنسى » ، وقال غيرهم إن منشأه الإفراط فى الطعام والشراب^(١٤) : ولما لم يفلح كل علاج تخفيف وطأة الحمى ، استسلم للموت ، وأصدر التعليمات التى تتبع فى موكب جنازته ، وحث مجلس لاتران على أن يواصل عمله دون انقطاع ، واعترف بأنه من أشد الآثمين ، وودع الكرادلة ، ومات شجاعاً كما عاش شجاعاً (٢٠ فبراير سنة ١٥١٣) . وحزنت عليه رومة بأجمعها ، واحتشد لتوديع جثمانه وتقبيل قدميه جمع كبير لم يسبق له مثيل .

وبعد فليس فى وسعنا أن نقدر منزلته فى التاريخ إلا بعد أن ندرسه بوصفه محرراً لإيطاليا ، ومشيداً لكنيسة القديس بطرس ؛ وأكبر نصير للفن عرفته البابوية فى تاريخها كله . غير أن معاصريه كانوا على حق حين

نظروا إليه على أنه حاكم ومحارب أولا وقبل كل شيء . فقد كانوا يخشون نشاطه الجبار ، واندفاعه ، ولعناته وغضبته الشديدة التي يبدونها إذا اندلع لهيها لا تخمد أبداً . ولكنهم كانوا يشعرون أن وراء عنفه روحا في وسعها أن ترحم وتحب (*) . ولقد رأوه يدافع عن الولايات البابوية بقسوة وشدة غير مقيدة بمبدأ أو ضمير كما كان آل بورجيا يفعلون ، ولكنه لم يكن يسعى إلى عظمة أسرته ؛ وكان الناس جميعاً ، إذا استثنينا أعداءه وحدهم ، يمجّدون أهدافه ، حتى في الوقت الذي كانوا يرتجفون فيه من ألفاظه ، ويأسفون لما يلجأ إليه من وسائل . ولم يحسن يوليوس حكم الولايات التي استردها كما كان يحسنه سيزارى بورجيا ، لأن ولعله الشديد بالحرب كان يحول بينه وبين إصلاح أداة الحكم ؛ ولكن فتوحه كانت فتوحاً باقية على مدى الزمان ، حتى لقد بقيت الولايات البابوية من ذلك الحين موالية للكنيسة إلى أن قضت ثورة عام ١٨٧٠ على سلطة البابوات الزمنية . ولقد أخطأ يوليوس — كما أخطأت البندقية ، وكما أخطأ لدوفيكو والإسكندر ، في استدعاء الجيوش الأجنبية إلى إيطاليا ، ولكنه أفلح فيما لم يفلح فيه سابقوه ولاحقوه وهو تطهير إيطاليا من تلك القوات بعد أن أدت مهمتها . ولعله قد أضعف إيطاليا حين أنجاسها من أعدائها ، وعلم « البرابرة » أن في وسعهم أن يحاربوا حروبهم في سهول لمباردى ذات الشمس الساطعة . ولقد كانت في عظمتها عناصر من القسوة ، وكانت الرغبة في الكسب هي التي دفعتها إلى مهاجمة فيرارا والاستيلاء على فياتشندسا وبارما . ولم يكن يحلم بالاحتفاظ بأمالك الكنيسة المشروعة فحسب ، بل كان يحلم فوق ذلك بأن يجعل نفسه سيد أوروبا ، والامر المطاع للملوك . وقد شهر به جوتشياردينى لأنه « جاء للكرسى الرسولى بدولة استخدم فيها قوة السلاح ، وسفك فيها دماء المسيحيين ، بدل أن يعنى

(*) انظر حبه الشديد لفيدريجو ابن إزبلادست ، وقد باع من هذا الحب أن المفتابين لم يستكفوا أن يفسروه أقدر تفسير .

بأن يضرب للناس مثلاً في الحياة الصالحة (١٦) . ولكننا يصعب علينا أن
ننتظر من يوليوس ، في زمانه ومكانه ، أن يتخلى عن الولايات البابوية
للبنديقية وغيرها من المعتدين ، وأن يجازف بجعل الكنيسة تعتمد على الأسس
الروحية دون غيرها ، وذلك في الوقت الذي لم يكن فيه كل العالم الذي
حوله يعترف بحق ما إلا للذين يساحون أنفسهم بالقوة المادية . لقد كان
هو ما يجب أن يكونه في ظروف وقته وفي الجو الذي كان يعيش فيه ،
ولقد غفرت له الأيام ما ارتكبه من ذنوب .

الفصل الثاني

العمارة الرومانية : ١٤٩٢ - ١٥١٣

كان تشجيع الفن أبقي أعمال يوليوس ؛ ذلك أن حاضرة النهضة انتقلت في أيامه من فلورنس إلى رومة ، وفيها وصلت النهضة في الفن إلى ذروتها ، كما وصلت بعدئذ في عهد ليو العاشر إلى ذروتها في الأدب والعلم . ولم يكن يوليوس كثير العناية بالأدب ، لأن الأدب كان أهدأ وأكثر ألوثة من أن يوائم مزاجه ، أما الضخامة في الفن فكانت توائم فطرته وحياته ، ولهذا أخضع للعمارة كل ما عداها من الفنون ، وترك وراءه كنيسة جديدة للقديس بطرس لتكون دليلا خالدا على روحه ، ورمزا للدين الذي أنجى سلطانه الزماني . وإن من عجائب النهضة ومن أسباب الإصلاح الديني أن يمد يوليوس بالمال برامنتي ، وميكل أنجيلو ورفائيل ومائة غيرهم من الفنانين ، وأن يجد المال اللازم لأكثر من عشر حروب ، ثم يترك وراءه في الخزانة البابوية مائة ألف فلورين .

ولم يستقدم رجل غيره إلى رومة مثل هذا العدد الذي استقدمه هو من الفنانين ؛ فقد كان هو مثالا الذي استدعى جويوم ده مارسلات Guillaume de Marcillat من فرنسا ليركب النوافذ الزجاجية الملونة لكنيسة سانتا ماريا دل بوبولو . وكان مما يمتاز به تفكيره وإدراكه أنه حاول التوفيق بين المسيحية والوثنية في الفن ، كما حاول ذلك نقولاس الخامس في الأدب ، وهل مصورات رفائيل إلا تناسق مقرر بين الأساطير والفلسفة القديمتين ، وبين اللاهوت والشعر العبريين ، وبين العاطفة والعقيدة المسيحيتين ؟ وأي شيء يمكن أن يمثل اتحاد الفن والشعور الوثنيين والمسيحيين غير الباب والقبعة ، والعمد الداخلية ، والتماثيل ، والصور الملونة ، ومقابر كنيسة

القديس بطرس ؟ وحلدا حذو البابا كبار رجال الدين والأعيان ، ورجال المصارف والتجار الذين امتلأت بهم رومة بعد أن زاد فيها الثراء ، فسادوا القصور تكاد تضارع في فخامتها قصور الأباطرة العظام ، ينافس بها بعضهم بعضاً في الثراء ، وشقت شوارع رئيسية واسعة خلال المدينة وفيما كان عليه تخطيطها في العصور الوسطى من فوضى واضطراب ، وفتحت مئات من الشوارع الفرعية الجديدة لا يزال واحد منها يحمل اسم البابا العظيم ، وقصارى القول أن رومة القديمة قامت من بين خرائبها وأنقاضها وأصبحت من جديد موطناً لقيصر من القياصرة العظام .

وإذا ما استثنينا كنيسة القديس بطرس كان لنا أن نقول إن ذلك العصر كان في رومة عصر القصور لا عصر الكنائس . وكانت هذه القصور من الخارج بسيطة متماثلة في مظهرها ! فكانت واجهة القصر على شكل مستطيل كبير مقام من الآجر ، أو الحجر ، أو الجص ، وكان مدخله من الحجر يزين في العادة برسوم ، وفي كل طابق صفوف متماثلة من النوافذ ، من فوقها قوصرات مثلثة إلهليجية الشكل ، وتكاد تعلوها على الدوام شرفة تكون رشاقة شكلها الخارجى محكاً خاصاً للمهندسين وموضعاً لعنايته . وكان أصحاب الثراء الموفور يخفون وراء الواجهة المتواضعة ما لا حصر له من الزخرف والأبهة التي قلما تقع عليها عين الشعب الغيور الحاسدة : فقد كان من خاف هذه الواجهة بئر مركزية تحيط بها أو تفصلها عما حولها درج عريضة من الرخام ، وكانت في الطابق الأرضي حجرات بسيطة تستخدم لإنجاز الأعمال أو خزن المتاع ، وفي الطابق الأول - أو الثاني كما يسميه الأمريكيون - حجرات الاستقبال والولائم الرحبة ، ومعارض الفن ، أرضها من الرخام أو القرميد الصلب الملون ، وفيها الأثاث ، والطنافس ، والأنسجة البديعة في مادتها وأشكالها ، والجدران تقويها العمدة المربعة ؛ والسق ذات اللوحات المزخرفة الغائرة مستديرة ، أو مثلثة أو ماسية الشكل أو مربعة ،

وعلى الجدران والسقف صور من صنع الفنانين الذائع الصيت ، تمثل في العادة موضوعات وثنية ، لأن الطرار الحيت في تلك الأيام كان يقضى بأن يحيا السادة المسيحيون ، حتى رجال الدين منهم ، وسط مناظر مستقلة من الأساطير القديمة . وفي الأطباق العليا كانت الحجرات الخاصة بالسادة والسيدات ، والخدم أصحاب الأزياء الخاصة ، والأطفال والمراضع والمربيات ، والمعلمين الخصوصيين والمعلمات ، والوصيفات . وكان للكثيرين من الناس من الثراء ما يمكنهم من أن يتخذوا لهم فضلاء عن تلك القصور بيوتاً خلوية في الريف أو الضواحي يلجأون إليها من صخب المدينة أو حر الصيف . وقد تخفى هذه البيوت الريفية أيضاً الكثير من الجلال ، والرخرف ، وأسباب العجم . والروائع الفنية التي أخرجتها أيدي رفائيل . وبيروتشي . وجويليورومانو ، وسباستيانو دل پيمبو Sebastino del Piombo . . . ولقد كانت هندسة القصر والبيت الريفي السالفة الذكر فناً أنانياً في كثير من نواحيه ؛ تظهر فيه الثروة المنزعة من العمال الذين لا تقع عليهم عين الثرى . ولا يخصصهم عد ، ومن الأراضي القاصية ، وتفخر بالزخرف الزاهي الذي تستمتع به أقلية من أصحاب الثراء . ولقد كانت بلاد اليونان القديمة وأوربا في العصور الوسطى أنبل روحاً وأرق طبعاً في هذه الناحية . ذلك أن هذه أو تلك لم تكن تنفق ثروتها في الترف والملاذ الخاصة ، بل كانت تنفقها في تشييد الهياكل والكنائس التي كانت ملك الناس جميعاً ومصدر فخرهم وإلhamهم ، وكانت بيوت الشعب كما كانت بيوت الله .

وكان اثنان من بين المهندسين المعماريين في رومة في عهد الإسكندر السادس أخوين ، وكان ثالثا ابن أخ لهما . وأحد هذين الآخرين هو جوليانو دا سنجلو Giuliano da Sangallo ، الذي بدأ حياته مهندساً عسكرياً في جيش فلورنس . ثم انتقل إلى خدمة فيرانتى صاحب نابلى ، وأصبح صديقاً لجوايانو دلا روفيرى ، في الأيام الأولى من كردنايته .

وحول جوليانو المهندس لجوليانو الكوندال دير جرتافيراتا *Grottaferrata* إلى حصن حصين ؛ وهو الذى صمم السقف ذا اللوحات الغائرة المزخرفة في كنيسة سانتا ماريا مجيورى ، وكفنها بأول ما جىء به من الذهب من القارة الأمريكية . ورافق الفنان الكوندال دلا روفيرى في منفاه ، وشاد له قصرآ في سافونا ، وانتقل معه إلى فرنسا ، ثم عاد إلى رومة لما اعتلى نصيره آخر الأمر عرش البابوية . وطلب إليه يوليوس أن يعرض عليه رسوماً لكنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ فلما فضل البابا عليها رسوم برامنتى ، وجه المهندس الشيخ اللوم إلى البابا ، ولكن يوليوس كان يعرف ما يريد هو لا ما يريد له غيره . وعاش سنجلو بعد أن مات برامنتى ويوليوس ، وعين فيما بعد مشرفآ على أعمال رفائيل وساعداً له في بناء كنيسة القديس بطرس ، ولكنه مات بعد عامين من تعيينه في ذلك المنصب . وكان أخوه الأصغر أنطونيو دا سنجلو قد قدم في هذه الأثناء من فلورنس ليكون مهندساً معمارياً وعسكرياً للإسكندر السادس ، وشاد ليوليوس كنيسة سانتا ماريا دى لوريتو *Santa Maria di Loreto* ذات الروعة والفخامة ، وشرع كذلك أنطونيو بكونى دا سنجلو *Antonio Picconi da Sangallo* ابن أخيهما في عام ١٥١٢ في بناء أفخم قصور النهضة على الإطلاق وهو قصر فرنزى *Palazzo Farnese* .

غير أن أعظم الأسماء كلها في عمارة ذلك العصر هو اسم دوناتو برامنتى *Donato Bramante* . وكان قد بلغ السادسة والخمسين من عمره حين قدم إلى رومة من ميلان (١٤٩٩) ، ولكن دراسته للخرائب برومة ألهمت في صدره حماسة الشباب وأثارت فيه رغبة قوية في أن يطبق الأشكال الرومانية القديمة على مباني النهضة ، وقد بدأ هذا التطبيق في بناء دير للرهبان الفرنسيس قريب من سان بيتر و *San Pietro* في منتوريا *Montoria* إذ خطط معبد أصغراً *Tempietto* ذا عمد وسقف مستدير شبيه كل الشبه بالمعابد الرومانية القديمة إلى حد دعا المهندسين إلى دراسته وقياس أبعاده ، كأنه آية من آيات الفن

القديم كشفت حديثاً . وانتقل برامنتى من هذه البداية إلى عدد من الروائع الفنية الأخرى : منها الطريق المقنطر المسقوف في كنيسة سانتا ماريا دلا باتشى Santa Maria della Pace ، والهيو الظريف في سان داماسو . . . وعمره يوليوس بالمطالب ، سواء منها ما يختص بالعمارة وما يختص بالهندسة العسكرية . فأنشأ طريق جولييا ، Via Giulia ، وأتم قصر بلقدير . وبدأ الشرفة المكشوفة في قصر الفاتيكان ، ووضع رسماً جديداً لكنيسة القديس بطرس . وقد بلغ شغفه بعمله درجة لم يكن يعنى معها بالمال ، حتى اضطر يوليوس أن يأمره بأن يقبل مناصب تذر عليه إيراداً ينى بنفقاته (١٧) . لكن بعض منافسيه اتهموه باختلاس أموال البابا ، وباستخدام المواد الرخيصة في مبانيه (١٨) . أما غيرهم فقد وصفوه بأنه شخص مرح كريم الطبع ، جعل بيته مقاماً مفضلاً لبروجينو ، وسنيورى ، وبنتررتشيو ، ورفائيل وغيرهم من أهل الفن في رومة .

وكان قصر بلقدير قصرأ صيفياً مشيداً للبابا إنوسنت الثامن ، ويقوم على ربوة تبعد نحو مائة ميل عن سائر مباني الفاتيكان : وقد اشتق اسمه من اللفظ bel vedere أى المنظر الجميل الذى يمتد أمامه ، وتسمت باسمه بعدئذ عدة تماثيل وضعت في حجراته أو في فئاته . وكان يوليوس من زمن طويل مولعاً بجمع روائع الفن القديم ، وكان أتمن ما يملكه منها تماثيل لأپلو كشف في أثناء بابوية إنوسنت الثامن ، فلما ارتقى عرش البابوية وضعه في فناء البلقدير ، وأصبح أبلو بلفمير من ذلك الوقت من أشهر تماثيل العالم على الإطلاق . وأنشأ برامنتى للقصر واجهة جديدة وفناء جديداً ذا حديقة ، ووضع خطة لتوصيله بقصر الفاتيكان نفسه بطائفة من المباني والحدائق الجميلة ، ولكنه هو ويوليوس عاجلتهما المنية قبل أن تنفذ هذه الخطة .

وإذا ما عزونا سبب النهضة بوجه عام إلى بيع صكوك الغفران لتبنى بالمال الذى تجمع من هذا البيع كنيسة القديس بطرس ، كانت أهم حادثة

في ولاية يوليوس هي هدم كنيسة القديس بطرس القديمة وبدء الكنيسة الجديدة . وتقول الرواية المأثورة إن الكنيسة القديمة قد بناها البابا سيلفستر Sylvester الأول (٣٢٦) ، فوق قبر الرسول بطرس بالقرب من حلبة نرون . وفي هذه الكنيسة توج كثير من الأباطرة من أيام شارلمان وما بعدها ، وكثير من البابوات . وقد وسعت رقعتها المرة بعد المرة حتى كانت في القرن الخامس عشر بأسلفا رحبة ذات صحن وجناحين مزدوجين تحيط بهما كنائس ، وأمكنة للصلاة ، وأديرة . ولكنها ظهر عليها قبيل أيام نقولاس الخامس ثر الأحد عشر من القرون التي مرت بها ، فظهرت شقوق طويلة في الجدران ، وخشى الناس أن تنهار في أي وقت من الأوقات . وقد نهار على من فيها من المصلين . ومن أجل هذا كلف برناردو رسبليو Bernardo Rosellino وليون باتستا ألبرتي Leon Battista Alberti في عام ١٤٥٢ بأن يقويا هذا الصرح بإنشاء جدران له جديدة . وما كاد العمل يبدأ حتى توفي نقولاس ، ووقف من جاء بعده من البابوات العمل فيها لحاجتهم إلى المال في الحروب الصليبية فلما كان عام ١٥٠٥ صمم يوليوس الثاني بعد أن فحص عدة رسوم مختلفة ورفضها جميعاً ، أن يهدم الكنيسة القديمة ويبني ضريحاً جديداً كله فوق المكان الذي قيل إنه قبر القديس بطرس . ولهذا دعا عدداً من المهندسين أن يعرضوا عليه رسوماً لها . وفاز برامنتي وكان مشروعه يقضى ببقاء بأسلفا جديد على شكل صليب يوناني (ذي ذراعين متساويتين في الطول) ، وأن يتوج ملتقى الجناحين الفرعيين بقبة ضخمة ؛ وقال بالعبارة الذائعة الصيت التي تعزى إليه إنه سيقم قبة البابائين على بأسلفا قسطنطين . وكان برامنتي يعزم أن يمتد الصرح الفخم . على ٢٨٩٠٠ ياردة مربعة — أي أكثر من الساحة التي تشغلها كنيسة القديس بطرس في هذه الأيام بأحد عشر ألفاً وستائة من الیاردات المربعة . وبدئ في حفر الأساس في شهر إبريل من عام ١٥٠٦ ، وفي ١١ إبريل نزل

يوليوس ، وكان وقتئذ في الثالثة والستين من عمره ، على سلم طويل مهتز من الحبال إلى عمق كبير ليضع حجز الكنيسة الأساسي : وسار العمل ببطء لأن يوليوس أخذ يزداد انهماكا في الحرب وتزداد نفقائه عليها . ثم توفي برامنتي في عام ١٥١٤ ، وهو لا يعرف لحسن حظه أن مشروعه لن يتفقد .

وصلدت مشاعر كثيرين من المسيحيين الصالحين حين فكروا في أن الكنيسة الكبرى القديمة المعظمة سوف تهدم . وعارضت كثرة الكرادلة في هدمها أشد المعارضة ، وشكا كثيرون من الفنانين من أن برامنتي قد حطم في غير مبالاة ما كان في صحن الكنيسة القديم من عمد وتيجان ظريفة ، وقالوا إنه لو بذل أكثر مما بذل من عناية لاستطاع أن يحتفظ بها سليمة . ونشر أحد الكتاب فيه هجاء بعد ثلاث سنين من موت المهندس قال إن القديس عنف برامنتي أشد التعنيف حين وصل إلى باب كنيسته ، وإنه منع من دخول الجنة . ويزيد الهجاء على ذلك قوله : ولكن برامنتي لم يعجبه نظام الجنة مطلقاً ، أو الطريق الشديد الانحدار الموصل إليها وقال : « سأنشئ طريقاً جديداً ، واسعاً ، مريحاً ، تستطيع الأرواح الضعيفة الطاعة في السن أن تسير فيه على ظهور الخيل ، ثم أنشئ بعد ذلك جنة جديدة تحوى مساكن مبهجة للصالحين الأبرار » . فلما رفض بطرس هذا العرض طلب برامنتي أن ينزل إلى جهنم ، ويبني فيها جحيماً خيراً من جحيمها القديم ، لأن هذا الجحيم قد طال به العهد فكاد بلا شك يحترق عن آخره . ولكن بطرس عاد فسأله : « قل لي بحق ، ما الذي دعاك إلى هدم كنيستي ؟ » وحاول برامنتي أن يهدئ من غضبه فقال : « إن البابا لبو سيشتد لك كنيسة جديدة » ، فرد عليه الرسول بقوله : « عليك إذن أن تنظر عند باب الجنة حتى يتم العمل » (١٩) .

وتم العمل فعلاً في عام ١٦٢٦ .

الفصل الثالث

رفائيل الشاب

١ - نشأته

لما مات برامنتي عين ليو العاشر خلقاً له في منصب المشرف على العمل في كنيسة القديس بطرس الجديدة مصوراً شاباً في الحادية والثلاثين من عمره ، ينوء لصغرمته بعبء ذلك العمل الضخم ، وهو إقامة قبة برامنتي ، ولكنه أصبح أسعد الفنانين في التاريخ كله ، وأعظمهم نجاحاً ، وأقربهم إلى القلوب .

وبدأ الحظ يبسم له من يوم أن ولد لـ جيوفاني ده سانتى Giovanni de'Santi حامل لواء المصورين في أربينو في ذلك الوقت . وقد بقيت لدينا صور من عمل جيوفاني ، وهي توحى بأنه ذو ذكاء عادي ؛ ولكنها تدل على أن رفائيل - وهو اسم أجمل الملائكة جميعاً - نشأ محباً أعظم الحب للتصوير ؛ وكثيراً ما كان بعض الفنانين يزورون جيوفاني ويقيمون في منزله . وكان جيوفاني ملماً بفن زمانه إلماماً يمكنه من أن يكتب في

تاريخ أربينو المقفى كتابة تنم عن العقل والذكاء في أكثر من عشرة من المصورين والمثالين الإيطاليين وأمثالهم من الفلمنكيين . وتوفي جيوفاني ولما يتجاوز رفائيل السابعة من عمره ، ولكن يلوح أن الأب كان قد بدأ يغرس حب الفن في نفس ولده . وأكبر الظن أن تيموتيوفيتي Timoteo Viti ، وكان قد عاد من بولونيا إلى أربينو في عام ١٤٠٥ بعد أن درس مع فرانشيا Francia ، واصل تعليم رفائيل ، وجاء إليه بما كان قد أخذه، عن فرانشيا ، وتورا ، وكستا . ونشأ الغلام في تلك الأثناء في محيط من

يستطيعون الانصال بالبلاط ؛ وكان المجتمع الرقيق الظريف الذى وصفه كستيجليوني بعدئذ فى كتابه المسمى رجل الحاسية قد أخذ ينشر بين الطبقات المتعلمة فى أرينو دسائة الخلق ، ورقة الأدب ، والحديث ، وهى الصفات التى أظهرها رفائيل بفنه وبجياته . وفى المتحف الأشمولى Ashmolean Museum بأكسفورد صورة عجيبة تعزى إلى رفائيل فى الفترة الواقعة بين عامى ١٤٩٧ و ١٥٠٠ ، وتظن الرواية المتواترة أنها تمثله هو . ووجهه فى هذه الصورة يكاد يكون وجه أنثى ، أما عيناه فرقيقتان كعيون الشعراء . وهذه هى المعارف التى سنلتقى بها مرة أخرى فيما بعد ، وسنلتقى بها أكثر قتاما وفيها قليل من القلق والبلبال ، فى الصورة الجذابة التى رسمها لنفسه (فى عام ١٥٠٦ فى الغالب) والمحفوطة فى معرض Pitti .

فليتصور القارئ ذلك الشاب كما تظهره الصورة الأولى وهو ينتقل فى السادسة من عمره من أرينو التى يسودها الهدوء والنظام إلى پروچيا حيث الاستبداد والعنف هما النظام المألوف . ولكن پروچيا كان فيها پروچينو الذى طبقت شهرته جميع أنحاء إيطاليا ؛ وأحسن أعمام رفائيل الذين كانوا يتولون أمره أن مواهب الشاب البادية للعيان خليقة بأن تتلقى التعليم من أعظم المصورين فى إيطاليا . وكان يسعهم أن يرسلوه إلى ليوناردو فى فلورنس حيث يستطيع أن يتشرب ما فى فن ذلك الأستاذ من نزعة للغموض والخفاء ؛ ولكن الفنان الفلورنسى العظيم كان يتصف بشيء خاص به ، شيء غير مألوف أو ، بعبارة أخرى ، شيء يسارى ، شيء مشثوم - عشقه - لا يروق فى أعين كل الأعمام الصالحين ؛ يضاف إلى هذا أن پروچيا كانت أقرب إلى أرينو من فلورنس ، وأن پروچينو كان عائدا من پروچيا (١٤٩٩) ومعه جميع الحيل التطبيقية^(٢) التى يعرفها المصورون الفلورنسيون ويطبقونها فى يسر ودون كلفة . وهكذا ظل الغلام الوسيم ثلاث سنين يعمل عند بييترو فانوتشى Pietro Vannucci ، ويساعده فى

زخرفة الكمبيوتر Cambio ، حتى ألم بجميع أسرارها ، وعرف كيف يصور العذارى زرقاء خاشعة كعذارى بروجيو نفسه . وكانت تلال أمبريا Umbria ، وخاصة ما كان منها فوق أسيسي وجوها ، والتي كان في وضع رفائيل أن يبصرها من هضبة بروجيا ، كانت هذه التلال تمتد المعلم والطالب بفيض كامل من الأمهات الساذجات الوفيات ذوات الشباب الجميل ، ولكن الجو الفرنسي الذي يستنشقناه كان يصوغهن فيجعل منهن أنهن تقيات موثوق بتقواهن .

ولما عاد بروجينو إلى فلورنس (١٥٠٢) بقى رفائيل في بروجيا ووقع عليه عبء المطالب التي نماها أستاذه في أهل تلك البلدة للصور الدينية . ففي عام ١٥٠٣ رسم لكنيسة القديس فرانسس صورة تمثل تنوير العذراء توجد الآن في الفاتيكان : وفيها يقف الرسل ومعهم مجدين حول تابوت خال ، ويتطلعون إلى أعلى حيث يقف المسيح فوق السحب ويضع تاجا على رأس مريم ، بينما يحيطها الملائكة بالعود والرق . وتبدو في هذه الصور شواهد كثيرة على عدم النضوج : فالرعوس ليس فيها ما يكفي من الانفرادية ، والوجوه قليلة التعبير ، والأيدي ليست حسنة التشكيل ، والأصابع جامدة غير لينة ، والمسيح نفسه أكبر بلا شك من أمه الجميلة ، وهو يتحرك حركات سمجة كأنه ناشئ ، حديث التخرج . ولكن رفائيل أظهر في صور الملائكة الموسيقيين - في رشاقة حركاتهم ، وهففة أثوابهم ، وفي الخطوط الخارجية لمعارفهم - ما سوف يكونه في المستقبل .

ويبدو أن الصورة لاقت نجاحاً ؛ وشاهد ذلك أن كنيسة أخرى تدعى كنيسة سان فرانشيسكو في تشتا دي كاستلو Citta di Castello تبعد نحو ثلاثين ميلا من بروجيا طلبت إليه أن يرسم لها صورة مثل الصورة السابقة هي صورة الأسبوسالديسو Spozalizio أو زواج العذراء (المحفوظة في بريرا Brera) . وتكرر في هذه الصور بعض أشكال الصورة الأولى ،

وتحذو في شكلها حذو صررة مماثلة لها من عمل پروچينو . ولكن العذراء نفسها تبدو عليها سمات نساء رفاثيل ورشاقتهن - في الرأس المائل في تواضع ، والوجه الحنون الحلي ، والانحناء الخفيف في الكتف والذراع والثياب ، ومن خلف العذراء امرأة أكثر منها مرحاً وحيوية ، شقراء جميلة . وإلى اليمين شاب في ملابس ضيقة تدل على أن زفائيل قد عكف على دراسة الجسم البشري ؛ والأيدى كلها الآن حسنة الرسم وبعضها جميل .

وكان بنتور تشيو قد تعرف حوالى ذلك الوقت برفاثيل في پروچيا فدعاه إلى سينا ليكون مساعداً له ؛ وفيها رسم رفاثيل صوراً تخطيطية ؛ وأخرى تمهيدية . لبعض المظلمات الرائعة التى يقص بها بنتور تشيو في مكتبة الكنيسة أجزاء من قصة إيفياس سلقىوس قصصاً خليفاً بالبأبوات . واسترعت أنظار رفاثيل في تلك المكتبة طائفة من التماثيل القديمة الطراز . هى تماثيل ربات الجمال التى جاء بها الكردنال بى كولومبى من رومة إلى سينا . ورسم الفنان الشاب صورة سريعة لهذه التماثيل ، ليساعد بها ذاكرته على ما نظن . ويبدو أنه وجد في هذه الصور الثلاث العارية عالماً مختلفاً ، وأخلاقاً مختلفة ، عما انطبع في ذهنه في أربينو وپروجيا - عالماً كانت فيه المرأة إلهة مبهجة من ربات الجمال ، بدل أن تكون أم الإله الخزينة ، وتعد فيه عبادة الجمال عملاً مشروعاً لا يقل في ذلك عن تعظيم العفة والطهارة . ونما في ذلك الوقت الجانب الوثنى من رفاثيل ، وهو الذى أمكنه في مستقبل الأيام من رسم نساء عاريات في حمام أحد الكرادلة ، ووضع الفلاسفة اليونان إلى جانب القديسين المسيحيين في حجرات القاتيكان ، وتطور هذا الجانب تطوراً هادئاً ملازماً لتلك الناحية من طبعه وفنه اللذين أنتجا فيما بعد صورتى قمراس بلسينا Bolsena وعذراء سمقى . وسنجد في صور رفاثيل أكثر مما نجده أى بطل آخر من أبطال النهضة الإيمان المسيحى والبعث الوثنى يعيشان جنباً إلى جنب في سلام وانسجام .

وعاد رفائيل بعد زيارته سينا أو قبل هذه الزيارة بزمان قصير إلى أرينو حيث قضى قليلا من الوقت ؛ وهناك رسم لجويدو بلدو صورتين ترمزان في أغلب الظن لانتصار الدوق على سيزارى بورچيا : وهما صورتا

القريبس **صباييل** والقريبس **جورج** ، وكلتاهما في متحف اللوفر . ومبلغ علمنا أن الفنان لم يفلح قبل ذلك الوقت في تمثيل العمل والحركة مثل ما أفلح رفائيل في هاتين الصورتين ؛ فصورة القديس جورج وهو يستل سيفه ليهوى به على الهولة ، بينما يقفز جواده على خلفيته من شدة الرعب ، وتنشب الهولة مخالبها في ساق الفارس ، ذلك كله يدهش الناظر بقوته ولكنه مع ذلك يسر العين برشاقتها ؛ وهكذا بدأ رفائيل الرسام يعرف قدر نفسه .

وتدعوه وقتئذ فلورنس كما دعت من قبله بروجينو ومائة غيره من المصورين الشبان . ويبدو أنه شعر بأنه إن لم يعيش فترة من الزمان في تلك الخلية العاملة الحافزة التي ديدنها التنافس والنقد ، فيتعلم فيها مباشرة وعن كتب آخر تطورات الخطوط والتأليف واللون ، في المظلمات والتصوير الزلالى والزيتى ، إن لم يفعل هذا وذاك فلن يكون أكثر من رسام إقليمي ، موهوب ولكنه محدود المجال ، قدر عليه آخر الأمر أن يظل مغموراً في بيته وفي المدينة التي ولد بها . ومن أجل هذا رحل إلى فلورنس في أواخر عام ١٥٠٤ .

وفيها سلك كعادته مسلك الرجل المتواضع ، فدرس أعمال النحت القديمة ، وقطعاً من فن العمارة جمعت في المدينة ، وذهب إلى الكارميني Carmine ونقل صور ماساتشيو Masaecio ، وبحث عن الصور التمهيدية التي أعدها ليوناردو وميكل أنجيلو لتكون صوراً في قاعة المجلس في قصر فيتشيو . ولعله التقى هنا بليوناردو ، وما من شك في أنه خضع وقتاً ما إلى تأثير هذا الأستاذ الذي يحرك كل من يخضع له ؛ وبدأ له وقتئذ أن جميع الصور التي أخرجتها مدارس الفن في فرارا ، وبولونيا ، وسينا ، وأرينو ،

إذا قيست إلى صورتي عبادة الجحوس ، ومونايزا ، وصورة العذراء والطفل ، والفريسة آه بدت كأنها ميتة لا حياة فيها ؛ بل إن عذارى بروچينو لم تكن إذا قيست إليها إلا دى جميلة ، أو فتيات غير ناضجات من بنات الريف وهن على حين غفلة قداسة غير موأمة لهن . ترى كيف كانت لليوناردو هذه الرشاقة في رسم الخطوط ، وهذه المهارة في تصوير الوجوه ، وهذا الإتقان في تمثيل ظلال الألوان ؟ وما من شك في أن رفائيل

قلد صورة مونايزا في صورة مدالينا دونى Maddalena Doni (المحفوظة في بيتى Pitti) ، وإن كان قد حذف منها ابتسامتها لأن سيدة دونى لم تكن فيما يبدو تبسم ؛ ولكنه أجاد تصوير جسم السيدة الفلورنسية القوى المتين البناء ، ويديها الناعمتين ، المكتنزتين ، المتخمتين ، اللتين تمتاز بهما صاحبات المال المنعمات ، ونسيج الثياب الغالى ذى اللون الجميل الذى يكسب هذا الشكل لإجلالا ومهابة . وصور رفائيل في الوقت عينه زوجها أنجياو دونى Angelo Doni أسمر اللون ، يقطأ ، صارماً .

وانتقل من عند ليوناردو إلى الراهب بارتوليو ، فزاره في صومعته في سان ماركو ، ودهش مما شاهده في فن الراهب الحزين من حنان التعبير ، وحرارة الشعور ، ورقة الخطوط الخارجية ، وانسجام التأليف ، وعمق الألوان وكماها . وزار الراهب بارتوليو رفائيل بعدئذ في رومة عام ١٥١٤ ودهش هو أيضاً كما دهش رفائيل قبله من السرعة التى علاها شأن الفنان المتواضع حتى بلغ ذروة المجد في عاصمة العالم المسيحى . والحق أن رفائيل قد بلغ هذه الدرجة من العظمة لأنه كان في مقدوره أن يسرق بنفس الطهارة التى يسرق بها شيكسبير ، ولأنه كان يستطيع أن يجرب وسيلة بعد وسيلة وطرازاً بعد طراز ، ويأخذ من كل طراز ما فيه من عناصر ثمينة ، ثم يخرج ما أخذه منها مدفوعاً بتحمسه للخلق . وللإبداع فيجعل منه أسلوباً لا شك في أنه أسلوبه الخاص دون سواه .

ولقد استحوذ على تقاليد التصوير الإيطالي الفنية جزءاً جزءاً وما لبث أن بلغ بها حد الكمال .

وكان في هذه الفترة الفلورنسية (١٥٠٤ - ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ - ١٥٠٧) قد شرع يرسم صوراً تطبق الآن شهرتها العالم المسيحي وغير العالم المسيحي .
ففي متحف بودابست Budapest مثلاً صورة **مساب** - لعلها صورة له هو - له نفس البيرية(*) ونظرة العينين الجانبية التي نشاهدها في صورة معرض بتي . ورسم رفائيل وهو لا يزال في الثالثة والعشرين من عمره صورة **مادونا دل غراندوفا** Madonna del Granduca أى سيدة الدوق الأكبر (معوض بتي) التي صور وجهها ذا الشكل البيضى الكامل ، وشعرها الحريري ، وفها الصغير ، وجفونها الشبيهة بجفون نساء ليوناردو وقد خفضتها في حب حزين ، نقول إنه صور هذه المعارف ليعارض بها معارضة قوية قناعها الأخضر ورداءها الأحمر . وكان فرديناند الثانى دوق تسكانيا الأكبر يجد من السرور في مشاهدة هذه الصورة ما يحمله على أن يأخذها معه في أسفاره - ومن هنا اشتق اسمها . ولا تقل عن هذه جمالا صورة **مادونا دل كارديلينو** Madonna del Cardeilino أى سيدة الحسون(**) (في متحف أفيزى) ، فالطفل المسيح في هذه الصورة آية رائعة من آيات التفكير ، ولكن القديس يوحنا ، الذى يصل ظافراً بالطائر مقبوضاً عليه يلعب به ، بهجة للعقل والعين ، ووجه العدواء يمثل تمثيلاً لا يمكن أن ينمحي من الذاكرة حنان الأم الشابة المتساعمة . وقد أهدى رفائيل لورندسو ناسى Lorenzo Nasi هذه الصورة بمناسبة زفافه ؛ ولكن زلزالاً حدث في عام ١٥٤٧ هدم بيت ناسى وحطم الصورة ؛ ثم جمعت قطعها بحلق وعناية لا يستطيع أحد معها أن يحبس ما أصابها .

(*) Beret لباس للرأس . (المترجم)

(**) طائر أوروبى صغير براق اللون من طيور الزينة . (المترجم)

إلا بيرينسون Berenson بعد أن شاهدها في متحف أفيزى . لكنه كان في صورة السيدة في المربع (المحفوظة في متحف فينا) أقل توفيقاً منه في الصور السابقة ، وإن كان رفائيل يرسم لنا فيها منظرًا طبيعيًا فدا ، مغموراً في ضوء المساء . الأزرق الخفيف المتساقط على الحقول الخضراء ، والحجرى الأملس المستوى السطح ، والمدينة ذات الأبراج ، والتلال النائية . وصورة البستاني الجميل (متحف اللوفر) لا تكاد تستحق أن توصف بأنها صورة أجمل السيدات الفلورنسيات . فهي تكاد تكون صورة طبق الأصل من صورة سيرة المربع ، وهي تمثل يوحنا المعمدان من أنفه إلى قدمه تمثيلاً مضحكاً سخيفاً ، ولا يرفع من شأنها إلا صورة الطفل المثالية وهو واقف بقدميه المكتنزتين على قدم العذراء العارية ، رافعاً عينيه نحوها في حب وثقة . وأحسن صور ذلك العهد وأعظمها طموحاً نحو الكمال صورة مادونا دل بلداتشينو (سيدة المظلة) Madonna del Baldacchino (المحفوظة في معرض بتي) — وفيها ترى الأم العذراء جالسة فوق مظلة ، يفتح طياتها ملكان ، ويقف إلى جانبها قديسان ، ويغني عند قدمها ملكان آخرون . والصورة كلها عمل تقليدى عرقى سبب شهرتها الوحيد أنها من صنع رفائيل .

وقطع مقامه في فلورنس عام ١٥٠٥ ليزور پروچيا ويقوم فيها بعملين ، أحدهما هوستار المذبح الذى رسم عليه صورة لراهبات دير القديس أنطونيوس . وهو الآن من أنفس الصور في معرض نيويورك الفنى . وفيه نجد العذراء فى داخل إطار منحوت نحتاً جميلاً ، جالسة على عرش ، تشبه « راهبة » وردسورث Wordsworth التى « تنقطع أنفاسها من العبادة » ؛ والطفل فى حجرها يرفع إحدى يديه ليبارك الرضيع القديس يوحنا ؛ وفيها صورتان لسيدتين — هما القديسة تشيتشيليا والقديسة كترين الإسكندرية — تحيطان بالعذراء ، ويرى فى مقدمة الصورة القديس بطرس

عابسا ، والقديس بولس يقرأ ، وفي مشكاة في أعلاها يرى الله الأب يحيط به الملائكة ، ويبارك أم ابنه ويمسك العالم بإحدى يديه . وفي إحدى اللوحات يصلى المسيح على جبل الزيتون والرسل نائمون ، وفي لوحة أخرى ترفع مريم جدم المسيح الميت ومجدلين تقبل قدميه الجريحتين . وإن ما في الصورة من تأليف كامل لأشتاتها ، وصورة القديسات التي تأخذ بمجامع القلوب ، وهن يفكرن في قلق . والفكرة القوية التي أوجت بصورة بطرس المنفعل ، والمنظر الفذ للمسيح وهو على الجبل ، كل هذا يجعل هذه الصورة التي رسمت لآل كولنا أول الروائع التي أخرجها رفائيل لا ينافيها في ذلك منازع . ورسم الفنان في تلك السنة نفسها سنة

١٥٠٦ صورة أقل من هذه روعة : صورة سيمرة (محفوظة الآن في المعرض القومي بلندن) لأسرة أنسیدی Ansidei . فيها ترى العذراء على عرشها الضيق ، تعلم الطفل القراءة ، وإلى يسارها نقولاس قديس بارى Bari في ثيابه الأسقفية الفخمة منهمك أيضاً في الدرس ، وإلى يمينها يوحنا المعمدان وقد بلغ فجاءة سن الثلاثين بينا رفيقه في اللعب لا يزال طفلاً ، وهو يشير بإصبعه التقليدي إلى ابن الله .

ويبدو أن رفائيل سافر من بروچيا إلى أرينو مرة أخرى (١٥٠٦) ، وفيها رسم لجويدوبلندو صورة أخرى للقديس جورج (توجد الآن في لينينجراد) يمسك هذه المرة برمح ، وهو في هذه الصورة فارس شاب وسيم مغطى بالزرد تكشف زرقته البراقة عن ناحية أخرى من براعة رفائيل . وأكبر الظن أنه في هذه الزيارة نفسها قد رسم لأصدقائه أكثر صوره الذاتية شهرة (معرض بتي) وفيها يلبس بيرية سوداء فوق عذائر من الشعر الطويل الأسود ؛ ووجه لا يزال في نضرة الشباب ، لم يظهر فيه بعد أثر لشعر اللحية ؛ وأنف طويل ، وفم صغير ، وعينين رقيقتين - وقصارى القول أن الوجه كله من الوجوه التي تظالعتنا في كل

حين وهو أشبه ما يكون بوجه كيتس Keats - ويكشف عن روح طاهرة ناضرة مرهفة الحس بكل ما فى العالم من جمال .

وعاد إلى فلورنس فى أواخر عام ١٥٠٦ ، وفيها رسم بعض صورہ الأقل من الصور السابقة شهرة ومنها الصورة المعروفة باسم صورة نقوليني كوبر « Niccolini Cowper » ، وهى صورة العذراء والطفل (واشنجتن) . وسبب تسميتها بالاسم الأول أن إيرل كوبر الثالث خرج بها من فلورنس خلسة مخبأة فى بطانة فرش عربته . وليست هى من أحسن صور رفايل ؛ ولكن أندرو ملون Andrew Mellon ابتاعها بمبلغ ٨٥٠,٠٠٠ دولار ليضمها إلى مجموعته (١٩٢٨) (٢٠) . وبدأ رفايل وهو فى فلورنس عام ١٥٠٧ صورة أعظم من هذه كثيراً هى صورة دفن المسيح الموجودة فى معرض آل بورجيا وقد كلفته برسمها لكنيسة سان فرانتشيسكو فى بروجيا السيدة أطلنطا بجليوني Atalana Baglioni التى خرت راکعة فوق ابنها المحتضر فى شارع المدينة قبل سبع سنين من ذلك الوقت ، ولعلها أرادت أن تعبر عن حزنها بحزن مريم على ولدها . وقد اتخذ رفايل صورة بروجيا التى تمثل الودعة نموذجاً له ، فألف بين أجزاء صورنه تأليفاً بارعاً لا يكاد يقل فى قوته عن تأليف متينيا Montegna : ففيها يرى المسيح الميت الضامر الجسم يحمله فى غطاء شاب متين البنية قوى العضلات ورجل ملتج مهجد ، وفيها أيضاً صورة رائعة لرأس يوسف الأرميتاى of Arimathea ، وصورة جميلة لمجدلين تنحنى وهى مروعة فوق الجثة ، ومريم أم المسيح فاقدة وعيها فى أحضان المحيطات بها من النساء . وقصارى القول أن كل من فى الصورة يختلف فى موقفه عن غيره ، ولكنهم جميعاً قد صوروا تصويراً دقيقاً من حيث تشريح الجسم . ورشيقاً لا يقل عن رشاقة كريچيو ، Corregio ، وقد امتزجت فيها الألوان الحمراء ، والزرقاء ، والبنية ، والخضراء امتزاجاً ألف منها وحدة متناسقة مشرقة ، بين منظر طبيعى جميل شبيه بمنظر

جورجيونى تظهر فيه صلبان جلجوثا Golgotha الثلاثة تحت مماء السماء ،

وتلقى رفائيل وهو فى فلورنس عام ١٥٠٨ دعوة غبرت مجرى حياته .
ذلك أن فرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى دوق أرينو الجديده كان ابن أخى
يوليوس الثانى ، وكان برامنتى الذى يمت بصلة القرابة البعيدة لرفائيل من
المقربين وقتئذ للبابا ؛ ويلوح أن الدوق والمهندس أوصيا يوليوس برفائيل ،
وسرعان ما تلقى المصور الشاب دعوة بالحجىء إلى رومة . وقد سره أن يساف
إليها لأن رومة لافلورنس ، كانت وقتئذ المركز المثير الحافز لعالم النهضة ؛
وكان يوليوس قد مل رؤية جويليا فرنيزى تمثل كذباً صورة العذراء
على جدران جناح آل بورجيا بعد أن أقام فى هذا الجناح أربع سنين ،
ورغب لذلك أن ينتقل إلى الحجرات الأربع التى كان يسكنها فى وقت
ما نقولاس الخامس العظيم . وأراد أن تزين هذه الحجرات بصور توائم
ما فطر عليه من بطولة وما يبتغيه من أغراض . وسافر رفائيل إلى رومة
فى صيف عام ١٥٠٨ .

٢ - رفائيل ويوليوس الثانى : ١٥٠٨ - ١٥١٣

قلما اجتمع فى مدينة عدد من الفنانين العظام منذ أيام فيدياس مثل العدد
الذى اجتمع منهم فى رومة فى تلك الأيام . لقد كان فيها ميكل أنجيلو يحفر
صوراً للقبر الضخم المنشأ ليوليوس ، كما كان ينقش سقف معبد سستينى ؛
وكان برامنتى ، يخطط كنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ وإيراهب جيوفنى
فنان فيرونا البارع فى الحفر على الخشب يحفر أبواباً وكراسى ، ومقاعد ،
للحجرات ؛ وكان بيروجينو ، وسنيوريلي ، وپرودىسى ، وسودوما ،
ولتو ، وپنتورتشيو ، كان هؤلاء قد نقشوا بعض الجدران ؛ وكان
أمبروجيو فپا Ambrogio Foppa المسمى كرادسا Caradessa تشيلينى زمانه
يصنع الذهب على اختلاف أشكاله ؛

وعهد يوليوس إلى رفاثيل بنقش *مجرة التوقيعات Stanza della Sequatora* التي سميت بهذا الاسم لأن البابا كان يستمع فيها لاستئناف الأحكام ويوقع العفو عن صدرت عليهم أحكام نهائية . وقد سرته النقوش الأولى التي قام بها الشاب في هذه الحجرة ، ورأى فيه عاملاً له ممتازاً طبعاً ، في مقدوره أن ينفذ الأفكار العظيمة التي يمثلها بها ذهن البابا ؛ وبلغ من هذا السرور أن فصل من خدمته *برجينو ، وسنيوريلي ، وسودوما* ؛ وأمر أن تغطي رسومهم بالجير ، وعرض على رفاثيل أن ينقش هو جميع جدران الحجرات الأربع . غير أن رفاثيل أقنع البابا بأن يحتفظ ببعض الأعمال التي قام بها الفنانون الأولون ؛ لكن معظم هذه النقوش غطيت حتى تكون للنقوش الكبرى وحدة التفكير والتنفيذ . ونال رفاثيل على نقش كل حجرة ١٢٠٠ دوق (١٥,٠٠٠ دولار) ، وقضى في الحزمتين اللتين نقشهما ليوليوس أربعة أعوام ونصف عام ؛ وبلغ وقتئذ السادسة والعشرين من العمر .

وكان تصميم *مجرة التوقيعات* فخماً سامياً ؛ فقد كان المراد من النقوش أن تمثل اتحاد الدين والفلسفة ، والثقافة القديمة والدين المسيحي ؛ والكنيسة والبولية ، والأدب والقانون ، اتحاد هذه كلها في حضارة النهضة ، ولعل البابا هو الذي تصور الفكرة العامة ، واختار الموضوعات بعد استشارة رفاثيل وعلماء بلاطه - *إنغيرامي Inghirami* و*سادوليتو Sadoleto* ثم بمبو وبيينا Bibbiena فيما بعد . وقد رسم رفاثيل ، في نصف الدائرة الكبرى التي يكونها أحد الجدران الجانبية ، الدين ممثلاً في أشخاص الثالوث والقديسين ، اللاهوت في صورة آباء الكنيسة وعلمائها وهم يبحثون طبيعة الدين المسيحي مركزاً في عقيدة العشاء الرباني . وفي وسعنا أن ندرك مقدار ما بذله من العناية في إعداد نفسه لهذا الاختبار الأول الذي امتحنت به قدرته على أن يرسم صوراً على مقياس واسع ، في وسعنا أن ندرك هذا

من الدراسات الثلاثين المبدئية التي قام بها لكي يستعد لرسم صورة النقاش في موضوع العشاء الرباني . فقد درس لهذا الغرض صورة يرسم الحساب التي رسمها الراهب بارتوليميو في كنيسة سانتا ماريا نونفا في فلورنس ، والصورة التي رسمها هولعبادة الثالث في كنيسة سان سفير في بروجيا ، وعلى أساس هاتين الصورتين وضع خطته .

وكانت النتيجة التي تمخض عنها هذا العمل منظرًا كاملاً فخماً رائعاً ، يكاد يحيل أكثر المتشككين عناداً إلى رجل مؤمن بأسرار الدين . وقد رسم في قمة العقد خطوطاً متشعبة تتقارب حتى تجتمع إلى أعلى ، ويحيل معها إلى الناظر أن الصور العليا تنحني إلى الأمام ، أما في أسفل العتد فإن الخطوط المجتمعة في الطوار الرخاى تكسب الصورة عمقاً . وفي القمة يرى الله الأب - في صورة إبراهيم الوقور الرحيم - يمسك الكرة الأرضية بإحدى يديه ، ويبارك المنظر باليد الأخرى : ويجلس الابن أسفل منه ، عرياناً إلى وسطه ، كأنه في قوقعة ، وإلى يمينه مريم خاشعة متعبدة ، وإلى يساره المعمدان وهو لا يزال ممسكاً ببعض الراعى يتوجها الصليب ، وأسفل منه يمامة تمثل الروح القدس وهو الشخص الثالث من الثالث المقدس ، فكأنك ترى في هذه الصورة كل شيء . وجلس على سحابة زغبية حول المسيح المنقذ اثنا عشر شخصاً عظيماً من ورد ذكرهم في العهد القديم أو التاريخ المسيحي : آدم في صورة رجل رياضي كأشخاص ميكل أنجيلو ، يكاد يكون عارياً من الثياب ؛ وإبراهيم ؛ وصورة فخمة لموسى ، وفي يده ألواح الشريعة ؛ وداود ويهوذا مكابوس ؛ وبطرس ، وبولس ، والقديس يوحنا يكتب إنجيله ؛ ويوحنا الأكبر ، والقديس اسطفانوس ، والقديس لورنس ، وشخصان آخران لا تعرف هويتهم على وجه التحقيق ، وبين هؤلاء جميعاً وفي السحب يقفز ملائكة من مخناني الطيتمات والأصناف يدخلون في هذه السحب ويخرجون ، ومنهم من

يدورون في الهواء على أجنحة الأغاني . ويفرق هذا الجمع السهاوى ويضمه ملكان . الحشد الأرضى الأسفل منه بمسكان بالإنجيل ، ومسعدة (*) تحتوى على القربان المقدس ، وتجتمع حول هذا المشهد طائفة مختلفة من رجال الدين لتبحث المشاكل اللاهوتية : وتضم هذه الطائفة القديس جيروم ، ومعه ترجمته اللاتينية للإنجيل وأسده ؛ والقديس أوغسطين على كتابه صريته القم ؛ والقديس أمبروز في ثيابه الأسقفية ، والبابا أنكليطس Anacletus والبابا إنوسنت الثالث ؛ والفلاسفة أكويناس وبنافنتوا ، ودنزا سكوتس ، ودانتى العنيد ، متوجاً بما يشبه الشوك ؛ والراهب أنجياكو الظريف ؛ وسقرولا المغضب (وتمثل صورته انتقاماً آخر ليوليان من الإسكندر السادس) ؛ وأخيراً نجد في ركن من الصورة برامنتى صديق رفائيل وحاميهم أصلع الوأس دميم الحلقة . وقد وصل الفنان الشاب في جميع هذه الصور البشرية إلى درجة مدهشة من الانفرادية ، جعلت كل وجه من وجوههم ترجمة لصاحبه لا يرى العقل ما يمنعه من قبولها ؛ وخلع على كثيرين منهم كرامة فوق الكرامة الآدمية تسمو بالصورة كلها وبالموضوع كله وتكسبه جلالاً ونبلاً . وأكبر الظن أننا لا نجد في كل ما رسم قبل ذلك الوقت صورة نجحت في تمثيل ملحمة عظمة العقيدة المسيحية كما نجحت في تمثيلها هذه الصورة ؛

ولكن هل يستطيع هذا الشاب نفسه ، وهو الآن في الثامنة والعشرين من عمره ، أن يمثل - بهذه العظمة ذاتها - الدور الذى يضطلع به العلم والفلسفة بين الآدميين ؟ إننا لا نجد دليلاً على أن رفائيل كان واسع القراءة والاطلاع على الكتب ؛ لقد كان يتحدث بفرشاته ، ويستمتع بعينه ، ويعيش في عالم من الأشكال والألوان ليس للألفاظ فيه إلا شأن حقير ، إلا إذا عبرت عنها الأعمال ذات الخطر التى يقوم بها الرجال والنساء .

(*) وعاء كنسى يرفع فيه القربان المقدس . (المترجم)

وما من شك في أنه قد أعد نفسه لهذا العمل بالقراءة السريعة ، وبالانغماس في كتابات أفلاطون ودیوجین لیرتیوس ، ومارسیلیو فئشپنو Marsilio Ficino ، وبالحديث القليل غير ذی الخطر مع العلماء ، وذلك لكي يسمو في ذلك الوقت إلى فكرته العليا فيصور مدرسة أئمة - المشتعلة على نحو خمسين صورة لخص فيها قروناً غنية بالتفكير اليوناني جمعها كلها في لحظة خالدة تحت عقد ذی لوحات غابرة ، في رواق معمد وثني ضخم . وهناك على الجدار وفي مواجهة صورة تأليه الفلسفة مباشرة التي تحتويها صورة الجول نرى تمجيد الفلسفة : نجد أفلاطون ذا الجبهة الشبيهة بجبهة الإله جویتر ، والعينين الغائرتين ، وشعر الرأس واللحية الأبيض الطويل المرسل ، يرفع إصبعه إلى أعلى مشيراً بها إلى مكانته الكاملة ؛ ونرى أرسطو يسير هادئاً ساكناً بجواره وهو أصغر منه بثلاثين عاماً ، وسياً مبهجاً ، يمد يده وراحته إلى أسفل ، كأنه يريد أن ينزل بمثالية أستاذه العليا فيرجعها إلى الأرض وإلى حدود الممكنات ، وترى سقراط يعد فقط نقاشه على أصابعه ، وألقبيادس المسلح بصفي إليه وهو بادى الحب ، وفيثاغورس يحاول أن يحصر في جداول متولفة متوافقة موسيقى الأكوان ، وسيدة حسناء قد تكون أسبازيا ؛ وهو قليطس يكتب ألغازاً إلفيزية Ephesian ، وديوجین وقد رقد عارياً في غير مبالة على الدرج الرخامية ؛ وأرخميدس يرسم أشكالاً هندسية على لوح من الاردواز ليعلم أربعة غلمان مكبين على للدرس وبطليموس الفلكي وزرادشت يتبادلان كرات سماوية ؛ وغلماً إلى اليسار يهرول في اهتمام شديد متأبطاً كتباً ، وهو بلا شك يبحث عن يكتب له ذكرياته ، وصيياً مجداً جالساً في أحد الأركان بدون مذكرات ، وترى إلى اليسار فيدريجو مانتوا ابن إزبلا ، ومدلل يوليوس ، يطل بنصف عين وترى كذلك برامنتي مرة أخرى ؛ ثم نرى رفائيل نفسه متواضعاً مختفياً لا يكاد يرى ، وقد طر الآن شاربه . وهناك غير هؤلاء كثيرون

فترك للعلماء ممن يتسع وقته للنقاش والجدل أن يتناقشوا في حقيقة أشخاصهم ، وكل ما نقوله هنا أن مجتمعتنا من الحكماء مثل هذا المجتمع لم تضمه من قبل صورة من الصور ، بل لعل أحدا لم يفكر قط في أن تضمه ، وأكثر من هذا أن هذه الصورة ليس فيها كلمة واحدة عن الاتحاد ، ولا فيلسوف واحد ممن حرق بسبب آرائه ؛ بل إن هذا المسيحي الشاب الذي كان يتمتع بحماية بابا أكبر من أن يشغل نفسه بالفروق بين خطأ وآخر ، قد جمع فجأة بين كل أولئك الوثنيين ، وصورهم بأنخلاقهم وإدراك عجيب وعطف كبير ، ووضعهم حيث يستطيع علماء الدين أن يروههم ويتبادلوا الأخطاء معهم ، وحيث يستطيع البابا ، خلال الفترات التي بين كل وثيقة وأخرى . أن يتدبر سبر التعاون بين أفكار البشر ونشأتها . وتمثل هذه الصورة هي وصورة العمل المثل الأعلى لتفكير النهضة - تمثل عهد الوثنية القديم والدين المسيحي يعيشان معاً مؤتلفين منسجمين في حجرة واحدة . وإذا نظر الإنسان إلى هذه اللوحات المتنافسة في تفكيرها وتأليفها ، وفنها رأى فيها ذروة فن التصوير الأوربي التي لم يرق أحد إليها حتى يومنا هذا .

بقيت بعد ذلك حجرة ثالثة ، أصغر من الحجرتين السابقتين تدخلها نافذة يلبو معها أن وحدة الموضوع في الصورة التي ترسم عليها مستحيلة . ولهذا كان من الاختيار الرائع الموفق أن يمثل على سطح هذا الجدار الشعر والموسيقى . وهكذا خفف من ثقل الحجرة المثقلة باللاهوت والفلسفة وأضنى عليها كثيراً من بهجة والألاء المستمد من عالم الخيال المطرب المنسق ، بحيث تستطيع الألحان اللطيفة أن ترسل نغماتها الصامتة خلال القرون في أرجاء تلك الحجرة التي تصدر منها أحكام بالحياة أو الموت لا تقبل نقضاً . وفي مظلّم فرناسوس Parnassus هذا نرى أبلو جالساً تحت أشجار الغار على قمة الجبل المقدس يستمد من كمانه الكبير « ترانيم خالية من النغم » ؛ وإلى جانبه إحدى ربّات الشعر متكأة في رشاقة وراحة ،

تكشف عن صدرها الجميل إلى القديسين والحكماء المصورين على الجدران المجاورة ؛ ونرى هومر ينشد أشعاره السداسية الأوتاد في نشوة المكفوفين ؛ وترى دانتى ينظر في صرامة لا تقبل مسائلة أو مهادنة إلى هذه الزمرة الطيبة من الشعراء والظرفاء ، وترى سافو ، وهى أبجل من أن تكون لزبية Lesbian ، تضرب على قيثارتها ، وفرجيل وهوراس ، وأوفيد ، وتيبيلوس ، وغيرهم من المغنين الذين اختبروا ليمثلوا عصوراً متعاقبة ، تراهم يختلطون مع بترارك ، وبوكاتشو ؛ وأريستو ، وسنداسارو وغيرهم من شعراء إيطاليا الأحدث منهم عهداً والأقل منهم شأناً . وهكذا يوحى الفنان الشاب بأن « الحياة إذا خلت من الموسيقى كانت خطأ من الأخطاء » (٢١) ، وأن نغمات الشعر ، وخیالاته قد ترفع الآدميين إلى درجات لا تقل سموها عن درجات الحكمة القصيرة النظر ، واللاهوت وما فيه من وقاحة .

وعلى الجدار الرابع الذى تخترقه أيضاً نافذة كرم رفايل مكانة القانون فى الحضارة . فقد صور فى مشكاً صورياً تمثل الفطنة ، والقوة ، والاعتدال ؛ وصور على أحد جانبي النافذة القانون المدنى فى صورة الإمبراطور جستينيان

ينشر مجموعات القوانين ، وعلى جانبها الآخر القانون الكنسى فى صورة البابا جريجورى العاشر ينشر المراسيم البابوية . وأراد هنا أن يتملق سيده المحقق الغاضب فصور جريجورى فى صورة يوليوس ، وكانت هذه أيضاً صورة قوية ذات روعة . ورسم الفنان فى دوائر السقف المزخرف ، وأشكاله السداسية ومستطيلاته ، آيات صغيرة من آياته الفنية مثل حكم سليمان وأشكالاً رمزية تمثل اللاهوت والفلسفة ، وفقه القانون ، وعلم الهيئة ، والشعر . وهذه الصور وأمثالها من النقوش على الأصداء وبعض المدليات التى تركها سووما تحت زخرفة مجرعة النوفيات .

وأفرغ رفايل فى هذا العمل كل ما كان له من جهد ، ولم يبلغ بعد

قط ما بلغه فيه من مستوى رفيع ممتاز ، ولهذا فإنه حين بدأ في عام ١٥١١ يزخرف الحجرة الثانية التي تسمى الآن هجرة إليودورو باسم أهم صورة فيها ، بدا أن الإلهام التصوري للبابا والفنان قد فقد قوته وناره . ولم يكن من السهل أن ينتظر من يوليوس أن يخصص جناحه كله لتمجيد الاتحاد بين الثقافة الرومانية واليونانية القديمة من جهة والدين المسيحي من جهة أخرى ؛ وكان من الطبيعي وقتئذ أن يخصص عدداً قليلاً من الحجرات لتخليد ذكريات من الكتب المقدسة وقصة المسيحية . ولعله أراد أن يرمز إلى ما يتوقعه من طرد الفرنسيين من إيطاليا ، فاختر لإحدى نواحي الحجرة الوصف الحي الواضح الموجود في كتاب المكابيين الثاني والذي يقول إن هليودورس وجماعته الوثنيين حاولوا اختلاس كنوز معبد أورشليم (١٨٦ ق . م) فهجم عليهم ثلاثة من الملائكة المحاربين . ونرى في هذه الصورة الكاهن الأكبر أنياس Onias راکعاً عند المذبح أمام خلفية معمارية من العمدة العظيمة ، واللوحات الغائرة ، يطلب العون من الله . وإلى اليمين ملاك راکب شديد الغضب يدوس القائد السارق ، ويتقدم منقذان سماويان غيره ليهاجما الكافر الساقط ، الذي تتناثر على الأرض بقوده المسروقة . وإلى اليسار يجلس يوليوس الثاني في جلال هادئ يرقب طرد الغزاة ، ويحتقر الفنان بوضعه هذا الدقة التاريخية احتقاراً لا يسمعنا معه إلا أن نشهد له بالسمو في التفكير . ويختلط عند قدميه جماعة من النساء اليهوديات برفائيل (وهو الآن رجل ملتج وقور) وبصديقيه مركنتونيو رايمندي Morcantonia Raymondi الحنار ، وچيوفني دي فلياري Giovanni di Folari أحد أمناء البابا . ولا يرتفع هذا المظلم إلى الدرجة التي يرتفع إليها مظلم الجبرل أو مدرسة أئمة فقد خصص كله تخصصاً واضحاً لا خفاء فيه لتمجيد جبر واحد من الأحبار وموضوع واحد سريع الزوال ، مضحياً في ذلك بالوحدة في التأليف ، ولكنه مع ذلك آية فنية بلا ريب ، تنبض بالأعمال ، ذات فخامة معمارية ، ويكاد ينافس ميكل

أنجيلو في إظهار التشريح العضلي وقت الغضب .

وصور رفائيل على جدار آخر قداس بلسينا Bolsena . فقد حدث حوالى عام ١٢٦٣ أن ارتاع قسيس بوهيمى من بلسينا (القريبة من أرفيتو) ، كان يرتاب في أن الخبز المقدس يتحول حقاً إلى جسد المسيح ودمه ، إذ رأى قطعاً من الدم تنضح من الخبز الذى كرسه نوأ في القداس . وأراد البابا إربان الرابع أن يخلد هذه المعجزة فأمر ببناء كتلراثية في أرفيتو ، كما أمر بأن يحتفل في كل عام بعيد الجسد الطاهر . ورسم رفائيل هذا المنظر رسماً رائعاً عظيماً ، ترى فيه نظرات القس المرتابة في الخبز المقدس ينضح منه الدم ، والقندلفت الذى خلفه يدهش من هذا المنظر ؛ وفي أحد الجوانب نساء وأطفال وفي الجانب الآخر الحرس السويسرى ، وهؤلاء يعجزون عن رؤية المعجزة ، فلا يتحركون . ويبدو عجزهم عن هذا التحرك واضحاً لا خفاء فيه . ويحديق الكردنلان رباريو واسكندر Schinner وغيرهما من رجال الكنيسة في هذا المنظر إحدافاً تمتزج فيه الدهشة بالرعب . وفي الجهة المقابلة للمذبح يرى يوليوس الثانى راكعاً على مركع تحت عليه صور مضحكة عجيبة يتطلع في مهابة وهدوء ، كأنه قد عرف طوال الوقت أن الخبز المقدس سيسيل منه الدم . وإذا نظرنا إلى هذه الصورة من الناحية الفنية حكمنا أنها من أحسن مظاهرات الجبر : فقد وزع رفائيل أشخاصه بمهارة حول النافذة التى في الجدار وفوقها ؛ رصورهم بثبات في الخطوط وعناية في التنفيذ ، وخلع على أجسادهم وثيابهم جدة في العمق وقوة في التلوين . وتمثل صورة يوليوس الراكع البابا نفسه في آخر سنة من حياته . ومع أنه لا يزال هو المحارب القوى الصارم ، وملك الملوك الفخور ، فإنك تراه رجلاً أنهكه الكاح والجهد والكفاح تلوح عليه سمات الموت واضحة .

وأخرج رفائيل وهو يقوم بهذه الأعمال الكبرى عدة صور السيدات ذات روح خليقة بالخلود ، منها صورة العذراء ذات الناج التى يعود فيها إلى

طرازه التقي المتواضع ، ومنها *Madonna della Casa Alba* أي « سيدة البيت الأبيض » — وهي دراسة طريقة في ألوان قرنفلية ، وخضراء ، وذهبية ، خطوطها كبيرة مناسبة كخطوط عرافات ميكل أنجيلو . وقد ابتاع أندرو ملن Andrew Mellon هذه الصورة من حكومات السكشيت بمبلغ ٤٠٠ر ١٦٦ر ١٠٠ دولار . وصورة *Madonna di Foligno* المحفوظة في الفاتيكان هي صورة عذراء جميلة وطفها فوق السحاب ، يشير إليها المعلمدان المصفر الوجه ، ويقدم لها القديس جيروم البدين واهب هذه الصورة : سجنسندوده كنتي سيد فولينو ورومة . ويرقى رفاثيل في هذه الصورة إلى مجد جديد في الألوان الزاهية متأثراً في ذلك بنفوذ سبستيانو دل پيمبو Sebastiano del Piombo الفنان البندقي . و*Madonna della Pesce* أي « سيدة السمك » (المحفوظة في برادو) جميلة في جميع أجزائها : في وجه العذراء ومزاجها ، وفي الطفل — الذي لم تسم على صورته صورة غيرها من رسم رفاثيل ، وفي صورة طوبيت الشاب يقدم لمريم السمك الذي ردت صورته قوة البصر لأبيه ، وفي ثوب الملاك الذي يقوده ، وفي صورة رأس الأب القديس جيروم . وتضارع هذه الصورة من حيث التأليف ، واللون ، والضوء صورة *Madonna Sestini* نفسها .

وأخيراً نقوله في هذا المجال أن رفاثيل قد ارتقى بالتصوير الملون هذه الفترة إلى مستوى لم يرق إليه أحد غيره فيما بعد إلا تيشيان . لقد كانت الصورة الملونة من نتاج عصر النهضة المميزة له ، وهي صورة أخرى من تحرر الفرد تحرراً نبيلاً عزيزاً على النفس في هذا العصر عصر المباهاة والتفاخر . وليست الصور التي رسمها رفاثيل كثيرة العدد ولكنها كلها ترقى إلى أعلى مستوى في الفن ، ومن أجملها كلها صورة *بندو التوفيتي* . ومنذا الذي تستطيع نفسه أن تحدّثه بأن هذا الشاب الظريف ، البقظ رغم ظرفه ،

الصحيح الجسم النافذ البصر ، الجميل جمال الفتيات ، لم يكن شاعراً بل كان مصرفياً ، وأنه كان من أنصار الفنانين من رفايل إلى تشيليني ؟ وكان هذا الشاب حين صوره رفايل في الثانية والعشرين من عمره ؛ ثم وافته المنية في رومة عام ١٥٥٦ بعد أن بذل جهداً نبيلاً مضنياً جر عليه الوبال ليحفظ به استقلال سيينا من اعتداء فلورنس . وكانت هذه هي الفترة التي أخرج فيها رفايل أعظم صوره على الإطلاق وهي صورة يوليوس المحفوظة في معرض أفيزي (حوالي ١٥١٢) ؛ ولسنا نستطيع أن نقول بـ هذه هي الصورة الأصلية التي خرجت من يد رفايل ، فقد تكون نسخة أخرى منها الصورة احتفظ بها في الرسم ، وقد رسم النسخة العجيبة الفذة من هذه الصورة في قصر بتي منافسه الكبير المصور تيشيان . أما الصورة الأصلية فلم يعرف مصيرها بعد .

وتوفي يوليوس نفسه قبل أن تتم صور *مجرة اليودورا* ولم يكن يدري هل يستطيع إتمام المشروع العظيم مشروع نقش الحجرات الأربع . ولكن كيف يستطيع بابا مثل ليو العاشر المفتن بالشعر والفن افتتاناً لا يقل في عمقه عن افتتانه بالدين ، أن يتردد في إتمام المشروع ؟ وقد قدر للشباب الآتي من اريينو أن يجد في ليو أو في صديق له ، وهكذا عرف صاحب عبقرية السعادة الحية تحت رعاية بابا سعيد أسعد سني حياته .

الفصل الرابع

ميكل أنجيلو

١ - الشاب : ١٤٧٥ - ١٥٠٥

تركنا إلى آخر هذا الباب الحديث عن أحب المصورين والمثالين إلى يوليوس ، أى عن الرجل الذى يضارعه فى مزاجه ورهبته ، وفى قوة روحه وعمقها ، أعظم الرجال فى السجلات البشرية وأكثرهم حزناً .

كان والد ميكل أنجيلو هو لدوفيكو دى ليوناردو بوناروتى سيمولى Lodovico di Lionardo Buonerroti Simoni محافظ باده كبرىسى Caprese الصغيرة القائمة على الطريق الذى يصل فلورنس بأردسو ، وكان لدوفيكو يقول إنه يمت بصلة القرابة البعيدة إلى كونتات كانوسا Canossa وقد تفضل واحد منهم فاعترف بهذه الصلة ؛ وكان ابنه ميكل أو ميخائيل أو ميكائيل يفخر على الدوام بأن فى عروقه لثرا أو لثرين من دم النبلاء ، غير أن البحث الذى لا يرحم قد أثبت أنه مخطئ فى هذا (٢٢) .

وكان مولده فى كبرىسى فى السادس من شهر مارس عام ١٤٧٥ ، وقد سمي باسم أحد الملائكة الكبار كما سمي رفائيل باسم واحد منهم ؛ وكلن ميكل أنجيلو رابع إخوة أربعة ؛ ورث بالقرب من محجر للرخام عند ستنيانو Settignano فتفنن بذلك تراب النحت منذ مولده . وقد قال فيما بعد إنه رضع الأزاميل والمطارق مع لبن مرضعته (٢٣) . ثم انتقلت الأسرة إلى فلورنس حين بلغت سنه ستة أشهر ، وفى هذه البلدة تلقى من التعليم ما مكنته فيما بعد من أن يكتب شعراً إيطالياً جيداً . ولم يتعلم اللغة اللاتينية ، ولم يخضع كل الخضوع لسحر العهود القديمة كما خضع له كثير

من الفنانين في ذلك العصر ، بل كان ذا نزعة عبرية لا رومانية أو يونانية قديمة ؛ وكان في رومة پروتستنياً أكثر مما كان كاثوليكيًا .

وكان يفضل الرسم عن الكتابة - التي هي - في رأيه لإفساد للتصوير . وأسف والده لهذه النزعة ، ولكنه خضع لها آخر الأمر ، ووضع ميكائيل وهو في سن الثالثة عشرة ليتلمذ على دمنيكو غير لندايو *Dominico Ghirlandaio* ، أشهر المصورين في فلورنس وقتئذ . وكان العقد يلزم الشاب بأن يقيم مع دمنيكو ثلاث سنين « ليتعلم فن التصوير » ؛ على أن يتقاضى أجراً قدره ستة فلورينات في السنة الأولى . وثمانية في الثانية ، وعشرة في الثالثة ، بالإضافة إلى الطعام والمسكن فيما نظن . وكان الشاب يكمل ما يناله من التعاليم على يدى غير لندايو بأن يظل على الدوام مفتوح العينين أثناء تجواله في فلورنس فيرى في كل شىء تحفة فنية . وفي ذلك يقول صديقه كنديفي *Condivi* : « فكان لذلك يتردد على سوق السمك ، يدرس فيها أشكال زعانفه وظلال ألوانه ، وألوان عيونه وكل ما يتصل به ؛ وقد أبرز كل هذه التفاصيل بأعظم ما يكون من الجهد والمهارة في صوره » (٢٤) .

ولم يكد يتم العام مع غرلندايو حتى اجتمعت عليه الفترة والمصادفة فحولته إلى التحت ؛ وكان له ، كما كان لكثيرين غيره من طلاب الفن ، أن يدخل بكامل حريته الحدائق التي وضع فيها آل ميديتشى مجموعات النماثيل والعارة القديمة . وما من شك في أنه قد نسخ صوراً من بعض الألواح الرخامية باهتمام خاص وحلق خاص ، وشاهد ذلك أنه لما أراد فلورنسر أن ينشئ في فلورنس مدرسة للنحت طاب إلى غرلندايو أن يبعث إليه بعض الطلاب الذين تلوح عليهم نخايل النجابة في هذه الناحية ، فبعث إليه دمنيكو بفرانشيسكو جاناشي *Francesco Ganacci* وميكل أنجيلو يوناروتى . وتردد والد الغلام في السماح له بالانتقال من

فن إلى فن ، وكان يخشى أن ينتهى الأمر بولده إلى أن يكلف بقطع الحجارة ؛ والحق أن ميكائيل قد استخدم بعض الوقت فى القيام بهذا العمل ، فكان يقطع الحجارة للمكتبة اللورنتيه . ولكن الظلام ما لبث أن أخذ ينحت التماثيل . والعالم كله يعرف قصة تمثال فاون(*) الرخامى . وكيف نحت ميكائيل قطعة من الرخام عثر عليها مصادفة فى صورة فاون عجوز ، وكيف لاحظ لورندسو وهو مار بهذا التمثال أن هذا الشيخ الطاعن فى السن يندر أن تكون أسنانه كاملة كما تظهر فى التمثال ، فما كان من ميكائيل إلا أن أصلح هذا الخطأ بضربة واحدة نخلع بها سنا من فكه الأعلى . وسر لورندسو من إنتاج الغلام وحسن استعداده ، فأخذه إلى بيته وعامله فيه معاملة الآباء للأبناء . وظل الفنان الشاب عامين كاملين (١٤٩٠ - ١٤٩٢) يقيم فى قصر آل ميديتشى ، يطعم دائماً على مائدة واحدة مع لورندسو ، وبولتيان ، وبيكو ، وفشينو ، وبلشى Pulci ، ويستمتع إلى أكثر الأحاديث استتارة فى السياسة والأدب ، والفلسفة ، والفن . ونخصه لورندسو بحجرة طيبة ، ووظف له خمس دوقات (٦٢ر٥٠ ؟ دولار أمريكى) كل شهر لمصروفه الخاص . وكان كل ما يخرج به ميكائيل من التحف الفنية يبقى ملكاً خاصاً به يتصرف فيه كما يشاء .

ولولا بينرو ترجياتو Pienro Torrigiano لكانت هذه السنوات التى قضها ميكائيل فى قصر آل ميديتشى سنى نشأة سعيدة فى حياة الشاب . وتفصيل ذلك أن بينروساء فى يوم من الأيام استهزاء ميكائيل « فما كان منى » (كما قال هو نفسه لسلينى) « إلا أن قبضت يدى ولكته لكمة على أنفه أحسست معها أن عظمه وغضروفه قد تحطما تحت عظام أصابعى كأنهما يسمطان هش ، وسيحمل أثر ضربتى هذه إلى قبره » (٢٥) . وهكذا كان ؛ فقد كان أنف ميكل أنجيلو يبدو طوال الأعوام الأربعة والسبعين

(*) Fano رب الحراج عند الرومان الأقدمين . (المترجم)

التالية . مكسور العينين ولم يكن هذا الحادث ليرقق من طبعه .
وفي هذه السنين نفسها كان سفنرولا يذيع تعاليمه المتزمتة النارية التي
يدعو فيها إلى الإصلاح . وكثيراً ما كان ميكائيل يذهب ليستمع إليه ،
ولم ينس قط تلك المواقف أو الرجفة الباردة التي كانت تسرى في دمه الغض
حين تنفذ في سكون الكتدرائية الغاصة بالمستمعين صبيحة رئيس الدبر الغاضبة
معلنة ما سوف يحل بإيطاليا الفاسدة من دمار . وبقي شيء من روح سفنرولا
بعد موته في نفس ميكل أنجيلو : بقي منها الرعب مما يراه جوله من
فساد خلقي ، وكراهيته الشديدة للاستبداد ، وشعوره الحزين من سوء
المصير : واجتمعت هذه الذكريات والمخاوف فكانت من العوامل التي شكلت
أخلاقه ووجهت منحنى وفرشاته ، فكان وهو مستلق على ظهره في نقش
معبد يذكر سفنرولا ؛ وكان وهو يرسم صورة يوم الحساب يستعيد حياً في
خياله ، ويقذف بإرعاد الراهب وإبراقه خلال القرون .

وتوفي لورندسو في عام ١٤٩٢ وعاد ميكل بعد موته إلى بيت أبيه ،
وواصل عمله في النحت والتصوير ، وأضاف وقتئذ تجربة عجيبة إلى ما تلقاه
من تعليم . ذلك أن رئيس مستشفى سانتو اسبريتو (الروح القدس)
Santo Spirito سمح له أن يشرح الأجسام البشرية في حجرة خاصة ،
وبلغت الأجسام التي شرحها من الكثرة حداً غثيت منه معدته ، فظلت بعض
الوقت لا تستيق فيها طعاماً أو شرباً . ولكنه تعلم التشريح ولاحت له فرصة
سخيفة يظهر فيها علمه هذا حين طلب إليه بيرو ده ميديتشي أن يصنع من
الثلج تمثال رجل في بهو القصر ؛ فأجابه ميكل إلى ما طلب ، وأقنعه
بيرو بأن يعود إلى الحياة في قصر ميديتشي (يناير سنة ١٤٩٤) .

وحدث في عام ١٤٩٤ أن هرب ميكل أنجيلو في إحدى نوبات اضطرابه .
الكثيرة إلى بولونيا مخترقاً ثلوج جبال الأبنين . ونقول إحدى القصص
إن صديقاً له رأى فيما يرى النائم تحذيراً له من سقوط بينرو ؛ ولكن

لعل فطنته هي التي نهته مقدماً إلى هذا المصير ؛ ومهما يكن من شيء فإن فلورنس قد لا تكون في هذه الحال مكاناً أميناً لشخص له ما ليكل أنجيلو من الخطوة عند المدينتين . وأخذ وهو في بولونيا يعنى عناية كبيرة بدراسة النقوش التي صورها ياقويو دلا كوبرتشيا على واجهة سان پترونيو ؛ ثم طالب إليه أن يتم قبر القديس دمنيك ، فنحت له ملط راكلها رشيماً ؛ وأندره في ذلك الوقت مثالو بولونيا المجتمعون في منظمة لهم بأنه ، وهو الشخص الأجنبي المتطفل ، إذا ظل ينزع العمل من أيديهم ، فإنهم سيتخلصون منه بإحدى الأساليب الكثيرة التي ابتكرها عصر النهضة . وكان مشغولاً في ذلك الوقت قد أصبح صاحب السيادة في فلورنس ، وامتلاً جو المدينة بالفضيلة وبالحدوث عن الفضيلة . وعاد إليها ميكل في عام ١٤٩٥ .

ووجد فيها نصيراً له في شخص لورندسو دى پيرفرانتشيسكو Lorenzo di Pierfrancesco الذي ينتمى إلى فرع آخر من أسرة ميديتشى .

وقد نحت له تمثال كيوبير السأم الذي كان له تاريخ عجيب . فقد اقترح عليه لورندسو أن يعالج سطح التمثال حتى يبدو كأنه تمثال قديم ، ووافق ميكل على هذا الاقتراح ؛ ثم بعث لورندسو بالتمثال إلى رومة حيث بيع لأحد التجار بثلاثين دوقه وباعه هذا التاجر إلى روفالو ريارو Raffaello Riario كاردنال ده سان جورجيو بمائتي دوقه . وبيع بعدئذ إلى سيزارى بورجيا ، وباعه سيزارى إلى جويدو بللو صاحب أرينى ؛ واسترده سيزارى حين استولى على تلك المدينة ، وأرسله إلى إزبلا دست ، ووصفته إزبلا هذه بأنه « لا نظير له بين جميع أعمال الأيام الحديثة » (٣٦) . ولستة نحرف شيئاً من تاريخه بعدئذ .

وقد صعب على ميكل ، رغم كفاياته المتعددة ، أن يكسب قوته بأعماله الفنية في مدينة يكاد عدد الفنانين فيها يبلغ عدد سكانها . ودعاه أحد عمال ريارو إلى رومة ، وأكد له أن الكاردنال سيعهد إليه بعمل ، وأن

رومة مليئة بأنصار الفن أصحاب الثراء . وهكذا انتقل ميكيل أنجيو في عام ١٤٩٦ إلى العاصمة وهو مفعم القلب بالأمل ، وخص بمكان في بيت الكردنال . وتبين أن رياريو غسير كريم ؛ غير أن ياقوڤو حالو Iacopo Gallo . أحد رجال المصارف عهد إلى ميخائيل أن ينحت تمثالا لباخوس وآخر لكيويد . يوجد أولهما الآن في متحف برجياو Bargello بعاورنس والآخر بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن . وتمثال باخوس صورة غير ممتعة لإله الخمر الشاب وهو في حالة سكر شديد ؛ ورأس التمثال صغير لا يتناسب مع جسمه ، كما يليق بالسكير ، ولكن الجسم متقن التصوير أملس زاعم نعومة خشوية . وكويويد شاب جائم أكثر شبهاً بالشاب الرياضي منه بإله الحب ، ولعل ميكيل أنجيلو لم يسمه بهذا الاسم الذي لا يتفق مع صورته ؛ وإذا نظرنا إليه من حيث هو تحفة من تحف النحت حكمنا من فورنا بأنه تحفة ممتازة . فقد ميز فيه الفنان من البداية أو فيما يكاد يكون من البداية ، عمله بأن أظهر صاحب التمثال في لحظة من لحظات العمل وفي موقف من مواقفه . ذلك أنه لم يكن كاليونان ينضل في الفن مواقف الراحة وعدم العمل ، لا نستثنى من ذلك إلا تمثال پييتا Pietà ؛ ومثل هذا يقال — مع الاستثناء ذاته — عن حب اليونان للتعميم أى تصوير أنماط عامة ؛ أما ميكيل أنجيلو فكان يوتر تصوير الفرد خيالياً في فكرته ، واقعياً في دقائقه ، ولم يقلد الأشكال القديمة ، إلا في ملابسها ؛ أما بقية أعماله فكانت خاصة به ، فهي لم تكن مولداً جديداً للصور القديمة ، بل كانت خلقاً فذاً وإبداعاً على غير مثال يحتذيه .

وأعظم ما أخرج به الفنان أثناء مقامه الأول في رومة هو تمثال پييتا وهو الآن أحد الآيات الفنية التي تفتخر بها كنيسة القديس بطرس . وقد وقع العقد الذي أنشئ بمقتضاه هذا التمثال الكردنال چان ده فليير Jean de Villier سفير فرنسا في البلاط البابوى (١٤٩٨) . وكان الأجر

المتفق عليه هو ٤٥٠ دوقه (٨٥٢٥ ؟ دولاراً) ؛ والزمن الذى يتم فيه سنة واحدة ، وأضاف المصرى صديق ميكائيل ضمانه الكريم :

أتعهد ، أنا ياقوبو جالو ، بشرى إلى السيد المبعجل ، أن المدعو ميكيل أنجيلوس يتم العمل المذكور فى خلال عام واحد ، وأنه سيكون أجمل عمل فى الرخام تستطيع أن تتباهى به رومة فى هذه الأيام ، وأن أستاذاً أياً كان فى أيامنا هذه لن يستطيع أن يصنع خيراً منه . . . وأتعهد كذلك بشرى إلى المدعو ميكيل أنجيلو أن الكردنال المبعجل سيؤدى الأجر حسب المواد المدونة بالمدينة فى هذا العقد (٢٧) .

ولما لنجد بعض العيوب فى هذه المجموعة الرائعة من صورة الأم العذراء التى تمسك بابنها الميت فى حجرها : فالثياب فيها تبدو كثيرة مسرفة فى الكثرة ، ورأس العذراء صغير لا يتناسب مع جسمها ، وهى تمد يدها اليمنى فى حركة لا تناسبها ، ووجهها وجه امرأة فى مقتبل العمر لا يشك أحد فى أنها أصغر من ابنها . ويقول كنديشى Condivi إن ميكيل أنجيلو رد على هذه الشكوى الأخيرة بقوله :

ألا تعلمون أن النساء الطاهرات يحتفظن بنضرتهم أكثر مما يحتفظ بها غير الطاهرات منهن ؟ وأكثر ما يكون هذا فى حالة عذراء لم تنسرب إلى قلبها فى يوم من الأيام شهوة يمكن أن يتأثر بها الجسم . بل إنى لأذهب إلى أبعد من هذا فأجازف بالاعتقاد بأن نضرة الشباب الطاهرة ، التى احتفظت بها لأسباب طبيعية ، ربما فاضت عليها لتقع العالم بأن الأم عذراء طاهرة إلى غير أجل محدود (٢٨) :

ذلك خيال يبعث فى النفس السرور خلق بأن تغفر لصاحبه ما فيه من بعد عن المعقول ، ولا يلبث معه الإنسان أن يألف الوجه الطريف ، الذى لا تمزقه الآلام ، والهادئ فى حزن صاحبه وألمها ، كما بألف صورة الأم المستسلمة لإرادة الله ، والتى يعزبها عن آلامه أن تحتفظ .

فى تلك اللحظات الأخيرة بالجسم العزيز الذى طهر من جراحه ، وتحرر من عوامل حتمه ؛ يرقد فى حجر المرأة التى حملت به ولم يفارقه جماله حتى فى ساعة موته . وإنا لنجد فى هذه المجموعة الساذجة كل ما تتضمنه الحياة من لباب ، ومأس ، وفداء ! نجد فيها سلسلة التوالد التى تتخلد بها المرأة حياة الجنس البشرى ، ونجد فيها الموت الذى لا مفر منه والذى هو العقاب المحتوم لكل مولد ؛ والحب الذى يسمو بالفناء بما يخلعه عليه من رحمة وحنان ويتحدى كل موت بمولد جديد . ولقد كان فرانسس الأول محقاً حين قال إن هذه الصورة هى أجمل ما أبدعه ميكىل أنجيلو على الإطلاق (٢٩) ؛ ذلك أنها لم يخرج أحسن منها فان آخر فى تاريخ النحت كانه ، ولربما جاز لنا أن نستثنى من هذا التعميم الفنان اليونانى غير المعروف الذى نحت تمثال وصتر المحفوظ فى المتحف البريطانى .

ولم يكن نجاح بيينا سيباً فى شهره ميكىل أنجيلو فحسب - وهى شهرة خليقة بأن يستمتع بها كل إنسان ، بل إن هذا النجاح قد در عليه المال الكثير الذى كان أهله على استعداد لأن يستمتعوا معه به . ذلك أن أباه قد فقد بسبب سقوط آل ميديتشى المنصب الصغير الذى حباه به لورندسو الأكبر ؛ وكان الأخ الأكبر ليكائيل قد دخل أحد الأديرة ، وأما الأخوان الصغيران فكانا فتيين سرفين ، وبذلك أصبح ميكائيل عماد تلك الأسرة ؛ وكان يشكو من هذه الحال التى فرضتها عليه الظروف ولكنه كان كريماً سخياً مع أسرته .

وأكبر الظن أن اضطراب أحوال أسرته المالية هو الذى دعاه إلى فلورنس ، فعاد إليها فى عام ١٥٠١ حيث عهد إليه فى شهر أغسطس من ذاك العام نفيه بعمل فذ . ذلك أن مجلس الأعمال (الأوبراى Operai) فى كاتدرائية المدينة كان يملك كتلة كبيرة من رخام كراراً ارتفاعها ثلاث عشرة قدماً ونصف قدم ، ولكنها ظلت مطروحة على الأرض لا يأنفع بها

مائة عام كاملة لعدم انتظام شكلها . وسأل المجلس ميكل أنجيلو هل يستطيع نحت تمثال منها ، فوافق على أن يحاول ذلك ، ووقع معه مجلس الكنيسة ونقابة الصوف عقد القيام بالعمل وقد جاء فيه :

إن الأستاذ الجليل ميكل أنجيلو . . . قد اختير لكى يصور ، ولينجز ويتم إلى حد الكمال تمثالاً لرجل وهو التمثال المسمى الضخم *Il gigante* والذي يبلغ ارتفاعه تسع أذرع . . . على أن يتم العمل في خلال عامين يبدأ من شهر سبتمبر ، وأن يتقاضى مرتباً قدره ستة فلورينات في الشهر ، وأن يمدد المجلس بما يحتاجه لإنجاز هذا العمل ، والخشب وما إلى ذلك ؛ وحين يتم صنع التمثال يقدر مستشارو النقابة ومجلس العمل . . . هل يستحق مكافأة أكثر ، على أن يترك هذا لذهمتهم (٣٠) .

وظل التمثال يكادح في هذه المادة القاسية عامين ونصف عام ، حتى انتزع منها بجده وبطولته تمثال داود، وانتفع بكل إصبع من ارتفاعها ، ثم دعا مجلس العمل في ٢٥ يناير سنة ١٥٠٤ مجلساً من كبار رجال الفن في فلورنس ليقرروا أين يوضع التمثال الضخم كما كانوا يسمون تمثال داود. وكان المجتمعون هم كوزيمور وزبلي *Cosimo Roselli* ، وساندرو بيتشلي ، وليوناردو دافنتشي ، وجليانو وأنطونيو داسينجلو ، وفليينولي ، ودافد غرلندايو ، وپروجينو ، وچيوفني پفيرو *Giovanni Piffero* (والد تشليني) ، وپيرو دى كوزيمو . ولم يتفق هؤلاء على المكان ، فتركوا ذلك آخر الأمر لميكل أنجيلو ، فطلب أن يقام التمثال على رصيف قصر قيتشيو ؛ ووافق مجلس السيادة على هذا الطلب ؛ ولكن عملية نقل التمثال الضخم من المصنع القريب من الكنيسة إلى القصر تطالبت أن يعمل في ذلك أربعين رجلاً أربعة أيام ؛ وكان لابد من تعلية أحد المداخل بهدم جدار فوقه كى يمر فيه التمثال ، وتطلب رفعه في مكانه واحداً وعشرين يوماً أخرى . وظل

قائماً في فراغ مدخل النصر المكشوف معرضاً للجو ، وعيشت الأطفال ،
وللثورة عليه ، ونقول للثورة لأنه كان بمعنى ما إعلاناً صريحاً للتقدمية
المتطرفة ، ورزاً للجمهورية الفخورة التي عادت إلى الوجود . وتهديلاً
صارماً للمغتصبين . ولما عاد آل ميديتشي إلى السلطة في عام ١٥١٣ لم يمسه
بسوء ؛ ولكن لما قامت الثورة التي انتزعت السلطة منهم مرة أخرى (١٥٢٧)
سقط عليه مقعد أتقي من إحدى نوافذ القصر فحطم ذراع التمثال اليمنى .
وجمع فرانشيسكو سيلفياتي Francesco Salviati و جيورجيو قاساري ،
وكاوا وقتئذ غلامين في السادسة عشرة من العمر ، القطع المخطمة واحتفظا بها ،
وضم عضو آخر من أسرة ميديتشي جاء فيما بعد ، وهو الدوق كوزيمو ،
هذه الأجزاء وثبتها في مكانها . وفي عام ١٨٧٣ نقل داود بعد جهده جهيد ،
إلى مجمع الفنون الجميلة Accademia della Bell Arti بعد أن أثر فيه
الجو فشوه معالمه . ولا يزال فيها يحتل مكان الشرف ، وهو أحب التماثيل
إلى الشعب في فلورنس .

لقد كان هذا العمل من أعمال البطولة ، وهو بهذا الوصف لا يمكن
أن نوفيه حقه من الثناء ، تغلب فيه الفنان بحلق كبير على الصعاب الآلية ،
وإذا ما حكم عليه الإنسان من ناحية الحاسة الجمالية استطاع أن يجد فيه
بعض العيوب ! فاليد اليمنى أكبر مما ينبغي أن تكون ، والعنق مفرط في
الطول ، والساق اليسرى أطول في جزئها التي تحت الركبة مما يليق ، والإلية
اليسرى ليست متضخمة بالقدر الذي يجب أن تتضخم به أية إلية سليمة ،
وكان بيروساندريني رئيس الجمهورية يرى أن الأنف مفرط في الضخامة ،
ويروى قاساري قصة - لعلمها مختلفة - تقول إن ميكيل أنجيلو صعد سلماً
وهو يمدك في بدء بعض التراب ، وتظاهر بأنه سينحت قطعة من أنف
التمثال ، وأن يتركه سليماً كما كان ، ثم استطاع تراب الرخام من يده أمام
رئيس الجمهورية ، وأن الرئيس آمان بعدئذ أن التمثال قد صلب . والأثر

العام الذى يحدثه التمثال فيمن ينظر إليه يقطع لسان كل نافذة ! فالهيكل الرائع ، الذى لم يضمخه ميكل أنجيلو كما ضمخ التماثيل التى نحتها لأبطاله المتأخرين ، وبنية الجسم المصقول ، والمعارف القوية الرقيقة رغم هذه القوة ، والخياشيم المتوترة من الاهتياج ، والتجهم المنبعث من الغضب ، ومظهر العزيمة المشوبة بشيء من الحياة حين يواجه الشاب جالوت الرهيب ويستعد للملء مقلعه والقذف به - كل هذه أشياء تجعل داود أشهر تماثيل في العالم كله إذا استثنينا من ذلك تماثلاً واحداً لاغير (*) . ويرى فاسارى أنه « يفوق كل ما عداه من التماثيل قديمها وحديثها لاتبينية كانت أو يونانية » (٣١) .

وأدت لجنة الكنيسة إلى ميكل أنجيلو أربعائة فلورين أجراً لتمثال داود وإذا أدخلنا في اعتبارنا انخفاض النقد فيما بين عامى ١٤٠٠ و ١٥٠٠ جاز لنا أن نقدر هذا المبلغ بما يقرب من ٥٠٠٠ دولار حسب قيمة النقد في عام ١٩٥٢ . ويبدو أن هذا أجر قليل لعمل دام ثلاثين شهراً ، ونحن نظن أنه قام في خلال تلك المدة بمهام أخرى . والحق أن المجلس ونقابة الحرف قد استخدماه أثناء عمله في نحت تمثال داود في نحت تماثيل أخرى ، يبلغ ارتفاع الواحد منها ست أقدام ونصف قدم ، للرسل الاثنى عشر كى توصع في الكتدرائية ، وقد أمهل اثنتى عشرة سنة للقيام بهذا العمل ، واتفق على أن يؤدى له فلوريتان كل شهر ، وأن يبني له بيت يقيم فيه من غير أجر . ولم يبق من هذه التماثيل الأخيرة إلا تمثال الرسول متى الذى لا يظهر إلا نصفه من الكتلة الحجرية كأنه تمثال من عمل رودين Rodin . وإذا نظرنا إليه في مجمع فلونسي العلمى أدركنا أحسن من ذى قبل ما كان يعنيه ميكل أنجيلو حين عرف النحت بأنه الفن « الذى يعمل بقوة الانتزاع » ،

(n) يجب أن يكرر هذا الاستثناء هو تمثال درمس اركه تاير . ولكن أجب اطرار الناس يرون أنه تمثال الحرية المعتم في مينا نيويورك .

وما قاله مرة أخرى في إحدى قصائده : « إن مجرد إزالة السطح من الحجر الصلب الخشن يكفي لأن يخلق منه صورة تزيد وضوحاً كلما واصل الإنسان النحت (٣٢) » وكثيراً ما كان يقول عن نفسه إنه يبحث عن الصورة المخبوءة في الحجر ، فزِيل سطحه كأنه يسعى للعثور على عامل منجم دفن تحت أنقاض الصخور الهاوية .

ونحت حوالي عام ١٥٠٥ لتاجر فلمنكي تمثال العذراء الجالسة في كنيسة نتردام في بروج . وقد أنقضى على هذا التمثال ثناء جم ، ولكنه من أضعف ما أخرجه يد الفنان - فالثياب بسيطة تخلع على صاحبها الوقار ، ورأس الطفل لا يتناسب مطلقاً مع جسمه ، ووجه العذراء عابس حزين ، كأنها تحس أن كل ما وقع خطأ في خطأ . وأعجب من هذا شكل العذراء في الصورة الملونة التي رسمت (١٥٠٥) لأنجيلو دوني Angelo Doni . والحق أن ميكال أنجيلو لم يكن يعنى كثيراً بالجمال ، بل كان يهتم بالأجسام : ويفضل منها أجسام الذكور ، وكان يمثلها في بعض الأحيان بكل ما في أشكالها الظاهرة من عيوب ، وفي أحيان أخرى لكي تنقل إلى الناس عظة أو فكرة ، ولكنه قلما يهدف إلى التقاط الجمال وحبه في الحجر الخالد . وهو في هذه الصورة الأخيرة يسعى إلى الذوق السليم بوضعه صفاءً من الشبان العارين على سور خلف العذراء . ولسنا نقصد بهذا أنه كان يتحول إلى النزعة الوثنية ، فهو يبدو مسيحياً مخلصاً بل قل منزماً ، غير أن افتنانه بالجسم الآدمي في هذه الصورة قد تغلب على تقواه كما تغلب عليها في صورة يوم الحساب . كذلك كان شديد الاهتمام بتسريح الأجسام في أوضاعها المختلفة ، وفيما يحدث للأعضاء ، والأطراف ، والميكل والعصلات حين يغير الجسم وضعه . فهنا مثلاً تنكس العذراء إلى الخلف ، لتتاقى ، فيما يبدو . الطفل يسلم لها القديس يوسف من وراء كتفها . والتمثال منحوت تحتاً ممتازاً ولكن الصورة لا حياة فيها ، وتكاد تكون تصويراً حالياً من اللون ؛ وكثيراً

ما قال ميكيل أنجيلو إن التصوير لم يكن هو العمل الذى يبرع فيه .

لهذا نعتقد أنه لم يغبط قط حين دعاه سدرينى (١٥٠٤) ليرسم له نقشاً جدارياً فى ردهة المجلس الكبير بقصر فيتشيو ، بينما كان يبغيضه ليوناردو دافنشى ينقش جداراً مقابلاً له . وكان ميكيل أنجيلو يبغيض ليوناردو لأسباب كثيرة - لآدابه الأرستقراطية ، وثيابه الغالية التى يقباهى بها ، وأتباعه من الشبان الحسان ، ولعله كان يبغيضه كذلك لأنه كان حتى ذلك الوقت أكثر منه نجاحاً وأوسع شهرة فى التصوير . ولم يكن أنجيلو واثقاً من أنه وهو المثال يستطيع أن ينافس ليوناردو فى التصوير ، ولكنه قرر أن يجرب حظه وكان ذلك دليلاً على الشجاعة . وكانت الصورة التخطيطية الأولى عبارة عن لوحة من الورق على قماش من النيل مساحتها ٢٨٨ قدماً مربعة . ولم يكد يتقدم بضع خطوات فى هذه الصورة التخطيطية حتى تلقى دعوة من رومة : ذلك أن يوليوس كان فى حاجة إلى أحسن المثالىين فى إيطاليا كلها . واستشاط مجلس السيادة غضباً ، ولكنه سمح لميكيل أنجياو بأن يلبى الدعوة . ولعله هو لم يأسف لترك القلم والفرشاة ، والعودة إلى العمل المجهد الذى كان يحبه .

٢ - ميكيل أنجيلو ويوليوس الثانى : ١٥٠٥ - ١٥١٣

وما من شك فى أنه قد أدرك لأول وهلة أنه سيكون من أشقى الناس مع يوليوس ، فقد كانا متماثلين إلى حد كبير . فكلاهما متقلب المزاج ذو أهواء ؛ والبابا متغطرس حاد الطبع والفنان مكتئب فخور . وكلاهما جبار فى روحه وهدفه ، لا يقر لغيره بالتفوق عليه ولا يقبل التراضى أو النزول عن بعض مطالبه يتنقل من هدف عظيم إلى آخر مثله ، ويطبع شخصيته على زمنه ويحدد وينشاط جنونى إلى حد خبل إلى الناس بعد وفاتهم أن إيطاليا قد خارت قواها فلم تبق لها جهود .

وسار يوليوس على السنة التي جرى عليها الكرادلة من زمن بعيد ، فأراد أن ينشئ لعظامه تابوتا يشهد بحجمه وفخامته بما كان له من عظمة ويخلدها للأجيال الطويلة من بعده . وكان ينظر بعين الحسد إلى القبر الجميل الذي فرغ أندريا سان سوفينو Andrea Sansovino توأ من نحته للكردينال أسكانيو اسفوردسا Ascanio Sforza في كنيسة سان ماريا دل بوبولو . وعرض ميكيل أنجيلو أن يكون هذا القبر أثراً ضخماً طوله سبع وعشرون قدماً وعرضه ثمان عشرة ، يزينه أربعون تمثالا : يرمز بعضها إلى الولايات البابوية التي استردت ، ويمثل بعضها فنون التصوير . والهندسة المعمارية ، والنحت ، والشعر ، والفلسفة ، واللاهوت - أسرها كلها البابا القوي الذي لا تقف قوة ما أمام سلطانه ؛ وترمز تماثيل أخرى إلى أسلافه الكبار كموسى مثلاً ، ومنها اثنان يمثلان ملكين ، أحدهما يبكي لانتقال يوليوس من الأرض ، والآخر يتسم لدخوله الجنة ، وفي أعلى هذا النصب الضخم ينشأ تابوت جميل تحفظ فيه رفات البابا المتوفى . واقترح أن تنقش على أوجه هذا النصب نقوش من البرنز تروى جلائل أعمال البابا في الحرب ، والحكم ، والفن . وكان في النية إقامة هذا كله عند منبر كنيسة القديس بطرس ، وكان هذا المشروع يتطلب كثيراً من أطنان الرخام ، وآلاف المدقات ، ويحتاج نحته إلى عدد كبير من السنين تقتطع من حياة المثال . ووافق يوليوس على المشروع ، وأعطى أنجيلو آلى دوقه لبيتناح بها الرخام المطلوب ، وأرسله إلى كرارا وأمره أن يختار منها أحسن عروق الرخام ، وأبصر ميكيل وهو فيها تلا مطلا على البحر ، وفكر في أن ينحت هذا التل نفسه في صورة إنسان ضخم ، إذا أضيء من أعلاه كان منارة يهتدى بها الملاحون من بعيد ؛ غير أن قبر يوليوس أعاده مرة أخرى إلى رومة . ولما وصلها ما اشتراه من الرخام ، ووضع في كومة كبيرة بالقرب من مسكه بجوار كنيسة القديس بطرس ، عجب الناس

من ضخامة حجمه وكثرة ما ابتاع به من المال ، وابتاع لذلك قلب يوليوس :
لكن المسرحية استحالت إلى مأساة . ذلك أن برامنتي كان يحتاج
إلى المال ليشيد به كنيسة القديس بطرس الجديدة ، فكان ينظر شزرا إلى
هذا المشروع الضخم ؛ هذا إلى أنه كان يخشى أن يحل ميكل أنجيلو محله
فيصبح فنان البابا المقرب إليه ، ولهذا استعان بنفوذته على تحويل أموال
البابا وحماسته إلى غير طريق الضريح المقترح . وكان يوليوس نفسه يعد
العدة لشن الحرب على پروچيا وبولونيا (١٥٠٦) ؛ ورأى أن الحرب
تتطلب الكثير من المال ، وأن الضريح يمكن أن يؤجل حتى تسود السلم .
ولم يكن أنجيلو في هذه الأثناء قد أعطى مرتبه ، وكان قد أنفق في شراء
الرخام كل ما أعطاه يوليوس من المال مقدما ، وأنفق من ماله الخاص
ما يحتاجه لتأثيث البيت الذي أعده له البابا . ولهذا ذهب إلى قصر الفاتيكان
في يوم سبت الثور من عام ١٥٠٦ يطلب المال ، فقبل له إن عليه أن
يعود في يوم الاثنين التالي ؛ فلما عاد قيل له أن يجيء في يوم الثلاثاء .
وأجيب هذا الجواب نفسه في أيام الثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ،
ولما جاء يوم الجمعة طرد وقيل له في غلظة إن البابا لا يجب أن يراه .
فعاد إلى منزله وكتب إلى يوليوس الرسالة التالية :

أيها الأب المبارك : لقد طردت اليوم من القصر بناء على أوامرك ؛
ومن أجل هذا أبلغك أنك إذا احتجت إلى بعد هذه الساعة فعليك أن
تطلبني في غير رومة (٢٣) .

وأمر ميكل أن يباع ما اشتراه من أثاث لبيته . وركب الجواد إلى
فلورنس ، فلما بلغ بيجنسى Poggibonsi لحقه بعض الرسل ، ومعهم
رسالة من البابا يأمره فيها أن يعود من فوره إلى رومة . وإذا كان لنا أن
نصدق روايته هو (ولقد كان رجلا غاية في الصدق والأمانة) فإنه رد على
البابا بقوله إنه لن يعود إلا إذا وافق البابا على أن يوفى بالشروط التي تمناها
عليها لبناء الضريح ، ثم واصل السير إلى فلورنس .

وهناك عاد إلى العمل في الرسم التمهيدى لمعركة بيزا . ولم يجتز لموضوعه حرباً حتمية بالذات ، ولكنه اختار لها اللحظة التى دعى فيها فجاءة الجند الذين كانوا يصبحون في نهر الآرنو إلى القتال . ذلك بأن ميكل لم يكن يهتم بالمعارك ، بل كان يرغب أن يدرس ويصور أجسام الرجال العارية في كل وضع من الأوضاع ؛ وقد أتاح له هذا الموضوع فرصته المرتقبة ؛ فقد أظهر رجالا يخرجون من النهر ، وآخرين يخرجون لأخذ أسلحتهم ، وغيرهم يحاولون أن يلبسوا جوارب في سوقهم المبتلة ؛ وبعضهم يقفزون أو يركبون الخيل ، وبعضهم يعدلون دروعهم ، وآخرين يجرون إلى المعركة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم : ولم يكن في هذه الصورة منظر طبيعي خلى ، لأن ميكل أنجيلو لم يكن يعنى قط بالمناظر الطبيعية ، أو بشيء مما في الطبيعة عدا الأجسام البشرية . ولما أتم الصورة التمهيدية وضعها إلى جانب صورة ليوناردو في جهو البابا في كنيسة سانتا ماريا نوڤلا ، وظلت الصورتان المتنافستان فيها مدرسة يتلقى منها دروساً في التصوير مائة من الفنانين أمثال أندريا دل سارتو ، وألنسو بيرجوتى *Alonso Berruguete* ورفائيل ، وياقوبو سان سونوفينو *Iacopo San Sanovino* ، وڤرينو دل ڤاجا *Perino del Vaga* ، ومائة غيرهم . ونقل تشيلنى *Cellini* صورة ميكل أنجيلو التمهيدية حوالى عام ١٥١٣ ، ووصفها وصف الشاب المتحمس بقوله إنها : « بلغت من الروعة درجة ليس في كل ما بقى من آيات الفن القديم أو الحديث ما يرقى إلى الذروة التى سمت إليها . ولم يصل ميكل أنجيلو القمى أيام تقواه فيما بعد إلى نصف الذروة من القوة التى وصل إليها في هذه الصورة ، وإن كان قد أتم معبد سستينى العظيم » (٣٤) .

تلك مبالغة لا نقول بها نحن . إن الصورة نفسها لم ترسم الرسم النهائى ، والرسم التمهيدى قد فقد ، ولم يبق من النسخ التى نقلت عنه إلا قطع صغيرة . وبينما كان ميكل أنجيلو يعمل في الرسم التمهيدى بعث البابا يوليوس بالرسالة

تلو الرسالة إلى مجلس السيادة في فلورنس ، يأمره فيها بأن يعيده إلى رومة . وكان سدريني يحب الفنان ويخشى عليه إذا عاد إلى رومة ، فأخذ يحاور ويداور ؛ حتى إذا جاءت الرسالة الثالثة من البابا ، رجا أنجيلو أن يلي الأمر ، وقال إن عناده يعرض السلام بين فلورنس والبابا للخطر . وطلب أنجيلو أن يعطى ضماناً بسلامته بمضيه كرنال فلتييرا Volterra . وحدث في أثناء هذا الأخذ والرد أن استولى يوليوس على بولونيا (نوفمبر سنة ١٥٠٦) ؛ فلما تم له ذلك أرسل إلى فلورنس أمراً باتاً صريحاً يطلب فيه قدوم ميكل أنجيلو إلى بولونيا للقيام بعمل هام . وعبر ميكل مرة أخرى ثلوج الأبنين مسلحاً برسالة من سدريني إلى يوليوس يرجو فيها البابا « أن يظهر له حبه ، وأن يعامله بالحنسنى » . غير أن يوليوس قابله وهو عابس مقطب الوجه ، وأخرج من الحجرة أسقفا جرواً على أن يؤنب الفنان على عدم امتثاله أمر البابا ، وعفا عن أنجيلو بألفاظ خشنة غليظة ، وعهد إليه بمهمة تنفق مع ما جبل عليه البابا من الصفات فقال : « أريد منك أن تجعل تمثالاً ضخماً وأن تصبه من البرنز ، وأنا أريد أن أقيم على واجهة سان پترونيو » (٣٥) . وسر ميكل أن يعود إلى فن النحت ، وإن لم يكن واثقاً من قدرته على أن ينجح في صب تمثال لشخص جالس يبلغ ارتفاعه أربع عشرة قدماً . ونخص يوليوس هذا العمل بأربعة آلاف دوقية ، ولكن ميكل أبلغه فيما بعد أنه أنفق المبلغ جميعه على أربعة دوقات في شراء المواد اللازمة للعمل ، وبذلك لم ينل جزاء له على كدحه سنتين كاملتين في بولونيا سوى هذا الجزاء الضئيل وكان العمل شاقاً مؤثلاً لا يقل في ذلك عن الجهد الذى وصفه تشيليني والذى تطلبه صب تمثال برسيوس وإقامته في شرفة لكنيسة ؛ فقد كتب هذا المثال إلى أخيه بونروتو Buonarroto يقول : « إنى أكاد ليلاً ونهاراً ؛ وإذا اضطرت إلى أن أبدأ العمل كله من جديد ، فليست أظن أن حياتى تطول حتى أتمه » (٣٦) . وأقيم التمثال في مكانه فوق المدخل الرئيسى للكنيسة في شهر فبراير من عام ١٥٠٨ ؛ وعاد ميكل إلى فلورنس في شهر مارس ،

وأكبر الظن أنه كان يتمنى ألا يرى يوليوس مرة أخرى . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت صهر التمثال كما سبق القول لتصنع منه مدافع .

ولم يكده يفرغ من العمل حتى استدعاه البابا فرجع إلى رومة ؛ وسأله أن يعرف أن يوليوس لا يرغب في نحت الضريح العظيم ، بل يطلب إليه أن ينقش معبد سكستس الرابع . وتردد ميكل في أن يواجه مشكأتي المنظور والتناسب والتصغير في نقش سقف يعلو فوق الأرض ثمانى أقدام وستين قدماً ؛ فاحتج مرة أخرى بأنه مثال لا مصور ، وأوصى باستخدام رفاثيل في هذا العمل لأنه أجدر به منه . ولكن البابا لم يأبه لوحيته . وأخذ يوليوس يأمره ويتملقه ، ويتعهد بأن يؤجره ثلاثة آلاف دوقه (٣٧٥٠٠ ؟ دولار) . وكان ميكل يخشى البابا ويحتاج إلى المال ؛ فقبل المهمة الشاقة التي لا توافق هواه ، وهو كاره يردد قوله : « ليست هذه صناعتى » . وبعث إلى فلورنس يطلب خمسة مساعدين مدربين على الرسم ، وأنزل المحلات السمجة التي نصبها برامنتي ، وأقام محلاته مكانها ، وبدأ العمل ، فأخذ يقيس ويرسم السقف الذى تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربعة ، ووضع الخطة العامة ورسم الصور التمهيدية لكل جزء من أجزائه ، بما في ذلك البندريلات ؛ والحلى البارزة والهلالية . وقدر عدد الأشكال كلها بثلاثمائة وثلاثة وأربعين شكلاً ؛ وقام بدراسات أولية كثيرة بعضها دراسات للأحياء . ولما تم إعداد الرسم التمهيدى الأخير حمل فوق المحلات ووضع في السقف ؛ متجهماً بوجهه إلى الخارج ملتصقاً بالسطح الذى طلى حديثاً بالحص ، كل جزء منه في المكان المقابل له . ثم حفرت خطوط في الحص من فوق الرسوم ، ورفعت بعدئذ الصور التمهيدية ، وبدأ يلون الرسوم .

وظل أنجيلو يعمل في سقف سستينى أكثر من أربع سنين - من مايو ١٥٠٨ إلى أكتوبر ١٥١٢ . ولم يكن العمل يدوم بلا انقطاع ، فقد كانت تتخلله فترات تطول وتقصّر يقف فيها ؛ حال ذلك الفترة التي ذهب-

فيها إلى بولونيا ليلج على يوليوس في طلب المال : ولم يكن يعمل وحده ،
فقد كان له معاونون يطحنون الألوان ، ويعدون الجص ، ولعل منهم من
كان يرسم أو يلون بعض الأشكال الصغيرة . وإن بعض المظلمات لتدل على
أنها من صنع أيد أقل من يديه حذفا . ولكن الفنانين الخمسة الذين استدعاهم
إلى رومة سرعان ما فصلوا من العمل ؛ ذلك أن طراز أنجيلو في التفكير ،
والتخطيط ، والتلوين ، كان يختلف عن طرازهم وعن تقاليد فلورنس
اختلافاً رأى معه أنهم يعطلونه أكثر مما يعينونه . هذا إلى أنه لم يكن يعرف
كيف يقوم بالعمل مع غيره من الأعوان ، وكان من أسباب سلواه ، وهو
فوق المحالات أنه بمفرده يستطيع أن يفكر وهو هادئ وإن يكن وهو متألم ،
ويستطيع أن يحقق بشخصه قول ليوناردو : « إن كنت وحدك كان لك
السلطان الكامل على نفسك » . وزاد يوليوس الصعاب الفنية بصعاب خلقها
بنفسه ، وذلك بتعجله لإتمام العمل العظيم وإظهاره للناس . في وسع القارئ
أن يتصور البابا الشيخ ، يصعد الإطار الواهن الذي نصب لبوذي إلى مكان
الفنان ، ثم يبدي له إعجابه ويسأله في كل مرة : « متى ينتهي العمل ؟ »
فيكون الجواب درساً في الشرف والاستقامة : سينتهي حين أفعل كل
ما أعتقد أن الفن يتطلبه ويرتضيه » (٣٧) فرد عليه يوليوس مغضباً :
« أتريد أن أقذف بك من فوق هذه المحالة ؟ » (٣٨) . وخضع أنجيلو فيما
بعد لإلحاح البابا واستعجاله فأنزله المحالات قبل أن يصفى العمل الصقل
الأخير . وفكر يوليوس وقتئذ في أن من الواجب أن يضاف قليل من الذهب
إلى هذا المكان أو ذاك ، ولكن الفنان المتعب أقنعه بأن الزخارف الذهبية
لا تليق بصور الأنبياء أو الرسل . ولما نزل ميكل عن المحالة آخر مرة ،
كان منهوك القوى هزيل الجسم ، شيخاً قبل الأوان . وتقول إحدى القصص
إن عينيه لم تكونا تقويان على مواجهة ضوء الشمس لطول ما اعتادت من
الضوء الضعيف في المعبد (٣٩) ، كما تقول قصة أخرى إن القراءة وهو ناظر

إلى أعلى كانت وقتئذ أبسر له من أن يقرأ وهو يمسك الصفحة تحت عينيه (٤٠). وكانت الخطة الأولى التي أرادها يوليوس لنقش السقف لا تزيد على تصوير طائفة من الرسل ، ولكن ميكل أنجيلو حمله على أن يقبل بدلها خطة أوسع وأكثر نبلا . ونتيجة لهذا قسم ميكل القبة المحدبة إلى ما يزيد على مائة لوحة بأن صور فيها عمداً تتخللها حلقات ، وزاد من خداع الأبعاد الثلاثة بإضافة صور لشبان أقوياء يرمقون الأطناف أو يجلسون على تيجان العمدة . وصور أنجيلو على اللوحات الكبرى الممتدة على طول قبة السقف حوادث من سفر التكوين : عملية الخلق الأولى تفصل بين الضوء والظلمة ؛ والشمس ، والقمر ، والكواكب تنشأ وتتكون بأمر الخالق الأعظم الذي صور على هيئة إنسان مهيب جليل ، صارم الوجه ، قوى الجسم ، ذى لحية وأثواب تهفّف في الهواء . وفي لوحة أخرى تمتد اليد اليمنى لله العلى الأعلى ، وهو هنا أبجل شكلا وملامح مما هو في الصور السابقة ، ليخلق آدم ، ويمسك بيده اليسرى ملكاً جميل الصورة . وتعد هذه اللوحة أروع ما صورته ميكل أنجيلو . وفي صورة ثالثة يُخرج الله ، وهو الآن رب أكبر في السن تبدو عاياه سمات الأبوة ، حواء من ضلع آدم ، وبأكل آدم وحواء فاكهة الشجرة المحرمة ، ويطردان من الجنة . ويُعد نوح وأبناؤه قرباناً يقربانه لله ويعلو الطوفان ؛ ويحتفل نوح بعيد من الأعياد يُشرب فيه كثير من الخمر . وكل ما في هذه اللوحات مأخوذ من كتاب العهد القديم ، وكله من القصص العبري ، ذلك أن ميكل أنجيلو من أتباع الأنبياء الذين يندرون بآخرة العالم ، وليس من المبشرين الذين ينشرون إنجيل الحب .

وصور أنجيلو في البندريلات التي فوق كل عقد من اثنين من العقود صوراً رائعة لدانيال ، وإشعيا ، وزكريا ، ويوثيل ، وحزقيال ، وإرميا ، ويونان . أما البندريلات الأخرى فقد هصور فيها المتنبآت للوثنيات

اللاتى يعتقد الناس أنهم بشرن بالمسيح : سيديل اللوية الرشيقة ، تمسك في يدها كتابا مفتوحا يتحدث عن المستقبل ؛ وسيديل القومائية المكتتبة ، الشقية ، القوية ، والمتنبئة الفارسية ، العالمة ، ومتنبئة دلفى ، ومتنبئة أرثريا ؛ تلك هى الرسوم الملونة التى تضارع تماثيل فيدياس ؛ فالحق أن الإنسان ليظن أن هذه كلها تماثيل لا صوراً ملونة ؛ وأن ميكل أنجيلو قد جند للعمل فى فن غريب عليه ، فأحاله إلى الفن الذى يوائمه . واحتفظ الفنان فى المثلث الكبير الذى فى نهاية السقف ، وفى مثلثين آخرين فى النهاية الأخرى بموضوعات العهد القديم ، بالحية الفظة فى البيداء ، وبانتصار دودا على جالوت ، وبشنى هامان ، وبقتل يهوديت لهلوفرينس . ثم صور أنجيلو فى آخر الأمر مناظر : يوضح فيها نسب مريم والمسيح ، وكأنه فعلى هذا بعد أن عاد مرة ثانية إلى التفكير يريد أن يذعن لأمر غير راغب فيه .

وليس فى هذه الصور كلها صورة تضارع فى فكرتها ، أو رسمها ، أو تلوينها ، أو طريقتها الفنية صورة مدرسة أئمة لرفائيل ؛ ولكنها إذا نظر إليها فى مجموعها كانت أعظم عمل قام به أى فنان فى تاريخ التصوير كله . ذلك أن الأثر الكلى الناشئ من تكرار التفكير وشدة العناية يفوق كثيراً الأثر الذى ينطبع فى الذهن إذا ما نظر الإنسان إلى الحجرات . وفى صورة رفائيل نحس بالكمال الفنى الذى وفق فيه صاحبه كل التوفيق ، ونرى اجتماع التفكير الدينى والمسيحى فى وداعة ورقة ؛ أما فى صورة أنجيلو فلسنا ندرك فقط الدقة العظيمة فى مراعاة الأصول الفنية التطبيقية — المنظور ، وطول الأشكال وقصرها ، واختلاف المواقف والأوضاع اختلافًا يضارع سواه ؛ بل ندرك فوق هذا قوة العبقرية وأثرها فى نفوسنا ، العبقرية التى تكاد تبلغ من القدرة على الخلق ما تبلغه صورة الله جل شأنه ، التى تهب عليها الريح وهى ترفع آدم عن ظهر الأرض . وهنا أيضاً أطلق ميكل أنجيلو العنان لعاطفته المسيطرة عليه ، فجعل

موضوع فنه وهدفه الذى يبتغيه هو الجسم الأدمى ؛ وإن كان المكان الذى يعمل فيه هو مصلى البابوات ، ولقد كان ، كما كان اليرنان الأقدمون ، أقل عناية بالوجه وما ينطق به ، منه بالجسم كله مجتمعاً . وإنا لنجد فى سقف سيني نحو خمسين من الذكور العارين وعدداً قليلاً من النساء العاريات ؛ وليس فيه مناظر طبيعية ، ولا نباتاً إلا فى صورة خلق النبات ، ولا نرى فيه نقوشاً من الطراز العربى ؛ وفيه يصبح الجسم الأدمى ، كما هو فى مظلمات سنيوريلي فى أرفينو ، الوسيلة الوحيدة للزخرف كما هو الوسيلة الوحيدة لتمثيل المعانى والأفكار المجردة . وكان سنيوريلي المصور الوحيد ، كما كان ياقوپو دلا كويرتشيا Jacopo della Quercia المثال الوحيد ، الذى عنى ميكىل أنجيلو بالأخذ عنه والتعلم منه . وشاهد ذلك أن كل بقعة صغيرة فى السقف خلقت من تصميم الصورة العامة قد شغلت بصورة إنسان عار ، لا يعنى فيها بالجمال بقدر ما يعنى بالقوة والجسم الرياضى . وليس فى هذه الصور ما يوحى بالغريزة الجنسية ، بل الذى فيها هو الكشف الدائم عن الجسم الأدمى بوصفه أعلى ما يتجسم فيه النشاط ، والحياة نفسها . ولقد احتج بعض قوى النفوس الضعيفة الحائرة كثرة ما فى بيت الله من الأجسام العارية ، ولكننا لا نجد فى السجلات ما يدل على أن يوليوس اعترض عليها ؛ ذلك لأن البابا كان واسع الأفق فى تفكيره بقلوب ما كان واسعاً فى عدوانه ؛ وكان يدرك عظمة الفن حين تقع عليها عينه . ولعله كان يفهم أنه لم يخلد اسمه بالحروب التى انتصر فيها ، بل خلده بأن أطلق العنان للزعة القدسية ، القوية ، العجيبة ، التى كانت تضطرب فى نفس أنجيلو فاستطاعت أن تلهو فى قبة مصلى البابا .

ومات يوليوس بعد أربعة أشهر من إتمام نقوش سقف سيني ؛ وكان ميكىل أنجيلو وقتئذ يقرب من ذكرى مولده الثامن والثلاثين ؛ وكان قد حمل لواء المثالى الإيطالىين جميعهم بتمثالى داود وبديتا ، أما هذا

السقف فقد ضارع فن التصوير رفائيل أو بزه ؛ وكأنه لم يبق أمامه عالم
آخو يفتح له ؛ وما من شك في أن أحدا من الناس ، حتى هو نفسه ،
قاما كان يظن أنه سيعيش من الزمن أكثر من خمسين سنة أخرى ، وأن
أشهر صوره ، وأكثر تماثيله نضوجا ، لم تخرج إلى الوجود بعد . وقد
حزن لوفاة البابا العظيم ، ولم يكن يدرى هل يولع ليو بغريزته بالقن.
النييل كما كان يولع به يوليوس ؛ ولهذا أوى إلى مسكنه يترقب ماله في
ذمة المستقبل .

الباب الثامن عشر

ليو العاشر

١٥١٣ - ١٥٢١

الفصل الأول

الكردينال الغلام

إن البابا الذي خلع اسمه على عصر من أزهى العصور وأكثرها خلوداً في تاريخ رومة لبيدين بتاريخه الكنسي إلى ما كان لأبيه من دهاء سياسي. وخطط سياسية بارعة ، ذلك أن سكستس الرابع كاد يقضي على لورندسو ده ميديتشي ، وكان لورندسو هذا يرجو أن يعلو سلطان أسرته وأن يكون أبناءه وحفدته آمنين على أنفسهم ومراكزهم في فلورنس إذا كان أحد أبناء هذه الأسرة من بين أعضاء مجمع الكرادلة ، يشغل مكاناً في الدوائر الداخلية للكنيسة . ولذلك أخذ يعد ابنه الثاني جيوفني للمنصب الكنسي وكاد يفعل به هذا منذ مولده . ولما بلغ الغلام العاشرة من عمره (١٤٨٢) حاق شعر يافوخه (*) ، وما لبث أن نفج بمنصب ذات أجر من غير عمل ؛ فقد عين وصياً على بعض أملاك الكنيسة ، على أن يكون له الفائض من ريعها . وفي السنة الثامنة حين رئيساً لدير فون دوس Font Douce في فرنسا ، وفي سن التاسعة كانت له ريامة دير پاسنيانو Passignano ذات الإيراد الضخم ،

(*) كان هذا في طنوس الكنيسة التي تولى إدارته ، بعيداً للعين في المناصب الكنسية .

(المترجم)

وفي الحادية عشرة كان رئيساً لدبر مانتى كسينو ذى الذكريات التاريخية ؛ وقبل أن يختار جيوفنى للجلوس على عرش البابوية كان قد اجتمع له ستة عشر من هذه المناصب^(١) . وقد عين وهو فى سن الثامنة كبيراً للمؤمنين البابويين ، ثم عين كردنالا فى سن الرابعة عشرة^(*) .

وقد زود هذا الخبر بكل ما يتاح لأبناء الواسعى الثراء من ضروب التربية والتعليم ؛ فنشأ بين العلماء ، والشعراء ؛ ورجال الحكم ، والفلاسفة . وعين مارثيليو فتشينو Marcilio Ficino مريباً له ، وتعلم اللغة اليونانية على ديمتريوس كلكنديلس Demetrius Chalconbylese ، والفلسفة على برناردودا بينا Bernardo Bibbiena الذى أصبح فيما بعد أحد كرادلته . وأشرب ، مما فى قصر والده وما حوله من مجموعات فنية ومن حديث حول الفن ، حب الجمال الذى كاد يكون له ديناً حينما نضحت سنه . ولعله قد أخذ عن والده سخاءه العظيم وعدم مبالاته بالمال ، كما أخذ عنه حياته المرحلة ، التى تكاد تكون أبيقورية ، وهاتان الصفتان هما اللتان امتازت بهما حياته وهو كردنال وكذلك وهو بابا ، وكانت لهما آثار بعيدة المدى فى العالم المسيحى . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بالجامعة التى أنشأها والده فى پيزا ، وظل فيها ثلاث سنين يدرس الفلسفة واللاهوت ، والقانون الكندى والمبنى . ولما بلغ السادسة عشرة سمح له علناً بأن ينضم إلى مجمع الكرادلة فى رومة ؛ وقد بعثه إليه لورندسو (١٢ مارس من ١٤٩٢) مزوداً برسالة تعد من أكثر الرسائل طرافة فى التاريخ .

من واجبك ومن واجبنا جميعاً نحن الذين يهتمون بمصلحتك أن نعتقد أن الله قد حباننا بعنايته ؛ وليس ذلك لما أفاضه على بيتنا من النعم ومظاهر التبجيل والتكريم فحسب ، بل لأنه فضلاً عن هذا وأعظم منه قد أسبغ

(*) يجب أن نذكر أنه كان فى وسع الشخص أن يكون كردنالا دون أن يكون قسا ، وأن الكرادلة كانوا يختارون لمقدرتهم السياسية ؛ وصلاحهم لالصفاتهم الدينية .

علينا ، في شخصك أنت ، أعظم ما استمتعنا به الآن من عز وكرامة :
وهذه النعمة التي أنعمها علينا ، والتي هي في حد ذاتها من أجل النعم ،
لزيد من قدرها ما يصاحبها من الظروف ، وخاصة ما كان منها متصلاً
بشبابك وبمكانتنا نحن في العالم . ولهذا فإن أول ما أعرضه عليك ، هو أنه
ينبغي لك أن تسبح بحمد الله ، وأن تذكر على الدوام أن كل ما نالك من
خير ليس مرده ما تتصف به من فضائل ، أو فطنة ، أو حسن تدبير ،
بل إن مرده هو فضل الله عليك ، وهو دين لا تستطيع أن توفيه إلا بالقوى
والعفة ، وأن تجعل حياتك مثلاً يحتذى . وإن ما يفرضه عليك أداء هذا
كله من واجبات ليزداد ويعظم لأنك قد بانت عليك في سنك المبكرة
مخايل تدل على أن العالم سيحني منك هذه الثمار الطيبة متى نضج عقلك
وجسمك . ، فاعمل إذن على أن تخفف العبء الملقى على كرامتك المبكرة ،
بالإتزام بالنظام في حياتك ، وبمثابرتك على دراسة العلوم التي تؤهلك لمنصبك .
واشد ما سرنى إذ علمت أنك في خلال العام المنصرم ، قد أكثرت من
تناول العشاء الليلي ومن الاعتراف ، وأنت فعلت هذا من تلقاء نفسك .
ولست أعتقد أن ثمة طريقة ينال بها رضا الله خيراً من أن تعتاد أداء هذه
الواجبات وأمثالها . . .

ولني لأعلم حق العلم أنك ، وأنت تقيم الآن في رومة بوثة المظالم
والشرور جميعها ، ستزداد في وجهك الصعاب حين تحاول أن تأخذ نفسك
بالإتزام هذه النصائح . نعم إن تأثير القدوة الطيبة لا يزال منتشرأ قائماً
لم تدرس معاه ، ولكنك ستلتقي في أكبر الظن ، بأقوام يحاولون جهدهم
لإفساد خباياهم وإغراءك بارتكاب الإثم ؛ ذلك أنه ليس بخاف عليك أن
ما باغته من مكانة سامية في هذه السن المبكرة قد جر عليك حسد الحاسدين ؛
وأن الذين عجزوا عن أن يحولوا بينك وبين هذه المكانة السامية لن يدخروا
وسعاً في الحط منها وذلك لإغرائك على أن تأتي من الأعمال ما تفقد به تقدير

الشعب لك ، فيدفعونك بهذا إلى الهاوية التي تردوا هم فيها ، ولهم في شبابك ما يغيرهم ويؤكد لهم في ظنهم أنهم لاشك ناجحون فيما يحاولون . فحصن نفسك إذن للملاقاة هذه الصعاب بكل ما تستطيع من قوة العزيمة ، لأن الفضائل لا تزال في هذه الأيام ضعيفة الشأن بين إخوانك في مجمع الكرادلة . ولست أنكر بطبيعة الحال أن من بينهم رجالا صالحين ، أوتوا قسطاً كبيراً من العلم والمعرفة ، يضرّبون بحياتهم أحسن الأمثلة لغيرهم من الناس ، وأنا أوصيك بأن تتخذ هؤلاء قدوة لك ، وأن تسلك في حياتك مسالكهم ، فأنت إذا حدثت حذوهم وسرت على سيرتهم ، ازداد تقدير الناس لك وانتشر صيتك بقدر ما تميزك سنك ومكانتك عن غيرك من زملائك . بيد أني أنصحك بأن تباعد ما بينك وبين ملق المتملقين ؛ واحذر الخيلاء والمظاهر الباطلة في سلوكك وحديثك ؛ ولا تتصنع الزهد ، وحتى الجدل نفسه لا تبد مسرفاً فيه وأرجو أن تفهم في مستقبل الأيام معنى هذه النصيحة وتسير عليها سيراً يفوق كل ما أستطيع الإفصاح عنه .

على أنك لست بغافل عما للأخلاق التي ينبغي لك أن تتخلق بها من شأن عظيم ، لأنك تعلم حق العلم أن العالم المسيحي على بكرة أبيه سوف يزدهر ويعمه الرخاء إذا اتصف الكرادلة بما يجب أن يتصفوا به من أخلاق طيبة ؛ ذلك أنهم إن كانوا كذلك كان البابا حتماً من الصالحين في جميع الأوقات . وطمأنينة العالم المسيحي ، كما تعلم ، إنما تعتمد على وجود البابا الصالح . فاعمل إذن أن تكون بحيث إذا كان سائر الكرادلة مثلك ، كان لنا أن نرجو نيل هذه النعمة الشاملة . وليس من السهل أن أسدى لك نصائح مفصلة دقيقة تشرشد بها في سلوكك وحديثك ، ولهذا فحسبي أن أنصحك بأن تكون العبارات التي تستخدمها في حديثك مع الكرادلة وغيرهم من ذوي الدرجات العلى خالية من التشامخ ، بزينها تقديرك واحترامك لمن يحدثك . . . على أن من الخير لك في زيارتك هذه لرومة - وهي أولى

زيارتك لهذه المدينة ، أن تصغى إلى غيرك من الناس لا أن تكثر أنت من التحدث إليهم ...

واجعل عدتك وثيابك فى المناسبات الرسمية دون الدرجة الوسطى لا فوقها ، واعلم أن البيت الجميل ، والأسرة الحسنة التنظيم أفضل من الحاشية الكبيرة والمسكن الفخم ... وأن الحرير والجواهر لا تليق بمن هم فى مثل مركزك ، وإنك لتستطيع أن تظهر ذوقك بأحسن مما تظهره هذه الثياب والجواهر بأن تحصل على عدد قليل من الآثار القديمة الطريفة ، أو الكتب الجميلة الشكل ، وبأن يكون أتباعك من المتعلمين الحسنى التربية لا بالكثيرين . وادع غيرك إلى دارك أكثر مما تتلقى الدعوات إلى دور غيرك ، وإن كان عليك ألا تسرف فى هذه أو تلك . وليكن طعامك بسيطاً ، ومارس الرياضة البدنية بالقدر الكافى ، لأن من يلبسون الثياب التى تلبسها سرعان ما تصيبهم الأمراض إذا لم يعتنوا بأجسامهم أعظم العناية ... واعلم أن قلة الوثوق بالناس عن الحد الواجب نخر من الإصراف فى الثقة بهم . وثمة قاعدة ألفت إليها نظرك وهى لدى أفضل من كل ماعداها : استيقظ من النوم مبكراً ، فإن هذا الاستيقاظ المبكر لن يفيدك صحة فى الجسم فحسب ، بل لأنه سيمكنك فوق ذلك من أن تنظم أعمال اليوم وتنجزها ؛ وإذا كان مركزك يحتم عليك القيام بأعمال متعددة ، كأداة الصلوات والخدمات الدينية ؛ والدرس ، والاستماع إلى ذوى الحاجات وما إلى ذلك ، فإنك ستفيد من لهذه النصيحة أكبر فائدة . . . وسيطلب إليك فى أغلب الظن أن تتوسط لدى البابا فى ظروف معينة . ولكن عليك ألا تكثر من الإلحاف عليه ومضايقته ، لأن مزاجه يجعله أعظم ما يكون سخاء على أقل الناس إلحافاً عليه بطلباتهم ومطالبهم . إن عليك أن تراعى هذه النصيحة لئلا تغضبه ، وألا يفوتك أن تتحدث إليه فى بعض الأوقات فى موضوعات أحب إلى النفس من هذه الشفاعات ؛

وإذا كان لا بد لك أن تطلب إليه منة ، فاطلبها بالتواضع والخضوع للذين يسرانه ويوآثمان مزاجه . استودعك الله (٢) .

وتوفى لورندسو قبل أن يمضى بعد هذا الوقت شهر واحد ، ولم يكذ
چيوفنى يصل إلى « بؤرة الفساد والظلم » . حتى عجل بالعودة إلى فلورنس
ليؤيد بيرو أخاه الأكبر في أن يرث سلطانه السياسي المزعوم . وكان من
المصائب القليلة التي لاقاها چيوفنى في حياته أنه كان في فلورنس حين سقط
بيرو عن عرشه . ولم يجد هو وسيلة للنجاة من غضب المواطنين على
آل ميديتشى ، ذلك الغضب الذى لم يفرقوا فيه بين أفراد هذه الأسرة ،
إلا أن يتخفى في زى راهب فرنسيسى ، وأن يشق طريقه وهو متخف في
هذا الزى بين الجماهير المعادية ، وأن يطلب الالتحاق بدير سان ماركو الذى
سخا عليه أسلافه بالهبات ، ولكنه كان وقتئذ تحت سيطرة سفنرولا عدو
أبيه ، ولهذا أبى الرهبان قبوله فيه ، فاختفى وقتاً ما في إحدى ضواحي
المدينة ، ثم اتخذ سبيله فوق الجبال لينضم إلى إخوته في بولونيا ؛ وقد تجنب
الذهاب إلى رومة لأنه كان يكره الإسكندر السادس ، وعاش ست سنين
هارباً أو منفياً ، ولكن يلوح أنه لم يكن في خلاها يعوزه المال . وقد زار
في هذه الأثناء مع جويليو ابن عمه (الذى أصبح فيما بعد البابا كلمنت السابع)
وبعض أصدقائه ألمانيا ، وفلاندرز ، وفرنسا . ثم اصططح آخر الأمر مع
الإسكندر فاتخذ مقامه في رومة (١٥٠٠) .

وأحب كل من كان في تلك المدينة . فقد كان متواضعاً ، بشوشاً
سخياً في غير تظاهر ؛ وقد بعث بهبات قيمة إلى معلميه پوليتيان وكالكاندياس ،
وأخذ يجمع الكتب والتحف الفنية ؛ وحتى دخله الكبير نفسه لم يكذ ينى
بما يقدمه من هبات للشعراء ، والفنانين ، والموسيقين والعلماء . وكان
يستمتع بجميع فنون الحياة وطبائها ؛ بيد أن جوتشياردينى Quicciardini
الذى لم يكن قلبه يخلو من كرهه للبابوات ، يصفه بأنه « قد اشتهر بأنه إنسان

طاهر الذيل ، مبرأ من كل نقبصة خلقية» (٣) ، وقد هنا الدوس مانوتئوس Aldus Manutius بحياته النقية النقية» (٤) .

وبدأت الأقدار تعاكسه من جديد حين عينه يوليوس الثاني مندوباً بابوياً يحكم بولونيا وإقليم رومانيا (١٥١١) ، ورافق الجيش البابوي إلى راڤنا ، وخاض المعركة وهو أعزل يشجع الجند ويشد عزائمهم ، وأطال المكث فوق ما ينبغي في ميدان الهزيمة ، يصلى على الموتى ، حتى قبضت عليه سرية يونانية تعمل في خدمة الفرنسيين المنتصرين . ولما سبق أسيراً إلى ميلان ، سره أن يرى أن الجنود الفرنسيين أنفسهم قلما كان يعينهم أمر الكرادلة المنشقين ومجلسهم الذى لا يستقر فى مكان ، وأنهم كانوا يحرصون على المحبىء إليه لينالوا بركته ، ومغفرته ، ولعلهم أيضاً قد جاءوا لينالوا رفته . واستطاع أن يفر من أسريه الرفيقيين به ، وأن ينضم إلى القوات البابوية - الأسبانية التى نهبت پراتو Prato واستولت على فلورنس ، واشترك مع أخيه جوليانو فى إعادة آل ميديتشى إلى سلطانهم (١٥١٢) ، ثم استدعى بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت إلى رومة ليشارك فى اختيار من يخلف يوليوس على عرش البابوية .

ولم يكن وقتئذ قد جاوز السنة السابعة والثلاثين من عمره ، وقلما كان يتوقع أنه هو نفسه سيختار بابا . وقد دخل الجمع المقدس محمولا على محفة يعانى آلام ناسور فى الشرج (٥) . واحتدم النقاش أسبوعاً اختر بعده جيوفانى ده ميديتشى بابا (١١ مارس سنة ١٥١٣) ، ويلوح أن الرشا لم تكن من أسباب هذا الاختيار ، وتسمى باسم ليو العاشر ، ولم يكن قد رسم بعد قسيساً ، ولكن هذا النقص قد تدورك فى ١٥ مارس .

ودهش الناس جميعاً من هذا الاختيار وابتهجوا له ؛ فقد سرهم وألج صدورهم ، بعد دسائس الإسكندر وسيزارى بورچيا السوداء وحروب يوليوس واضطراباته هو وأحفاده ، أن يتزعم الكنيسة فى ذلك الوقت شاب

امتاز وهو لا يزال فنياً بقلبه الطيب السمح ، وكياسته ودماثة خلقه ومجاملته ،
ومناصرتة السخية للأدب والفنون ، وأن يقودها كما يبدو في طريق السلام .
ولم يخش ألفنمو صاحب فيرارا ، الذى حاربه يوليوس بلا هوادة ، المحبىء
إلى رومة ، ورد إليه ليو كل ما كان له في دوقيته من امتيازات ، وشكر له
الأمير هذه اليد فأمسك بركاب ليو حين امتطى جواداً ليسير في موكب
التتويج في السابع عشر من شهر مارس . وكانت هذه الحفلات التى أقيمت
بمناسبة تتويجه فخمة لم يسبق لها مثيل من قبل أنفقت فيها مائة ألف دوقه (٦) .
وقدم فيها المصرى أغستينو تشيغى Agostino Chigi مركبة نقش عليها باللغة
اللاتينية ذلك النقش الذى يعلن فيه أمل الشعب : « لقد حكمت من قبل
فينوس » (أى الإسكندر) ، « وحكم بعدئذ المريخ » (يريد يوليوس) ،
و « الآن تحكم بالاس Pallas » (الحكمة) وطاف الناس بشعار أكثر من
هذا لمجازاً وإحكاماً : « كان المريخ ، وتكون بالاس ، وأنا فينوس ،
سأكون أبداً » (٧) . وابتهج الشعراء ، والمثالون ، والمصورون ، والصباغ ،
وانبعثت فى قلوب الكتاب الإنسانيين آمال بعودة عصر أغسطس الذهبى :
وقصارى القول أن أحداً لم يترعب على كرسى البابوية من قبل تحف به هذه
البشائر والآمال والبهجة التى تغمر قلوب الشعب على بكرة أبيه .

وإذا جاز لنا أن نصدق المؤلفين من كتاب ذلك العصر فإن ليو نقشه
قد قال لأخيه وهو منشراح الصدر : « فلنستمع بالبابوية ما دام الله قد وهبنا
إياها » (٨) . ولعل هذا القول ممدسوس عليه ، وهو حتى إن أصبح لا يدل
على شيء من عدم الاحتشام ، بل يتم على روح جدلة ، لانتى أن تكون
كريمة كما تكون سعيدة ، وهى لا تدرى وقد واثاها الحظ السعيد أن تصف
العالم المسيحى كأنه يتمخض بالثورة على الكنيسة .

الفصل الثانى

البابا السعيد

وبدأ ليو عمله بداية طيبة إلى أبعد حد ، فعفا عن الكرادلة الذين دبروا مؤتمر بيزا وميلان المعادى له ، وانتهى بذلك خطر الانقسام ، ووعد ألا يمس الضياع التى يتوفى عنها الكرادلة ، ووفى بهذا الوعد . وأعاد افتتاح مجلس لاتران ، ورحب بمندوبيه بلغته اللاتينية البليغة . وأدخل على الكنيسة بعض إصلاحات صغيرة ، وخفف الضرائب ، ولكن مرسومه الذى دعا فيه إلى الإصلاحات الكبرى (٣ مايو سنة ١٥١٤) لقي مقاومة شديدة من الموظفين الذين كانوا يخشون من أن تنقص هذه الإصلاحات من دخلهم ، ولهذا لم يبدل جهداً كبيراً فى تنفيذه^(٩) وقال فى هذا : « سأندبر الأمر ؛ لأرى كيف أستطيع أن أرضى كل إنسان »^(١٠) لقد كان هذا هو طبعه ، وكان طبعه هذا سبباً فيما حاق به من بلاء .

وليس الصورة التى رسمها له رفايل (المحفوظة فى بتي) والتى أخرجها بين عامى ١٥١٧ و ١٥١٩ مشهورة شهرة صورة يوليوس ، ولكن ليو نفسه ملوم على هذا بعض اللوم ! فقد كان حين صور أقل عمقاً فى التفكير ، وأقل بطولة فى العمل ، وأقل قدراً فى قرارة نفسه . ولم تكن هذه الصفات لتكسب ظاهر وجهه وجسمه روعة وجلالا . وكانت الصورة صادقة إلى أبعد حدود الصدق . فقد أظهرته رجلاً ضخماً ؛ يتجاوز الحظ الأوسط فى الطول ؛ كما يتجاوزته أكثر من هذا فى وزن الجسم . وقد اختفت بدانته التى تقلل من هيئته تحت ستار ثوبه المصنوع من الحمل الأبيض والموشى بالفراء الثمن ، والحرملة الحمراء القرمزية ، له يدان ناعمتان رخوتان ؛ جردتا فى الصورة من الخواتم الكثيرة التى تزينهما فى الأوقات العادية ،

ومنظار للقراءة يساعد عينيه القصير في النظر ، ورأس مستدير وخدان متنفخان وشفتان كبيرتان ، وذقن مزدوج ، وأنف ضخمة وأذنان عريضتان ؛ وتمتد بعض الخطوط الدالة على الحقد والضغينة من الأنف في طرفي الفم ، وعينان ثقيلتان ، وجهه عابسة بعض العبوس ذلك هو ليو الذي كشرت له الدبلوماسية عن نابها ، ولعله قد آلمته حركة الإصلاح التي كانت قاسية عليه ، وليس هو ليو الصياد والموسيقى المرح ، ونصير الآداب والفنون الجواد الكريم ، الرجل المثقف الذي ينهب اللذات ، والذي ابتهج رومة بتتويجه أعظم ابتهاج . وإذا ما شئنا أن نصفه وجب أن نضم سجل حياته إلى صورته ، ذلك أن الرجل منا رجال كثيرون عند مختلف الرجال وفي مختلف الأوقات ، وليس في مقدور أبرع مصور أن يظهر كل هذه الصفات في وجه إنسان ما في لحظة واحدة .

وكانت الصفة الأساسية في أخلاق ليو ، والتي هي وليدة حياته المحظوظة هي طيبة قلبه . فقد كان يجد كلمة طيبة يقولها لكل من ياقاه ، وكان يرى خير النواحي في كل إنسان عدا البروتستنت (الذين لم يكن يسعه أن يبدأ يفهمهم) ، وكان يسخو على كثيرين من الناس سخاء استنزف كثيراً من أموال الكنيسة ، وكان من أسباب حركة الإصلاح الديني . ونحن نسمع الشيء الكثير عن أدبه ، ورقة حاشيته ، وكياسته ، وبشاشته ، ومرحه حتى في أوقات المرض والألم (فقد أجريت له عدة جراحات لإستئصال ناسوره ولكنه كان يعود بعدها على الدوام ، وكان في بعض الأحيان يجعل تحركه عذاباً ليس بعده عذاب) . وكان يترك لغيره من الناس ، على قدر ما يستطيع ، أن يحيوا حياتهم كما يشاءون . وقد تغلبت هذه القسوة على اعتداله وحنوه الأصليين حين تبين له أن بعض الكرادلة يأتمرون به ليقتلوه . ولقد كان شديداً صارماً مجرداً من الرحمة في بعض الأوقات ، فعل ذلك مع فرانثيسكو ماريلا دلا روفيري رجل أربينو وجيان باولو بجلوني رجل بروچيا (١١) .

وكان يسعد أن يكذب كما يكذب الدبلوماسى إذا أرغمته الظروف على الكذب ، وكان من حين إلى حين يتفوق على الساسة الغادرين الذين يريدون أن يوقعوه فى حبالهم . لكنه كان فى أكثر الأحيان ذا قلب رحيم ؛ تنبى هذا حين نهى (دون جلوى) عن استعباد الهنود الأمريكين ، وحين بذل كل ما فى وسعه ليقاوم وحشية محاكم التفتيش التى كان يلجأ إليها فرديناند الكاثوليكي^(١٢) . وكان رغم نزعة الدينوية العامة يودى جميع واجباته الدينية بذمة وأمانة ؛ فكان يصوم ، ولا يرى أى تناقص أساسى بين الدين والمرح ، وقد اتهم بأنه قال لـ بـمـو يوماً ما : « إن الأجيال جميعها لتعلم حق العلم كيف أفدنا من هذه الخرافة — خرافة المسيح » ؛ ولكن المصدر الوحيد الذى ورد فيه هذا القول هو مؤلف جدلى عنيف يسمى صوكب البابوات The Pageant of Popes كتبه حوالى عام ١٥٧٤ رجل إنجليزى لاشأن له يدعى جون بيل John Bale ، وحتى بايل الذى لايؤمن بدين ورسكو Rosucoc البروتستنتى يرفضان هذه القصة ويعتقدان أنها هى نفسها خرافة^(١٣) .

وكانت متعه ومسراته تختلف من الفلسفة إلى المهرجين الماجنين . وكان قد تعلم على مائدة أبيه أن يقدر الشعر ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى ، والخط الجميل ، وزخرفة الكتب ، والمنسوجات الرفيعة الجميلة ، والمزهريات والزجاج ، وكل أشكال الجمال مع جواز استثناء أصلها ومبارها وهو المرأة ؛ وكانت رعايته للفنانين والشعراء جرياً منه فى رومة على التقاليد الكريمة التى كان يسير عليها أسلافه فى فلورنس ، وإن كان استمتاعه بالفنون شاملاً شمولاً لا يصل به إل الحد الذى يجعله هادياً مرشداً للذوق الفنى . وقد كانت طبيعته السهلة مائعة له من أن يعنى بالفاسفة عنابة جدية ، وكان يعرف أن النتائج والأحكام المستخلصة من المقدمات المنطقية كلها مزعزة غير أكيدة ، ولم يشغل باله بما وراء الطبيعة بعد أن غادر الكلية الجامعية . وكان فى أثناء

تناوله الطعام تقرأ له الكتب ، وهى عادة كتب التاريخ أو يستمع إلى الموسيقى ، وفيها كان سليم اللوق صحيح الحكم ، فقد كان ذا أذن موسيقية كما كان رخم الصوت . وكان بلاطه يضم طائفة من الموسيقيين يغدق عليهم المال ؛ وقد استطاع المؤلف والملمحن الموسيقي برنارد أكلتي Bernardo Accolti (المسمى يونيكو أريتينو Unico Aretino لأنه ولد في أدسو ولأنه لم يكن يجاريه أحد . سهولة ارتجاله الشعر والقطع الموسيقية) بفضل الأجور التي نالها من ليو أن يشتري دوقية نبيي Nepi الصغيرة ؛ وحصل منه يهودى عازف على العود على قصر ولقب كونت ؛ وعُين المغنى جبريل مرينو Gabriel Merino كبير أساقفة^(١٤) ووصلت جوقة المرنمين في الفاتيكان بفضل تشجيع ليو ورعايته إلى درجة من السمو لم يسبق لها من قبل مثيل . وكان رفائيل صادقا كل الصدق حين صور البابا وهو يقرأ كتابا في الموسيقى الدينية . وكان ليويجمع الآلات الموسيقية لجمالها وحسن أنغامها ، وكان منها أرغن مزدان بقطع من المرمر يرى جستليوفى أنه أجل أرغن رآه أو سمعه .

كذلك كان ليو يحب أن يحتفظ في بلاطه بعدد من المازجين والمهرجين ؛ وكان هذا مما يتفق مع ما اعتاده أبوه ومعاصروه من الملوك ، ولم تروع له رومة التي كانت تحب الضحك حبا لا يزيد عليه إلا حب الثروة والجماع . وقد يبدو لنا إذا عدنا بنظرنا إلى تلك الأيام الخالية أن مما تعافه نفوسنا أن تتردد أصداء النكات الخفيفة والقييحة في أرجاء البلاط البابوى بينما كانت ثورة الإصلاح الدينى الجامعة تشتعل ناراها في ألمانيا . ومما يحكى عن ليو أنه قد سره مرة أن يرى أحد المهرجين من رهبانه يتلع حمامة دفعة واحدة ، أو أربعين بيضة متتابعة^(١٥) ؛ وأنه قد قبل سرورا من وفد برتغالى فيلا أبيض اللون - جىء به من الهند - نحر راكمها ثلاث مرات حين شاهد قداسته^(١٦) . وإذا جىء له بشخص يستطيع بفكاهته ، أو صورته المشوهة ، أو بلاهته أن يدخل السرور عليه ، كان هذا طريقا

هو كذا لكسب رضاه (١٧) . ويبدو أنه كان يحس بأن الترويح عن نفسه هذه الوسائل من حين إلى حين بشغلة عن آلامه الجسمية ، ويخفف عن نفسه عبء المتاعب النفسية ، وبطيل حياته (١٨) . وكانت له عادة تمت بصلة إلى عادات الأطفال وتقلل من حقد الحاقدين عليه . ذلك أنه كان يلعب الورق أحيانا مع الكرادلة ، ويبيع للجدهمور أن يشاهد اللعب حتى إذا فرغ منه وزع قطعاً من الذهب على الحاضرين .

وكان الصيد أحب ضروب التسلية إليه ، فقد كان هذا مانعاً له من البدانة التي كان مستعداً لها بطبيعته ، وكانت تمكنه من الاستمتاع بالهواء الطلق وتناظر الريف بعد أن كان سجيناً في الفاتيكان . وكان له اسطبل به كثير من الجياد بخدمة مائة سائس ؛ وكان من عادته أن يفرغ في شهر أكتوبر كله للصيد والتنصص . وكان أطباؤه يجهدون هذه العادة أعظم التحييد ، ولكن باريس ده جراسيس Parise de Grassis كبير تشريفاته كان يشكو من أن البابا يظل منتعلاً جذابه الثقيلين زمناً طويلاً ولا يستطيع أحد معه أن يقبل قدميه ، وكلن ليو يضحك من هذا بكل قلبه (١٩) . ونحن نرى البابا أرق حاشية مما نراه في صورة رفايل حين نقرأ أن الفلاحين . أهل القرى كانوا يقدون عليه لتحيته حين يمر في طرقهم ، وأنهم كانوا يقدمون له عطاياهم المتواضعة - وأن البابا كان يجزل لهم العطاء حتى كان هؤلاء ينتظرون بشوق زائد رحلات الصيد التي يقوم بها . وكان يهب بناتهم الفقيرات بائناً الزواج ، ويؤدى ديون المرضى والطاعنين في السن ، وآباء الأسر الكبيرة (٢٠) . وكان أولئك الأقوام السذج يخاصون له الحب أكثر من الألفين من الرجال الذين تألف منهم حاشيته في الفاتيكان (*) .

(*) وكان المكان المحبب الذي ينزل فيه ليو خلال رحلات الصيد هذه هو البيت الريفي المعروف بقصر مجليانا Magliana . وكان هذا القصر قد شيد لمكسئس الرابع ووسعه إفوسنت =

يبد أن بلاط ليولم يكن مجرد بؤرة للتسلية والمرح ، بل كان إلى هذا ملقى رجال الحكم المسئولين ، ومن بينهم ليو نفسه ، وكان مركز ذوى الأحلام ، والعلم ، والفكاهة فى رومة ، والمكان الذى يقيم فيه العلماء ، ورجال التربية ، والشعر ، والفنانون ، والموسيقيون ، ويلقون فيه أعظم الترحيب ، وكان هو الذى تصرف فيه الأعمال الكنسية الجدية ، وتقام فيه الاحتفالات الفخمة لاستقبال المبعوثين الدبلوماسيين ، وتؤدب فيه المآدب الغالية ، وتمثل فيه المسرحيات أو تقام فيه الحفلات الموسيقية ، وينشد فيه الشعر ، وتعرض فيه روائع الفن . وما من شك فى أنه كان أرقى بلاط فى العالم كله فى ذلك الوقت . والحق أن بلاط ليو قد باغ بفضل ما بذله البابوات من أيام نقولاس الخامس إلى ليو نفسه من الجهود لإصلاح قصر الفاتيكان وزخرفته ، وحشد العدد الجم من عباقرة الأدب والفن ، وأقدر السفراء فى أوربا بأجمعها ، نقول إن بلاط ليو بلغ بفضل هذا ذروة آداب النهضة وبهجتها ، ولا نقول إنه قد بلغ ذروة الفن لأنه كان قد بلغ هذه الذروة فى عهد يوليوس . ولم يشهد التاريخ قبل أيامه ثقافة بالقدرة الذى شهد منها فى هذا العهد ، لا نستثنى من ذلك عصر بركايس فى أثينة أو عصر أغسطس فى رومة (٢٢) .

وعم الرخاء المدينة واتسعت رقعتها بفضل ما كان يجرى فى شرايينها الاقتصادية من ذهب ليو ، ويقول سفير الفاتيكان فى هذا إن حشرين ألف بيت قد بنيت فى رومة فى الثلاثة عشر عاما التى تلت ارتقاءه عرش

= الثامن ويوليوس الثانى ، وزيه جيوفى دى پيترو الأميرى (المعروف بامم لو اسبانيا Lo Spagna) ليوليوس بمظلمات تمثل ايلو وريبات الفن . وصمم رفائيل لمعبده (بين ١٥١٣ و ١٥٢٠) ثلاث مظلمات بقى منها اثنان حتى الآن فى متحف الفوثر . والراجع أن لو اسبانيا قد صورها من صور تمهيدية لرفائيل .

البابوية ، وقد شاد أكثرها القادمون الجدد من شمالي إيطاليا الذين قدموا إليها بعد هجرة عصر النهضة . وازدهم فيها الفلورنسيون بوجه خاص لينالوا وفد البابوية الفلورنسية . وقدر باولو جيوفيو Paolo Giovio الذي كان يتختر في البلاط البابوي سكان رومة في ذلك الوقت بخمسة وثمانين ألفاً (٢٣) ، ولسنا ننكر أنها لم تكن قد بلغت بعد ما بلغت فلورنس أو البندقية من جمال ، ولكنها كانت بإجماع الآراء محور المدينة الغربية ، وقد سماها مارتشيلو ألبريني Marcello Albrini في عام ١٥٢٧ ، « ملتقى العالم كله » (٢٤) . ولم يغفل ليو ، وسط ملاحيه وشؤونه الخارجية ، عن تنظيم استيراد الطعام وتحديد أثمانه ، وإلغاء الاحتكارات ، وابتلاع بعض السلع بأجمعها للتحكم في أثمانها (*) ، وخفض الضرائب ، ووزع العدالة بغير محاباة ، وبذل جهده لتجفيف المستنقعات الهنتية Pontine Marshes وعمل على تقدم الزراعة في الكمبانيا ، وواصل أعمال الإسكندر ويوليوس في شتى الشوارع في رومة أو تحسينها (٣٠) . وسار على نهج أبيه في فلورنس فعنى بالضروريات والكماليات - فاستخدم الفنانين لينظموا له المواكب المنظمة ، وشجع الاحتفالات المقنعة في عيد المساخر ، وبلغ من أمره أن سمح بإقامة مصارعات الثيران التي جاء بها آل بورجيا في ميدان القديس بطرس نفسه . ذلك أنه كان يرغب في أن يشترك الشعب في مرح العصر الذهبي الجديد وسعاده .

وسارت المدينة على نهج البابا ، وأطلقت للمرح والبهجة العنان ، فأسرع رجال الدين والشعراء ، والطفيليون ، والقوادون ، والعاشرات إلى رومة ليعبوا كأس السعادة عبا . وكان الكرادلة وقتئذ أغنى من الأشراف القدامى ، بفضل ما حباهم به البابوات ، وخاصة ليو نفسه ، من المناصب التي جاءتهم بالإيراد من جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني . وبينما كان

(*) هذا هو الذي يسمونه في عالم التجارة « ركننا Corner » . (المترجم)

أولئك الأشراف القدامى يحدون إلى هاوية الاضمحلال الاقتصادي والسياسي ، كان دخل بعض الكرادلة يبلغ ثلاثين ألف دوقية العام (أى نحو ٣٧٥٠٠٠ دولار)^(٢١) . فاستطاعوا بذلك أن يسكنوا في مساكن فخمة ، يقوم فيها على خدمتهم ثمانية من الخدم في بعض الأحيان^(٢٢) ، وتزدان بكل ما عرف في ذلك الوقت من روائع الفن والترف : ولم يكونوا يرون أنهم رجال دين بقدر ما كانوا يرون أنهم رجال حكم ، ودبلوماسيون ، ومديرون ؛ لقد كانوا هم مجلس الشيوخ الروماني وكانوا يريدون أن يحبوا كما يحب أعضاء مجلس الشيوخ . وكانوا يسخرون من أولئك الأجانب الذين يتطلبون منهم أن يحبوا حياة الترف والعفة التي يحبها القساوسة ؛ وكانوا يزنون السلوك ، كما يزنه كثيرون من أبناء عصرهم ، بموازين الجمال لا بالموازين الأخلاقية ، فلم يكونوا يرون بأسا من خرق بعض الأوامر الإلهية إذا تجملوا في خرقها وفعلوا ذلك بظرف وذوق سليم . وقد أحاطوا أنفسهم بالغلمان ، والموسيقين ، والشعراء ، والكتاب الإنسانيين ، وكانوا من حين إلى حين يتناولون عشاءهم مع محاطى البلاط^(٢٣) . ويأسفون أشد الأسف لأن ندواتهم كانت خالية من النساء ، فها هو ذا الكردنال بيننا يقول « إن رومة على بكرة أبها تنادى بأنا لا ينقصنا هنا إلا سيدة تكون هي واسطة عقد الندوة »^(٢٤) . وكانوا يحسدون فيراراً ، وأريينو ، وما نتوا لما تستمتع به من هذه الناحية ، ولشد ما اغتبطوا حين جاءت إزبلا دست لتيسر أثوابها ومفاتيح النسوية على حفلاتهم التي لم تكن تضم إلا الذكور .

وبلغ الظرف ، والذوق ، ولطف الحديث ، وتقدير الفن غاية في ذلك الوقت ، ونالت الفنون والآداب هي اختلاف أنواعها أعظم التشجيع . ولسنا ننكر أنه كانت هناك حلقات مثقفة في العواصم الصغرى ،

وأن كستجليوني كان يفضل ندوات أريينو الهادئة على حضارة رومة الزاهية ، الومضية ، الصاخبة ، التي تجتمع فيها كل الأجناس ، غير أن أريينو لم تكن إلا جزيرة صغيرة من الثقافة ، أما رومة فكانت مجرى دافقا أوبجرا عجاجا . وأقبل عليها لوثرورآها ، وهاله مارأي واشمازت منها نفسه ، ثم جاءها إرزمس Erasmus ورآها وافتن بها افتنانا بلغ حد اللشوة^(٢٥) . ونادى مائة شاعر وشاعر بأن العصر الذهبي قد عاد .

الفصل الثالث

العلماء

في اليوم الخامس من نوفمبر عام ١٥١٣ أصدر ليو مرسوماً بضم معهدين من معاهد العلم افتقرا إلى المال : هما كاية القصر المقدس أى الفاتيكان ، وكلية المدينة ، وأصبح المعهدان من ذلك الوقت هما جامعة رومة ، وخصص لهما بناء لم يلبث أن عرف باسم سايندسا Sapienza^(٣٦) . وكان هذان المعهدان قد ازدهرا في أيام البابا اسكندر ، ولكنهما اضمحلّا في عهد يوليوس الذي استولى على أموالهما لينفقها في الحروب ، والذي كان يفضل السيف على الكتاب . وأمد ليو الجامعة الجديدة بالمال بسخاء وظل يسخو عليها حتى تورط هو الآخر في سباق للتدمير . فقد جاء إليها بعدد جم من العلماء الممتازين المخلصين لعلمهم ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى كان في المعهد الجديد ثمانية وثمانون أستاذاً — منهم خمسة عشر في الطب وحده يتقاضى الواحد منهم ما بين ٥٠ فلورينا و ٥٣٠ (من ٨٢٥ إلى ٦٦٢٥ ؟ دولاراً) في العام ، وكان ليو في تلك السنين الأولى من ولايته يبذل كل ما في وسعه لجعل الكليتين المجتمعين أعظم جامعات إيطاليا علماً وأكثرها ازدهاراً .

وكان من أفضاله أنه أنشأ في هذه الجامعات دراسة اللغات السامية . ذلك أنه خصص في جامعة رومة كرسياً لتعليم اللغة العبرية ، وعين تيسيو أمبروجيو Teseo Ambrogio لتدريس اللغتين السريانية ، والكلدانية في جامعة بولونيا . ورحب ليو حين أهدى له كتاب في نحو اللغة العبرية ألفه أجاتشيو جويداتشرىو Agacio Guidacerio ؛ ولما علم أن سانتى بجنيني Sante Paginin كان يترجم العهد القديم من الأصل العبرى إلى اللغة اللاتينية ،

طلب أن يرى أ نموذجاً من الترجمة ؛ فلما رآه أعجبه ، وتعهد من فوره بأن يتكفل بنفقات هذا المشروع الشاق الكبير .

وكان ليو أيضاً هو الذى أعاد دراسة اللغة اليونانية بعد أن أخذت حراستها فى الاضمحلال . وشرع فى ذلك بأن دعا إلى رومة العالم الشيخ جون لسكارس John Lascaris الذى كان يعلم اللغة اليونانية فى فلورنس ، وفرنسا ، والبندقية ، ونظم بمساعدته مجعاً علمياً يونانياً فى رومة ، منفصلاً عن الجامعة . وكتب بمبو على لسان ليو (فى ٧ أغسطس سنة ١٥١٣) خطاباً إلى ماركس موسوروس Marcus Musurus أكبر مساعدى مانوتيوس Manutius يطلب فيه إلى هذا العالم أن يحصل من بلاد اليونان على « عشرة ، أو أكثر من عشرة حسبما يرى ، من الشبان المتبحرين فى العلم ، المشهود لهم بالأخلاق الفاضلة لتؤتف منهم حلقة من الدراسات الحرة ، ولكى يتلقى عليهم الإيطاليون العلم باللسان اليونانى وحسن الانتفاع به » (٢٧) . وبعد شهر من ذلك الوقت نشر مانوتيوس طبعة أفلاطون التى أعدها موسوروس من قبل ، وأهدى الطابع العظيم هذا الكتاب إلى البابا . ورد عليه ليو بأن منح ألدوس دون غيره الحق فى أن يعيد طبع كل ما أصدره ألدوس من الكتب اليونانية أو اللاتينية حتى ذلك الوقت ، وما سيطبعه فى خلال الأعوام الخمسة عشر المقبلة التى سيظل فيها وحده صاحب هذا الحق . وأعلن فوق هذا أن كل من يعتدى على هذا يحرم من حظيرة الدين ، ويعرض نفسه للعقاب . وكان هذا الامتياز النردى فى طباعة المؤلفات هو الوسيلة التى تمنح بها النهضة طابعاً ما حتى طبع الكتاب الذى أنفق المال على إصداره . غير أن ليو أضاف إلى هذا الامتياز وصيته بأن يكون ما يطبع من كتب ألدوس معتدلاً الثمن ، وقد كان .

وانتقلت الكاية اليونانية فى بيت آل كولتشي Colocci إلى الكويرنال Quirinal ، وأقيمت هناك أيضاً مطبعة اتبع الكتب المدرسية والمزروح

الطلاب . وأنشئ حوالى ذلك الوقت عينه فى بفلورنس « مجمع علمى ميديتشى » شبيه به للدراسات اليونانية ؛ وجمع فارينو كامرتى Varino Camerti - الذى اتخذ لنفسه اسماً لاتينياً هو فافورينوس Favorinus - بتشجيع ليو أحسن معجم يونانى - لاتينى نشر فى عالم النهضة حتى ذلك الوقت .

وكادت غيرة البابا على الآداب القديمة تكون ديناً له وعقيدة . وشاهد ذلك أنه تلقى من البنادقة « عظماً من كشف لى » بنفس التقوى التى يتلقى بها أثراً من آثار كبار القديسين (٣٨) ، وأنه أعلن بعد جلوسه على كرسي البابوية بقليل أنه سيكافئ بسخاء كل من يحصل له على أى مخطوط فى الأدب القديم لم ينشر بعد . ثم إنه فعل ما فعله أبوه فأرسل مبعوثيه وعماله إلى البلاد الأجنبية ليبحثوا عما عساه أن يكون فيها من المؤلفات القديمة ، وعن كل الأشياء ذات القيمة وثنية كانت أو مسيحية ، وأن يشتاعوها له ، وكان فى بعض الأحيان يوفد الوفود لهذا الغرض خاصة لا لغرض سواه ، ويزودهم بالرسائل للملوك والأمراء يطلب إليهم فيها أن يعاونوا أولئك الرسل فى البحث والتنقيب . ويبدو أن عما له كانوا فى بعض الأحيان يسرقون هذه المخطوطات إذا لم يستطيعوا شراءها ؛ ويلوح أن هذا هو ما فعلوه فى الستة الكتب الأولى من هولييات تاسيتوس التى وجدوها فى دير كورفى Corvey بوستفاليا Westphalia ، لأن لدينا رسالة ممتعة موجهة إلى هيتمرس Heitmers عامل البابا كتبها ليو نفسه أو أمر بكتابتها بعد أن تم طبع هذه الحولييات ونشرها :

لقد بعثنا بنسخة من الكتب بعد أن روجعت وطبعت مجلدة تجليداً جميلاً إلى رئيس الدير وإلى رهبانه ، لكى يضعوها فى مكتبهم بدلاً من النسخة التى أخذت منها ، وإذا كنا نريد فوق ذلك أن يعرفوا أن هذا الاختلاس قد عماد عليهم بالخير أكثر مما عاد عليهم بالأذى ، فقد وهبنا كنيتهم غفراناً جماعياً (٣٩) .

وأعطى أبو فلهر بروالدو Filippo Beroaldo المخطوط المختلس ، وأمره

أن يضلح النص وينشره ، على أن يطبعه طبعة أنيقة ولكنها في صورة سهلة القراءة . وكان مما ورد في كتاب التكليف هذا :

لقد كان من عادتنا ، حتى في السنين الأولى من حياتنا ، أن نرى أن لا شيء مما وبه الخالق خلقه أجل شأنًا وأعظم نفعاً - لانستثنى من ذلك إلا العلم به وعبادته الحقّة - من هذه الدراسات التي هي زينة الحياة الإنسانية ومرشدها إلى الخير ، والتي يمكن فوق هذا تطبيقها على كل وضع خاص من أوضاع الحياة والانتفاع بها فيه ؛ والتي هي سلوك الإنسان في الشدة ، ومصدر بهجته وشرفه في الرخاء . والتي لولاها لحرم الإنسان كل ما هو جميل في الحياة وكل ما يزدان به المجتمع . ويبدو أن المحافظة على هذه الدراسات وتوسيع نطاقها يقف على أمرين : عدد العلماء ، وتزويدهم بكفاياتهم من النصوص الممتازة . فأما الأمر الأول فإننا نرجو ببركة الله ، أن نظهر رغبتنا الأكيدة في أن نكافئ أولئك العلماء الممتازين ونكرمهم وحرصنا على هذه المكافأة وذلك التكریم أكثر مما أظهرناهما من قبل ، وإن كان ذلك الحرص وتلك الرغبة هما منذ زمن بعيد مصدر سرورنا الأكبر . . . أما الحصول على الكتب ، فإننا نحمد الله أن أتاح لنا في ذلك أيضاً الفرصة التي نستطيع بها إسداء الخير لبني الإنسان(٤٠)

وكان أبو يظن أن الكنيسة هي التي تعين ما يفيد بني الإنسان من كتب الأدب ، وشاهد ذلك أنه جدد مرسوم الإسكندر الذي يفرض رقابة الكنيسة على الكتب .

وبددت بعض الكتب التي جمعها أسلاف ليو حين نهب قصر آل ميديتشى (١٤٩٤) ، غير أن دير سان ماركو كان قبلئذ قد ابتاع بعض هذه الكتب ، وكان ليو وهو لا يزال كردنالا قد ابتاع الكتب التي نجت من النهب بمبلغ ٢٦٥٢ دوقه (١٥٠١ر ٢٣٣ دولاراً) ونقلها إلى قصره في رومة : ثم أعيدت

هذه المكتبة إلى فلورنس بعد موت ليو ، وسعر ف مصيرها فيما يلي من الصفحات .

وكانت مكتبة الفاتيكان قد بلغت من الضخامة حداً تحتاج معه إلى طائفة من العلماء للعناية بها ، ولما جلس ليو على كرسي البابوية كان كبير أمنائها توماسو إنغيرامى Tommaso Inghirami - وهو من أبناء الأشراف ، وشاعر ، ومحدث مشهود له بالذكاء وحسن الفكاهة والتألق في ندوات الفكهين البارعين . ثم كان إلى ذلك ممثلاً ، أطلق عليه من قبيل السخرية اسم فيدرا Fedra لنجاحه في تمثيل دور فيدرا Phaedra في مسرحية هبوليتس Hippolytus لسنكا . ولما مات في حادثة من حوادث شوارع المدينة عام ١٥١٦ حل محله في أمانة المكتبة فلبو بروالدو الذى قسم قلبه وعواطفه بين تاسيتوس والحظية العاملة إمبيريا Imperia ، وكتب شعراً لاتينياً بلغ من الجودة أن كانت له ست ترجمات إلى اللغة الفرنسية لإحداها بقلم كليمان مارون Clement Maron وكان جيرولامو أليندرو Girolamo Aleandro الذى أصبح أميناً في عام ١٥١٩ ، رجلاً حاد الطبع ، غزير العلم ، عظيم المواهب ، يتكلم اللغات اللاتينية ، واليونانية ، ويتكلم العربية بطلاقة جعلت لوثر بخطئ في أصله فيظنه يهودياً . وقد حاول في مجلس أجزبرج (١٥٢٠) أن يصد تيار البروتستنتية ، وكانت حماسه في ذلك أقوى من حكمته . وقد رفعه بولس الثالث إلى مقام الكردينالية (١٥٣٥) ، ولكن أليندر توفى بعد أربع سنين من ذلك الوقت لإسرافه في عنايته بصحته وفى تعاطى الأدوية (١) . وقد غضب أشد الغضب لأنه أعفى من عمله حين بلغ الثانية والستين من العمر ، وأساء إلى أصدقائه باعتراضه الشديد على تصرفات القدرة الإلهية (٢) .

وتمت المكتبات الخاصة وقتئذ في رومة ، فقد كان الإسكندر نفسه مجموعة عظيمة من الكتب أوصى بها إلى البندقية ، وكان عند الكردينال

ج. يمانى محسود لارزمس ثمانية آلاف مجلد مكتوبة بلغات مختلفة أوصى بها إلى كنيسة سلفادور بمدينة البندقية حيث دمرتها النار . وكان للكردناى سادوليتو مكتبة قيمة وضعها فى سفينة ليرسلها إلى فرنسا ، فغرقت فى البحر . وكانت مكتبة بمبو غنية بما فيها من دواوين أشعار بروفنسال والمخطوطات الأصلية مثل مخطوطات كتب بترارك ؛ وانتقلت هذه المجموعة إلى أريينو ، ومنها انتقلت إلى الفاتيكان . وحذا العلمانيون الأغنياء أمثال أجستينو تشيچى Agostino Chigi وبنلو أتوفيتى Bindo Altoviti حنوا البابوات والكرادلة فى جمع ، الكتب واستخدام الفنانين ومد يد المعونة للشعراء ورجال العلم .

وكثر هؤلاء جميعاً فى رومة على عهد ليو كثره لم يكن لها مثيل من قبل ولا من بعد . وكان كثيرون من الكرادلة أنفسهم علماء ؛ ومنهم من أصبحوا كرادلة لأنهم كانوا قبل ذلك علماء قضوا فى خدمة الكنيسة زمناً طويلاً ، ونذكر من هؤلاء إيجيديو كانيزيو Egidio Canisio ، وسادوليتو ، وبيينا ؛ وقد اعتاد معظم الكرادلة فى رومة أن يناصروا الآداب والفنون بما يكافئون بها أصحابها على إهدائهم أعمالهم ومؤلفاتهم ، ولم يكن يفوق بيوت الكرادلة رياريو ، وجريمانى ، وبيينا ، والدوزى ، وبثروتشى ، وفارنيزى وسديرينى ، وسانسرينو ، وجندساجا ، وكازينيو ، وجويليوده ميليتشى لم يكن يفوق بيوت هؤلاء إلا بلاط البابوات بوصفه ملقى أصحاب المواهب العقلية والفنية فى المدينة . وقد كان لكستجليونى الوديع الطبع الدمث الخلق الذى كسب به صداقة رفائيل المحب الودود وميكل أنجيلو الصارم العنيد ، كان لكستجليونى هذا ندوة متواضعة خاصة به .

وكان ليو بطبيعة الحال أكبر المناصرين على الإطلاق ، فلم يكن أحد فى مقدوره أن ينشئ نكتة شعرية لاثنية يخرج من عنده دون عطاء . وكان العلم فى أيامه يؤهل صاحبه ، كما كان يؤهله فى أيام نقولاس الخامس

لمنصب من المناصب الرسمية الكبيرة في الكنيسة ، وأضيف الشعر إلى العلم في أيام ليو . فأما أصحاب المواهب الصغرى فكانوا يصبحون كتبة ، ومختلن ، وأما من هم أكبر من هؤلاء موهبة فكانوا يصبحون قساوسة في الكنائس الكبرى ، وأساقفة ، وكبار موثقين ، وأما الممتازون منهم أمثال سادوليتو ، وبيينا ، فقد صاروا كرادلة . وترددت أصداء خطب شيشرون وبلاغته في رومة مرة أخرى ، وكان أسلوب الرسائل يعلو ويهبط بانتظام كأنه الألحان الموسيقية ، كما كان شعر فرجيل وهوراس ينساب من ألف رافد ورافد إلى نهر التiber ملتقاه الطبيعي . وقد حدد بمو نفسه مستوى أسلوب الكتابة ، فقد كتب إلى إزبلادست يقول : « أن يخطب الإنسان كما كان يخطب شيشرون خير له من أن يكون بابا » (٤٣) . وبز صديقه وزميله ياقوبو سادوليتو معظم الكتاب الإنسانيين بأن جمع بين الأسلوب اللاتيني البليغ والخلق الذي لا تشوبه شائبة . وكان بين كرادلة ذلك العصر كثيرون من ذوى الاستقامة والأخلاق الفاضلة ، وكانت الكثرة الغالبة من كتاب عصر ليو الإنسانيين أفضل أخلاقاً وأرق مزاجاً من أمثالهم في الجيل الذى قبله (٤٤) ، وإن كان بعضهم قد ظلوا وثنيين في كل شيء ما عدا عقيدتهم الرسمية ، ولقد كان من القوانين غير المسطورة ألا ينطبق سيد مذهب بكلمة نقد للكنيسة المتساهمة من الناحية الخلقية السخية في مناصرة العلم والأدب والفن مهما تكن عقائده أو شكوكه .

وقد اجتمعت هذه الصفات كلها في برناردو دوفيدسى دا بيدنا Bernardo Dovizi da Bibbiena — فقد كان عالماً ، وشاعراً ، وكاتب مسرحيات ، ودبلوماسياً ، وخبيراً في الفن ، ومحدثاً ، ووثيقاً ، وقساً ، وكردنالا ؛ غير أن الصورة التى رسمها رفاثيل له لم تظهر إلا جزءاً قليلاً منه — عينية الخيشتين وأنفه الحاد ؛ ذلك أنها غطت صلته بقبعة حمراء ،

كما غطت مراحه بوقار لم يكن من عادته . وكان خفيف الدم ، والحديث :
والروح ، يفر من صروف الدهر كلها بابتسامة . ولما استخذه لورنلسو
الأكبر أميناً له ومربياً لأبنائه ، اشترك مع هؤلاء الأبناء في الهجرة التي
حدثت عام ١٤٩٤ ، ولكنه دل على مهارته بذهابه إلى أرينو حيث فتن
هذه الدائرة المتحضرة بنكاته الشعرية ، وأنفق بعض فراغه في كتابه مسرحية
بذيئة تدعى *Calandra* وتمثيلها (حوالى عام ١٥٠٥) ، وهذه
المسرحية هي أقدم المسرحيات الإيطالية النثرية . واستدعاه يوليوس الثانى
إلى رومة ، وعمل برناردو لانتخاب ليو بابا بأقل قدر من الجلبة والاحتكاك ،
فجازاه ليو على هذا بأن عينه من فوره كبير الموثقين الرسولين ، ثم عينه
في اليوم الثانى صراف البيت البابوى ، ولم تمض ستة أشهر حتى عينه كردنالا .
ولم تمنعه مناصبه السامية من أن يضع في خدمة ليو خبرته العظيمة بالفنون
وتنظيم مواكبه في الحفلات . ومثلت مسرحيته في حضرة البابا واستمتع
بها ولم يعترض عليها . ولما أرسل قاصداً رسولياً إلى فرنسا ، شغف حبا
بفرانسيس الأول ، وكان لابد من استدعائه لأنه أرق حساسية من أن يصلح
للمناصب الدبلوماسية ، وزخرف له رفائيل حمامه بصورة *قاريغ فينوس*
وكيويد وهى طائفة من الصور تروى انتصار الحب ، وكلها تقريباً مرسومة
على طراز صور مدينة *بمبي القديم* ، وتقحم المسيحية في عالم لم يسمع قط
بالمسيح ؛ وكان الكردنال نفسه هو الذى اختار هذه الزخارف . وتظاهر
ليو بأنه لم يلاحظ شلوذ بيننا الجنسى وظل وفياً له إلى آخر أيامه .

وكان ليو يحب التمثيل - يحب المسلاة بجمع أشكالها ودرجاتها من أبسط
الهزليات المأجنة إلى أكثر الملاحى غموضاً كمسرحيات بيننا ومكيفلى . وقد
افتتح في أول سنة من ولايته دار تمثيل على الكهتول ، شهد فيها عام ١٥١٨

تمثيلاً مسرحية أريستو Ariosto المسماة سبوزيتى Suppositi وضحك من كل قلبه من النكات الملتبسة المعاني التي كانت تنفرع من حبيكتها — كالعبارات التي يلقيها شاب من الشبان ليغوى بها فتاة (٤٥). ولم يكن هذا التمثيل المطرب تمثيلاً لمسالى فحسب ، بل كان يشمل فوق ذلك وضع مناظر مسرحية فنية (وكان الذي رسمها في هذه المسرحية بالذات رفائيل نفسه) ، ورقصا فنيا ، وموسيقى بين الفصول تتكون من أغان وفرقة من العازفين على العود ، والكمان ، وأرغن صغير ، والآنفخين في القرون ، والقرب ، والقيف .

وقد كُتب في عهد ليو كتاب من أكبر الكتب التاريخية في عهد النهضة ، كتبه باولو جيوفيو . وكان باولو هذا من أبناء كومو Como ، وكان يمارس فيها وفي ميلان ورومة صناعة الطب ، ولكن الحماسة الأدبية التي انبعثت في البلاد عندما جلس ليو على كرسي البابوية أوجت إليه بأن يخصص ساعات فراغه لكتابة تاريخ العصر الذي يعيش فيه — من غزو شارل الثامن لإيطاليا حتى ولاية ليو — وأن يكتبه باللغة اللاتينية . وسمح له بأن يقرأ القسم الأول من هذا الكتاب على ليو ، فلما سمعه قال بكرمه المعتاد إنه أفصح وأظرف ما كتب في التاريخ منذ عهد ليفي Livy ، وأجازه عليه بأن يخصص له معاشاً من فوره . ولما توفي ليو ، استخدم جيوفيو ما أسماه « قلمه الذهبي » في كتابة ترجمة لحياة ليو شاد فيها بنصيره الراحل كما استخدم « قلمه الحديدي » للشكوى من البابا أدريان السادس الذي لم يعبأ به . وواصل في هذه الأثناء الكدح في تاريخ عصره حتى وصل به آخر الأمر إلى عام ١٥٤٧ ، ولما نهبت رومة في عام ١٥٢٧ أخفى المخطوط في إحدى الكنائس ، ولكن أحد الجنود عثر عليه ، وطلب إلى المؤلف أن يبتاع كتابه ، ولكن كلمنت السابع أنقذ باولو من هذه المذلة إذ أقنع اللص بأن يقبل بدل المال يؤدي إليه فوراً ، منصباً في أسبانيا ؛ وعين.

جيوڤيو فى الوقت نفسه أسقفا لنوتشيرا Nocera . وأثنى الناس على كتاب التاريخ وعلى التراجم التى أضيفت إليه لأسلوبه السلس الواضح ، ولكنهم عابوا عليه عدم العناية بتحرى الحقائق ، والتحيز الظاهر فيما يصدره من أحكام . وقد أقر جيوڤيو فى صراحة وعدم مبالاة بأنه يمدح أشخاص قصته إذا كانوا هم أو أقاربهم قد سخوا عليه ، وأنه كان يندد بهم إذا كان هؤلاء قد ضنوا عليه بالعطاء .

الفصل الرابع

الشعراء

لقد كان الشعراء أعظم مفاخر ذلك العصر ، وكان كل إنسان في رومة — من البابا نفسه إلى مهرجيه — يقرض الشعر ، كما كان يقرضه كل إنسان في اليابان في عهد الساموراي Samurai ، من الفلاح إلى الإمبراطور ، وكان كل إنسان تقريبا يصبر على أن يقرأ آخر أبيات قائلها إلى البابا السمح . وكان البابا يحب المهارة في الارتجال ، وكان هو نفسه بارعا في هذا ؛ وكان الشعراء يتبعونه أينما ذهب بقوا فيهم وقصائدهم الطوال ، وكان هو في العادة يجيزهم عليها بطريقة ما ، وإن كان في بعض الأحيان يكتفى بأ: يرد عليها بارتجال بعض النكت الشعرية اللاتينية . وقد أهدى له ألف كتاب ، أجاز أنجيلو كويتشي على واحد منها بأربعمائة دوق (١٠٠٠ رة ؟ دولار) ؛ لكنه حين أهدى إليه جيوفاني أو جوريلي Giovanni Augurelli رسالة بالشعر عنوانها كريسوپيا Chrysopoeia — أى فن صنع الذهب باستخدام الكيمياء — أرسل إلى المؤلف كيسا خلوا من النقود . ولم يكن يجد متسعا من الوقت يقرأ فيه جميع الكتب التي قبل أن تهدي إليه ؛ وكان من هذه الكتب المهداة التي لم يقرأها طبعة من ديوان روتليوس ناماتانوس Rutitus Namatianus — وهو شاعر روماني عاش في القرن الخامس الميلادي — كان يدعو إلى مقاومة المسيحية لأنها في رأيه سم مضعف للأعصاب ، ويطالب بالعودة إلى عبادة الآلهة الوثنية القوية المتصقة بصفات الرجولة (٤٧) . أما أريستو — الذي ربما بدا للبو أنه يجد ما يكفيه من العناية في فيرارا — فلم يكافئه إلا بمرسوم بابوي يحرم سرقة شعره . وبسرم أريستو من هذا وابتأس لأنه كان يرجو أن ينال مكافأة تتناسب مع طول ملحمة ؛

ولما خسر ليو أريستو قنع من فوره بشعراء أقل منه لألاء وأقصر
 قفصاً ، وكثيراً ما كان سخاؤه يفضله فيؤدي به إلى مكافأة ذوى المواهب
 السطحية نفس المكافأة التي يمنحها العباقرة . من ذلك أن جيدويستومو
 سلفستري Guido Postumo Sitvestri ، أحد أشراف بزارو ، كان قد
 قاتل بعنف ، وكتب بعنف ، ضد الإسكندر ويوليوس لاسيلاهما على
 بزارو وبولونيا . فلما ارتقى ليو عرش البابوية بعث إليه بقصيدة ظريفة
 يمتدحه فيها ويوازن بين سعادة إيطاليا في عهد البابا الجديد ، وما كانت
 عليه من البؤس والاضطراب في اليهود السابقة . وقدر له البابا عمله وأجازه
 عليه بأن رد له ما صودر من ضياعه ، واتخذته رفيقا له في صيده . لكن
 جيدو مات بعد قليل من ذلك الوقت ، ويقول بعض معاصريه إنه مات
 من كثرة ما كان يتناوله من الطعام على مائدة ليو^(٤٨) . وأسرع أنطونيو
 تيبليديو Antonio Tebaldeo ، الذى كان قد نال بعض الشهرة في قول
 الشعر في نابلي ، إلى رومة عقب انتخاب ليو ، ونال منه (كما تقول
 إحدى الروايات غير الموثوق بها) خمسمائة دوقية جزاء له على نكتة
 شعرية مشبهة^(٤٩) ، وسواء كانت هذه الرواية صادقة أو كاذبة فإن البابا
 عينه مشرفا على جسر سورجا Sorgia وجمع المكوس ممن يعبرونه
 حتى « يستطيع تيبليديو بهذا أن يعيش عيشة راضية »^(٥٠) . ولكن يبدو
 أن المال . الذى قد يعين على إنماء مواهب العلماء ، قلما يشحذ عبقرية
 الشعراء . فأخذ تيبليديو يكتب قصائد المدح ، وأصبح يعتمد بعد موت ليو
 على صدقات بمبو ، ولم يعد يبارح فراش النوم وإن كان لا يشكو من شيء
 إلا من فقد شهيته لشرب الخمر كما يقول صديق له . وطالت حياته
 وهو مستريح مستلق على ظهره ، وتوفى في الرابعة والسبعين من عمره .
 ونيغ فرانتشيسكو ماريا ملدسا Francesco Maria Molza من أهل مودينا
 بعض النبوغ في الشعر قبل ارتقاء ليو ، ولكنه لما سمع بحب البابا للشعر

وسخائه على الشعراء ، ترك أهله ، وزوجته ، وأبنائه ، وهاجر إلى رومة ، حيث أنساه إياهم افتتاحه بسيدة رومانية . وقال في رومة قصيدة رعبية قصيرة بليغة اسمها *موريّة تيرينا* La ninfa Tiberina يمتدح بها فوستينا منتشيني Faustina Mancini ؛ وهجم عليه أحد المجرمين وأصابه بجرح بليغ . وغادر الرجل رومة بعد وفاة ليو ، وانضم في بولونيا إلى حاشية الكردينال إپوايتوده ميديتشى ، الذى كان في بلاطه ، على حد قولهم — ثلثمائة شاعر ، وموسيقى وفكّيه . وكانت قصائده ملدسو الإيطالية أظرف ما قيل من الشعر في ذلك الوقت لا تستثنى من ذلك قصائد أريستو نفسها . وكانت أغانيه تضارع أغاني بترارك في أسلوبها ، وتفوقها في حرارتها ، وذلك لأن ملدسو كان يتقلب على نيران الحب واحدة بعد واحدة ، وكان على الدوام يحترق بها . ومات بداء الزهري في عام ١٥٤٤ .

وكان حكم ليو يزدان باثنين من كبار الشعراء أحدهما ماركنطونيو فلامينو Marcantonio Flaminio الذى يظهر ذلك العهد في أضواء سارة — يظهر عطف البابا الدائم على رجال الأدب ، ويكشف عما كان يحبو به فلامينو ونافاجيرو Navagero وفرانكستورو Francastoro وكستجليونى من صداقة لا يحسد أحدهم عليها غيره ؛ وإن كانوا الأربعة شعراء ، كما يكشف عن الحياة النظيفة التى كان يحياها أولئك الرجال في عصر كانت فيه الإباحية الجنسية مما تتغاضى عنه كثرة الناس . وقد ولد فلامينو في سراقالى Serravalle من أعمال فينيتو Veneto ، ووالده هو چيان أنطونيو فلامينو Gianantonio Flaminio وهو أيضاً شاعر . ودرّب الوالد ابنته على قرض الشعر وشجعه عليه ، مخالفاً في ذلك ألفاً من السوابق ، وبعثه وهو فى السادسة عشرة من عمره ليهدى إلى ليوقصيدة قالها الشاب يدعو فيها إلى حرب صليبية على الأتراك . ولم يكن ليو ممن يرتاحون إلى الحروب الصليبية ، ولكنه أظهر ارتياحه لشعر الشاب ، وكفل له مواصلة التعلم في رومة . وتولاه كستجليونى.

بعنايته ، وجاء به إلى أرينو (١٥١٥) ، ثم بعث الوالد بابه فيها بعد ليدرس الفلسفة في بولونيا . ثم استقر الشاعر أخيراً في فيتربو Viterbo في رعاية الكردنال الإنجليزي رچندبول Reginald Pole . وامتاز عن غيره بأن رفض منصبين عاليين ، منصب أمين ليو مشتركاً في ذلك مع سودوليتو ، ومنصب أمين لمجلس ترنت ، وكان يحصل على تأييد وهبات جمة من كثير من الكرادلة رعم ارتياهم في أنه يعطف على حركة الإصلاح البروتستنتي . وكان طوال تجواله كله يثوق للحياة الهادئة والهواء النظيف اللذين يجدهما في بيت أبيه الريني القريب من إمولا . وكانت قصائده كلها تقريباً باللغة اللاتينية كما كانت كلها تقريباً قصائد قصارا في صور أغان ، وأناشيد رعاة ، ومراث ، وترانيم ، ورسائل للأصدقاء من طراز رسائل هوراس ، ولكنه يعود فيها مرة بعد مرة إلى حبه لمرايضة الريفية القديمة :

سأبصرك الآن مرة أخرى ، وسيتبع ناظري لرؤية الأشجار التي غرسها يد أبي ، وسيفيض قلبي فرحاً حين أنذوق قليلاً من النوم الهادئ في غرفتي الصغيرة . وكان يشكو من أنه سجين في ضوضاء رومة وصخبها ، ويحسد صديقاً له صوره بأنه يختفي في ملجأ قروي يقرأ « كتب سقراط » و « لا يفكر مطلقاً في التكريم التافه الذي يمنحه إياه الجمهور الحقير » (٥٢) .

وكان يحلم بالتجوال في الوديان الخضراء مع فلوصي فرجيل ورعاة ثيوفريطس ويتخذهم له رفاقاً . وأشد أشعاره تأثيراً هي الأبيات التي كتبها إلى أبيه وهو على فراش الموت :

« لقد عشت يا أبتاه عيشة طيبة سعيدة ، لم تكن فيها بالفقر ولا بالغنى ، حصلت فيها على كفايتك من العلم والفصاحة ، وكنت على الدوام قوى الجسم ، سليم العقل ؛ بشوشاً تقياً لا يجار بك في تقواك أحد . حتى إذا أتممت الثمانين من عمرك انتقلت إلى شواطئ الآلهة المباركة . ارحل إليها يا أبتاه ، وخذ بعد قليل ابنتك معك إلى مقعدك الأعلى في السماء » .

وكان ماركو جيرولامو فيدا Marco Girolamo Vida أطوع لأغراض
ليو من غيره من الشعراء . وقد ولد ماركو هذا في كريمونا ، وأتقن اللغة
اللاتينية ، وبرع فيها براعة أمكنته من أن يكتب بها كتابة ظريفة القصائد
التعليمية في فن الشعر نفسه ، أو في تربية دود القز ، أو في لعبة الشطرنج .
وقد سر ليو من هذا سروراً حمله على أن يرسل في طلب فيدا ، ويثقله
بالهبات ، ويرجوه أن يتوج آداب ذلك العصر بملحمة لاتينية في حياة المسيح .
وهكذا بدأ فيدا ملحمة الكرستيادة Christiad التي مات ليو السعيد قبل أن
يراها . وحذا كلمنت السابع حذو ليو في رعاية فيدا ، وحباه بمنصب
أسقف لبعيش منه ، ولكن كلمنت أيضاً مات قبل أن تنشر الملحمة
(١٥٣٥) . وكان فيدا راهباً قبل أن يبدأها ، وأمقفاً حين فرغ منها ،
ولكنه لم يستطع أن يحجز نفسه عن الإشارات المتصلة بالأساطير اليونانية
والرومانية القديمة التي كانت تملأ الجلو نفسه في أيام ليو ، وإن بدت
مضطربة مخيفة في نظر الذين أخذوا ينسون أساطير اليونان والرومان
ويجعلون المسيحية نفسها أساطير أدبية . فنحن نرى فيدا في هذه الملحمة
يقول عن الإله الأب إنه « أبو الآلهة مسخر السحاب » ، وإنه « حاكم
أوليس » ، ولا ينفك يصف يسوع بأنه هموسى ويأتى بالفرغونات ،
وربات الانتقام ، والقنطورات ، والأفاعى الكثيرة الرعوس (*) لتطالب
بموت المسيح . لقد كان هذا الموضوع النبيل خليقاً بهجر من الشعر أكثر
مواعمة له بدل أن يقلد الشاعر الإنياذة . وليست أجل الأبيات في شعر فيدا
هى التي يخاطب بها المسيح في الكرستيادة ، بل هى التي يخاطب بها فرجيل في
فن الشعر وهى أبيات تعز على الترجمة ولكننا سنحاول نقاها فيما يأتى :

(*) كل هذه كائنات خرافية غريبة ورد ذكرها في الأساطير اليونانية القديمة -
(المترجم)

أى مجد إيطاليا ! يا أسطع الأضواء بين الشعراء ! إنا لنعبدك
بما نقدمه لك من الأكاليل والبخور والأضرحه ؛ وإليك ننشد على الدوام
ما أنت خالق به من التسابيح القدسية ؛ ونستعيد ذكراك بالترانيم : مرحباً بك
يا أعظم الشعراء قداسة ! إن ثناءنا عليك لا يزيد قط من مجدك ، وليس
هذا المجد فى حاجة إلى أصواتنا . ألا فأقبل وانظر إلى أبنائك ، وصب
روحك الدفئة فى قلوبنا الطاهرة ؛ أقبل يا أبتاه ، وامزج نفسك بأرواحنا .

الفصل الخامس

صحوة إيطاليا

كان من أسباب قوة الروح الوثنية في ذلك العصر وجود الفن القديم فيها ونجاحاته من الدمار ؛ وكان بيجيو ، وبيندو ، وبيوس الثاني قد نددوا بتدمير المباني الرومانية القديمة وقاوموا هذا التدمير ، ولكنه ظل مع ذلك يجري في مجراه ، وأكبر الظن أنه قد ازداد حين استطاعت رومة بما تدفق فيها من المال أن تشيد عمائر جديدة أكبر من عمائرها القديمة وتستخدم فيها بقايا هذه العمائر في عمل الجير . واستخدم بولس الثاني جدار الكلوسيوم الحجري في بناء قصر سان ماركو ؛ وهدم سكستس الرابع معبد هرقل وحول أحد جسور نهر التبر إلى قلائف للمدافع ، وانتزعت المواد التي بنيت بها كنيسة سانتا ماريا مجيوري ، وفسقتان عامتان ، وقصر للبابا في الكويرينال ، انتزعت هذه كلها من معبد الشمس . بل إن الفنانين أنفسهم كانوا همجاً مخربين دون أن يشعروا ، فها هو ذا ميكل أنجيلو مثلاً يستخدم أحد العمد في معبد كاستروپلكنس ليصنع منه قاعدة لتمثال ماركس أورلبوس الفارس ، وها هو ذا رفائيل يأخذ جزءاً من عمود آخر في هذا المعبد نفسه ليصنع منه تمثالاً ليونان (يونس) ، واقتلعت المواد اللازمة لبناء معبد سستيني من تابوت هدریان ، وأخذ الرخام الذي شيدت به كنيسة القديس بطرس كله تقريباً من المباني القديمة ؛ وانتزعت إلى هذا الضريح الحديد نفسه أحجار القدمة(*) ؛ والدرج ، والقوصرة من هيكل أنطونيوس وفوستينا ، وأقواس النصر التي أقيمت لفابيو مكيسيموس وأغسطس ، وهيكل

(*) الجدار المحيط بالرملة التي يتجالد فيها المتحالدون . (المترجم)

رميولوس بن مكسنطيوس . وهدم البناعون الجدد أو جردوا في أربع سنين بالضبط (من ١٥٤٦ - ١٥٤٩) هياكل كاستروبلكس ، ويوليوس قيصر ، وأغسطس (٥٥) . وكانت حجة أولئك الهدامين أنه قد بقي في البلاد بعد هذا الهدم كفايتها من الآثار الوثنية ، وأن الخربات القديمة المهمة تشغل فراغاً عظيم القيمة ، ونحول دون إعادة بناء المدينة بنظام حسن ، وأن المواد التي يستولون عليها كانت في معظم الأحوال تستخدم في تشييد كنائس مسيحية لا تقل عن هذه الآثار القديمة جمالا ، وهي بطبيعة الحال أحب منها إلى الله . وكانت الأثرية التي تراكت فوق هذه الآثار على مدى الأيام دون أن تسببن العين فعلها قد دفنت في الوقت عينه السوق الكبرى وغيرها من الأماكن التاريخية تحت طبقات متتالية من التراب ، والأتقاض ، والنبات ، حتى أصبحت السوق تحت مستوى ما يحيط بها من أرض المدينة بثلاث وأربعين قدماً ؛ وقد ترك موضعها حتى أصبح معظمه أرضاً للرعى سميت « حقل البقر » Campo Vaccino . ألا إن الزمان هو أكثر عوامل التخریب والتدمير .

وكان تدفق الفنانين والكتاب الإنسانيين على رومة سبباً في إبطاء مرعة التدمير ، وفي إيجاد حركات تهدف إلى المحافظة على الآثار القديمة . وأخذ البابوات يجمعون آثار النحت الوثنية وقطعاً من الأبنية القديمة يضعونها في متحف الفاتيكان والكتبول ، كما أخذ يجيو ، وآل ميديتشي ، ومجنوس ليتوس ، ورجال المصارف ، والكرادلة يجمعون كل ما يستطيعون الحصول عليه من الآثار القديمة ذات القيمة ليكونوا منها لأنفسهم مجموعات خاصة . ومن أجل هذا اتخذت كثير من تحف النحت القديمة طريقها إلى قصور الأفراد وحدايقهم ؛ وبقيت فيها حتى القرن التاسع عشر ؛ ووجدت من ثم أسماء مثل فاويز^(١) ، وبربريني ، وعمرش لدوڤيزي Ludovisi وهرقول فرنيزي .

(*) Faun إله الخمر عند الرومان . (المآثر حم)

واهتزت رومة كلها من نشوة الفرح حين كشف المنقبون (١٥٠٦)
بالقرب من حمامات تيتوس عن مجموعة من التماثيل الجديدة كثيرة التعقيد ..
وأرسل يوليوس الثاني جوليانو دا سنجالو لفحصها ، وذهب أيضاً ميبكل
أنجيلو لهذا الغرض ، ولم يكد جوليانو يبصر التمثال حتى صباح من فوره :
« هذا هو اللاكون الذى ذكره بلنى » واشتراه يوليوس ليضعه فى قصر
بلقدير ، ووظف لمن عثر عليه ولابنه معاشاً سنوياً طول حياتهما قدره ٦٠٠
دوقه (٩٧,٥٠٠ دولار) ؛ ذلك أن روائع النحت القديمة قد أضحت فى
ذلك الوقت عظيمة القيمة . وشجعت هذه المكافآت المقيمين عن التحف
الفنية ؛ وحدث بعد عام من ذلك الوقت أن عثر واحد منهم على مجموعة
أخرى هى هرقول مع الطفل تلفوس ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى
عثر على أوربانا النائم ، وأضحى الحرص على كشف التحف الفنية القديمة
لا يقل قوة عن التحمس للكشف عن المخطوطات القديمة . وكانت هاتان
العاطفتان صفتين قويتين من صفات ليو . فى أيام ولايته كشف عما يسمونه
الفلابيتوس وعن تمثالى النيل والتير ، وقد وضع هذان التمثالان فى متحف
الفاتيكان . وكان ليو يبتاع بالمال كلما استطاع من الجواهر ، والحلى المنقوشة ،
وغيرها من روائع الفن المتفرقة التى كانت فى وقت ما ملكاً لآل ميديتشى ،
ويضعها كلها فى قصر الفاتيكان . وأخذ ياقوبو مذكى Jacopo Mazochki
وفرانتيشكو ألبرتيتى بفضل مناصرتهم ينقلان مدى أربعة أعوام كل ما يعثران
عليه من نقوش على الآثار الرومانية ، وواصلوا بذلك بما قام به قباهما
الراهب چيوكوندو وغيره من الرهبان . ثم نشرنا هذه النقوش باسم
النفوس القديمة فى المردى الرومانية (١٥٢١) ، وكان نشرها حادثاً هاماً
فى علم الآثار الرومانية القديمة .

وفى عام ١٥١٥ عين ليو رفائيل مشرفاً على الآثار القديمة ؛ ووضع

المصور الشاب بمعونة مدسوكى ، وأندريا فلفيو ، وفابيو كلفا ، وكستجليونى ؛ وغيرهم من الفنانين خطة أثرية واسعة ؛ وفى عام ١٥١٨ وجه إلى ليو رسالة يستحلف فيها هذا الحبر الجليل أن يستعين بسلطان الكنيسة على حفظ جميع الآثار للرومانية القديمة . وقد تكون ألفاظ الرسالة هى ألفاظ كستجليونى ، أما روحها القوية ففيها نعمة رفائيل .

« إنا حين نفكر فى قداسة تلك الأرواح القديمة ... وحين نبصر جثة هذه المدينة الجلييلة ، أم العالم وملكته ، وقد قدست هذا ... الشائن ... لا يسعنا إلا نتصور كم من الأحبار قد أجازوا تخريب المعابد ، والتمائيل ، والعقود وغيرها من المباني القديمة ، التى تنطق بمجد من شادوها ! ... ولست أتردد فى القول إن رومة الجديدة هذه بأجمعها التى نشاهدها أمامنا الآن ، مهما بلغت من العظمة ومهما حوت من جمال وازدانت بالقصور ، والكنائس ، وغيرها من الصروح الفخمة - لست اتردد فى القول إن رومة هذه قد أمسكها الحبر الذى صنع من الرخام القديم ... »

وتذكرنا هذه الرسالة بمقدار ما حدث من التدمير حتى فى خلال السنوات العشر التى قضها رفائيل فى رومة ؛ وهى تلقى نظرة عامة على تاريخ العمارة ، وتندد بالهمجية الفجة التى كان يتسم بها الطرازان الرومى والقوطى (واللذين يسميان فيها القوطى التيونونى) ، وتمجد الأنماط اليونانية - الرومانية ، وتراها نماذج للكمال وحسن الذوق ، وتقترح الرسالة أخيراً تكوين هيئة من الخبراء ، وتقسم رومة إلى الأقسام الأربعة عتر التى حددها أغسطس فى الزمن القديم ، على يسمح كل قسم منها مسحا دقيقة وأن يسجل كل ما فيه من الآثار القديمة . غير أن موت رفائيل المبكر الذى أعقبه بعد قليل موت ليو قد أخر تنفيذ هذا المشروع الجليل زمنياً طويلاً .

ظهر تأثير هذه المخلفات المكتشفة فى كل فرع من فروع الفن .

والتفكير ، وتأثر بها يرونلسكو ، وألبرتي ، وبرامنتي ؛ ووصل هذا الأثر إلى الدرجة العليا حتى لم يكن الفن عند بلاديو Palladio إلا صورة أخرى من الأشكال القديمة تكاد تكون خاضعة لها كل الخضوع . وكان جبرتي ودوناتيلو قد حاولا من قبل أن يتخذا الأشكال القديمة نماذج لهما ، فلما جاء ميكل أنجيلو وصل في تقليده الفن القديم إلى درجة الكمال في تمثال بروثي ، ولكنه بقي فيهما عداه هو ميكل أنجيلو نفسه صاحب النفس القوية غير الخاضعة للفن القديم . وحول الأدب علوم الدين المسيحية إلى أساطير وثنية واستبدل أو ليس بالحنة ، أما في التصوير فقد ظهر تأثير الفن القديم في صورة موضوعات وثنية وأجسام عارية وثنية لم تخل منها لموضوعات المسيحية نفسها . وحسبنا دليلا على هذا أن رفائيل وهو نفسه محبوب البابوات قد رسم صوراً لسيكي Psyche^(*) ، وفيينوس وكيوبد على جدران القصور ؛ وكانت الرسوم القديمة والزخارف العربية تعلو العمود وتمتد على الطنف والأفاريز في ألف بناء من أبنية رومة .

وظهر انتصار الفن القديم بأجلى مظهره في كنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ وقد عين ليوفيا برامنتي : رئيساً للأعمال . واحتفظ به في هذا المنصب أطول وقت مستطاع ؛ ولكن المهندس المعاري الطاعن في السن أقعده داء الرثية ، ولذلك عهد إلى الراهب چيوكوندو أن يساعده في عمل الرسوم التخطيطية ؛ بيد أن چيوكوندو نفسه كان يكبر برامنتي الذي كان في السبعين من عمره ، بعشر سنين . وفي شهر يناير من عام ١٥١٤ عين ليو جولياتو داسينجلو ، وهو أيضاً في سن السبعين ، للإشراف على العمل ؛ ولما حضرت برامنتي الوفاة حث البابا أن يعهد بالمشروع إلى رجل نـ: مقتيل العمر ، وذكر له اسم رفائيل بالذات . وارتأى ليو أن يحل المشكلة حلا وسطا ؛ فعين في شهر أغسطس من عام ١٥١٤ الشاب رفائيل

(*) في الأساطير الرومانية القديمة أميرة حسناء دبت الغيرة من جلالها في قلب فيينوس نفسها . (المترجم) .

والشيخ الراهب چيوكنندو مديرين مشتركين للمشروع ، وقضى رفائيل بعض الوقت يعمل بهمة وحاسة في العمل الذي لم يكن يتفق مع مزاجه وهو عمل المهندس المعماري ، وقال إنه لن يعيش بعد ذلك الوقت إلا في رومة يغريه بهذا « حبه في بناء كنيسة القديس بطرس . . . أعظم بناء رآه الإنسان حتى ذلك الوقت » ؛ ثم يقول بعد ذلك بتواضعه المعروف .

« ستبلغ تكاليف المشروع مليون دوقة ذهبية ، وقد أمر البابا بتخصيص ٦٠,٠٠٠ للعمل ، وهو لا يفكر في زيادتها ؛ وقد ضم إلى راهبا تعوزه الخبرة تجاوز سن الثمانين ، وهو يرى أن هذا الراهب لن يعيش طويلا ، ولهذا اعتزم قداسته أن يجعلني أفيد من علم هذا الصانع المماثل حتى أبلغ أعظم درجة من الكفاية في فن المعمار ، الذي يعلم الراهب من أسرار ما لا يعرفه سواه والبابا يستقبلنا ويستمع إلينا كل يوم ، ويظل وقتاً طويلاً يحدثنا عن مشروع البناء .

وتوفي الراهب چيوكنندو في أول شهر يوليو من عام ١٥١٥ وفي اليوم نفسه انسحب جوليان داسنجلو من جماعة المصممين . وبذلك أصبح الرئيس الأعلى للعمل كله ، فرأى أن يستبدل بتخطيط برامتي لقاعدة الكنيسة تخطيطاً آخر على شكل صليب لاتيني غير متساوي الأذرع ، ووضع تصميماً لسقف مقبب أثبت أنطونيوداسنجلو (ابن أخي جوليانو) أنه ثقیل لا تتحمله العمدة التي يقوم عليها . وفي عام ١٥١٧ عين أنطونيو مهندساً معمارياً مشتركاً مع رفائيل ، ولكن الخلاف نشأ بينهما في كل خطوة من خطوات العمل ، وكثرت في الوقت عينه أعمال رفائيل في التصوير ، فنقد اللذة في المشروع . وحدث أيضاً أن أعوز المال ليو ، فحاول أن يجمع ما يستطيعه منه ببيع صكوك الغفران ، وكانت نتيجة هذا أن اصطدم بدعاة الإصلاح الديني الألماني (١٥١٧) . ولم يتقدم بناء كنيسة القديس بطرس إلا بعد أن عهد إلى ميكل أنجيلو بالعمل في عام ١٥٤٦ .

الفصل السادس

ميكل أنجيلو وليو السادس

كان يوليوس الثاني قد ترك أموالاً لمنفذى وصيته ليستعملوها في إتمام القبر الذى صممه له ميكل أنجيلو أو بالأحرى لينقلوا صورة مصغرة من هذا التصميم . وأخذ الفنان يقوم بهذا الواجب خلال السنين الثلاث الأولى من بابوية ليو ، وتلقى من منفذى الوصية في تلك السنين ٦١٠٠ دوقه (٢٧٦٢٥٠٠ ؟ دولاراً) . والراجح أن معظم الأجزاء الباقية من هذا الأثر

حتى الآن قد أنشئت في ذلك الوقت هى وتمثال قيام المسيح القائم في كنيسة سانتا ماريا وهو تمثال لشخص رياضى عار وسم ستر فيما بعد حققوا بغطاء من البرنز ليتفق مع ذوق عصر من ستروه ، ويصف ميكل أنجيلو في خطاب له كتبه في شهر مايو من عام ١٥١٨ كيف جاء سنيورلى Signorelli إلى مرسمه ، واقترض منه ثمانين جويلينا (٨٠٠٠ ؟ دولار) لم يردها له أبداً ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « ورآنى أعمل في تمثال من الرخام يبلغ ارتفاعه أربع أذرع ويداه مشدودتان وراء ظهره » (٥٧) . وأكبر الظن أن هسنا

التمثال هو أحد تماثيل الأسرى وهى تماثيل يراد بها تصوير المدن أو القنون التى أسرها الباب المحارب ؛ وفي متحف اللوفر تمثال ينطبق عليه وصفها : فهو يمثل شخصاً مفتول العضلات عارياً إلا من قطعة من النسيج تستر حقويه ، ويداه مربوطتان خلف ظهره برباط بلغ من شدته أن الحبال غائرة في لحمه . ويرى بالقرب منه أسير أجهل منه عار إلا من عصبة ضيقة حول الصدر ؛ وهنالم يتغال الفنان في إبراز العضلات ، والجسم يجمع بين الصحة والجمال متناسين ويظهر فيه الفن اليونانى بأكمل مظاهره . وفي المجموع العلمى

بمدينة فلورنس تماثيل لأربعة من العير ، كان يقصد بها فيما يظهر أن تكون عمداً في صورة نساء يستند عليهما ما فوقها من بناء القبر ، ويوجد هذا القبر الناقص الآن في كنيسة يوليوس في سان بيترو ببلدة فنكولى Vincoli ، وهو يمثل عرشاً فخماً ، ذا عمد منحوتة نحتاً ظريفاً ، وعليه صورة موسى جالساً — وهي صورة مخلوق ضخم فظيع غير متناسب الأجزاء ذى لحية وقرنين وجهة تم عن القضب الشديد ، يمسك بيده ألواح الشريعة ، وإذا شئنا أن نصدق قصة بعيدة عن المحقول يروها فاسارى ، فإن اليهود كانوا يشاهدون في كل سبت وهم يدخلون الكنيسة ليعبدوا هذا التمثال ، لا على أنه من صنع البشر بل على أنه شيء إلهي (٥٨) . ونرى ليحا عن يسار موسى وراشل عن يمينه ، وهما تمثالان يسميهما ميكل : « الحياة العاملة المفكرة » أما ما بقي من الأشكال على القبر فقد نحتها مساعده في غير عناية . ومن هذه صورة للعداء تحقيق صورة موسى ، وعند قدميها صورة يوليوس الثاني نصف متكئ ، يوعلى رأسه التاج البابوي . والأثر كله عمل ناقص يمثل كدحاً غير متواصل في سنين متفرقة ما بين ١٥٠٦ و ١٥٤٥ ، وهو عمل مضطرب مرتبك ، ضخم ، غير متناسق ومسيخيف .

وبينا كان الفنان وأعوانه ينحتون هذه الأشكال ، لاحت ليو — ولعل ذلك كان أثناء إقامته في فلورنس — فكرة إتمام كنيسة سان لورندسو في تلك المدينة . وكانت هذه الكنيسة أولاً ضريح آل ميديتشى ، وتضم قبور كوزيمو ، ولورندسو وكثيرين غيرهما من أفراد تلك الأسرة . وكان برونكسكو قد بنى الكنيسة ، ولكنه لم يتم واجهتها ، ولهذا طلب ليو إلى رفايل ، وجوليانو دا سنجلو ، وباكشيو دا نبولو Baccio d'Agnolo ، وأندريا وياقوبو سانسو فينو أن يعرضوا عليه تصميمها يضعونه لإتمام واجهتها . لكن ميكل أنجيلو بعث إلى البابا بتصميم وضعه هو ، ويظهر أنه وضعه من تلقاء نفسه ، وقبله ليو لأنه رآه أحسن من كل ما عرض عليه

ومن ثم فإنه لا يصلح أن يوجه اللوم إلى البابا ، كما وجهه إليه الكثيرون ، لأنه ألهم ميكل عن عمله في قبر يوليوس . وبعث ليو بميكل إلى فلورنس . ومنها ذهب إلى كرارا ليقطع من محاجرها أطنانا من الرخام . ولما عاد إلى فلورنس استأجر مساعدين لمعاونته في العمل ، ثم تشاحن معهم ، وردهم على أعقابهم ، وقضى بعض الوقت يفكر ولا يعمل شيئاً فيما أتى عليه من عمل لا يستريح له ، هو عمل المهندس المعماري . وحدث أن استولى الكردينال جوليو ابن عم ليو على بعض الرخام الذي لم يكن يفتنع به ليستخدمه في الكنيسة ، فغضب لذلك ميكل ولكنه ظل يتباطأ في العمل ، حتى إذا كان عام ١٥٢٠ أعفاه ليو أخيراً من العقد الذي وقعه ، ولم يطلب حساباً عن المال الذي دفعه مقدماً للفتان . ولما أن طلب سيستيانو دل ييميو إلى البابا أن يعهد إلى ميكل أنجيلو بعمل آخر ، لم يستجب ليو لهذا الطلب . فقد كان يقر لميكل أنجيلو بتفوقه في الفن ، ولكنه قال : « إنه رجل مزعج ، كما ترى ذلك أنت نفسك ، ولا أرى سبيلاً إلى الاتفاق معه » : ونقل سيستيانو هذا الحديث إلى صديقه ، وأضاف إليه قوله : لقد قات لقداسته إن أساليبه المزعجة لم تسبب أذى لأى إنسان ، وإن إخلاصك للعمل العظيم الذى وهبت نفسك له هو وحده الذى يجعلك تبدو مزعجاً لغيرك من الناس » (٥٩) .

ترى ما هذا الإزعاج الذى اشتهر به ميكل أنجيلو . إنه أولاً وقبل كل شيء جهده العظيم ، وهو تلك القوة العاصفة ، المضنية التى كانت تعذب جسم ميكل أنجيلو ، ولكنها أبقت عايه مدى تسع وثمانين سنة ، وهى ثانياً قوة فى الإرادة ظلت تسخر هذا الجهد وتوجهه نحو هدف واحد — هو الفن — وتغفل كل ما عداه تقريباً ، والجهد الذى توجهه إرادة جماعة موحدة يكاد يكون هو التعريف الصحيح للعبقرية ، ولقد كان ذلك الجهد الذى يرى فى الحجر الذى لا شكل له تحدياً له ، ثم ينشأ فيه محالبه ، ويدقه بمطارقته ،

ويحفره بمثقبه حتى ينكشف عن شيء ذي معنى ، هو نفس القوة التي اكتسحت أمامها وهي غاضبة كل ما يحولها عن غرضها من سفاسف الحياة ، فلا تفكر في الملبس ، ولا النظافة ، ولا المجاملات السطحية ، ثم أخذت تتقدم نحو غايتها تقدماً إن لم يكن أعمى فقد كان على عيذه غماء ، يسير فوق وعود حائثة ، وصدافات خاسرة ، وصحة منهوكة ، وأخيراً فوق روح محطمة ، تترك الجسم والعقل مهشمين ، ولكنها تنجز العمل - تنجز أروع الصور ، وأروع الآثار المنحوتة ، وعددًا من أعظم المباني ، التي تمت في ذلك الزمن . ولقد صدق ميكل أنجيلو حين قال : « إذا أعانى الله - فسأخرج أجل ما شهدته إيطاليا في حياتها كلها » (٦٠) .

وكان ميكل أنجيلو أقل الناس وسامة في عصر اشتهر بجمال الجسم وفخامة الثياب . كان متوسط الطول ، عريض المنكبين ، نحيل الجسم ، كبير الرأس ، مرتفع الجبهة ، أذناه بارزتان إلى ما بعد وجنتيه ، وصدغاه بارزان إلى ما بعد الأذنين ، وجهه مستطيل قائم ، وأنفه أقطس ، وعينهاه صغيرتان حادتان ، وشعر رأسه ولحيته أشعث - هكذا كان ميكل أنجيلو في مستقبل عمره . وكان يرتدى ملابس قديمة ، ويتعلق بها حتى تصبح وكأنها جزء من جسمه ، ويبدو أنه كان يطبع نصف نصيحة أبيه : « أحرص على ألا تغتسل ، حُك جسمك ولكن لا تغتسل » (٦١) . وكان ، وهو الرجل الغنى ، يعيش معيشة الفقراء ، معيشة الضغط لا معيشة الاقتصاد ، يأكل أى شيء تصل إليه يده ، ويكتفى أحياناً بكسرة من الخبز . ولما كان في بولونيا ، كان هو والعمال الثلاثة الذين يشتغلون معه يسكنون في حجرة واحدة ، وينامون على سرير واحد . ويقول عنه كندبثي : « وكان وهو في عنفوان الصبا ينام في ثياب النهار ، لا يخلع منها شيئاً حتى حذاءيه الطويانين ، اللذين كان يخلعهما على الدوام لأنه كان لديه استعداد للإصابة بتقلصهما » .

العضلات وكان في بعض فصول السنة يظل محتدياً هذين الخدابين
زماً بلغ من طوله أنه إذا خلعهما انسلخ جلده من جلد الخداء « (٦٣) »
ويقول فاسارى في هذا : « إنه لم يكن يرغب في أن يخلع ثيابه ، لا لسبب
إلا لأنه لا يريد أن يضطر إلى لبسها مرة أخرى » (٦٣) .

وكان يفخر بكرم محتده المزعوم ، ولكنه كان يفضل الفقراء على
الأغنياء ، والسذج على ذوى العقول الراجحة ، وكدح العامل على ما يتحبه
الثراء من فراغ وترف . وكان يخرج عن معظم مكسبه ليعول أقاربه
العاجزين ، وكان يحب العزلة ، لا يطيق أن يتحدث بضع كلمات إلى ذوى
العقول الخاملة ، وكان أيتماً وجد يتابع أفكاره الخاصة . وكان قليل العناية
بالنساء الحسان ، واقتصد الكثير من المال بالتزام العفة ولما أن أظهر
أحد القساوسة أسفه لأن ميكل أنجيلو لم يتزوج ولم ينجب أبناء رد عليه
ميكل أنجيلو بقوله : « إن الفن عندى أكثر من زوجة ، وهو زوجة
سيبت لى ما يكفينى من المتاعب ؛ أما أبنائى فهم الأعمال التى سأخلفها ،
ولذا لم تكن هذه الأعمال ذات قيمة كبيرة ، فلا أقل من أنها ستبقى بعض
الوقت » (٦٤) ولم يكن يطيق وجود النساء فى بيته ، وكان يفضل عليهن
الذكور فى رفقته وفى فنه على السواء . وقد رسم النساء ولكنه رسمهن دائماً
وهن أمهات ناضجات ، ولم يرسمهن وهن فتيات فائنات ساحرات . ومن
الغريب أنه هو وليوناردو كانا فيما يلوح لا يحسان بجمال المرأة الجملى ،
مع أن معظم الفنانين كانوا يرونه منبع الجمال . بل الجمال نفسه مجسداً .
وليس لدينا ما نستدل منه على أنه كان لا نطأ ، ويبدو أن كل ما كان
لديه من نشاط يمكن أن ينصرف إلى الاتصال الجنسي ، كان يستنفده عمله .
ولما كان في كرارا كان يقضى اليوم كله راكباً جواده ، يصدر التعليمات
إلى قاطعى الحجارة ومعبدى الطريق ، ويقضى المساء فى مسكنه يدرس

الخطط في ضوء المصباح ، وبحسب النفقات ، ويرتب أعمال الغد . وكانت ثقابه قترات يبدو فيها خاوا ، ثم تملكه فجاءة حتى الإنتاج ، فلا يبالي بأى شيء حتى انتهاب رومة .

وقد حال انهماكه في العمل بينه وبين صداقة الناس ، وإن كان له بعض الأصدقاء الأوفياء ، « وكلما كان صديق أو غير صديق يطعم على مائدته » (٦٥) . وكان يقنع بصحبة خادمه الأمين فرانتشيسكو ديجلي أمادورى Francesco degli Amadore الذى ظل نحواً وعشرين سنة يعنى به ، ووظل كثيراً من السنين يشاركه فراشه . وقد اغتنى فرانتشيسكو من هبات ميكيل ، ولما مات (١٥٥٥) تفطر قلب الفنان حزناً عليه . أما في معاملة غيره من الناس فقد كان حاد الطبع سليط اللسان ، عنيفاً في نقده ، سريعاً في غضبه ، يرتاب في كل الناس . وكان يصف بروجيا بأنه أبله ، وعبر عن رأيه في صور فرانتشيا بأن قال لابن فرانتشيا الوسيم إن والده يرسم من الأشكال بالليل أحسن مما يرسمه منها بالنهار (٦٦) . وكان فرانتشيا بغار من نجاح رفائيل وحب الناس إياه ؛ ومع أن كلا الفنانين كان يحب صاحبه فإن مؤيديهما انتسموا إلى فئتين متشاحتين ، حتى بلغ من أمرهم أن بعث ياقوبو سانسو فينو برسالة إلى ميكيل يسبه فيها سباً قاذعاً ويقول : « لعنة الله على ذلك اليوم الذى تنطق فيه بأى خبر عن أى إنسان على ظهر الأرض » (٦٧) . ولقد مرت به أيام قلية ينطبق عليها هذا الوصف ، منها أن ميكيل شاهد صورة لألفنسو دوق فيرارا من عمل تيشيان فقال إنه لم يكن يظن أن الفن يمكن أن يصنع هذا الصنع العجيب ، وإن تيشيان وحده هو الخلق بأن يسمى مصوراً (٦٨) . وكان مزاجه المرير ، وطبيعته المكتئبة هما المأساة التى لازمته طول حياته ، فكانت تمر به أوقات يشتد فيها اكتئابه حتى يشرف على الجنون ، استحوذ عليه خوف الجحيم حتى ظن أن فنه

من الخطايا ، وأخذ يتبرع بالبائنات إلى الفقيرات من القتيات ليسترضى
بتلك ربه الغضوب^(٦٩) : وسبب له إحساسه المرهف اضطراباً في الأعصاب
جلب عليه شقاء لم يكده يفارقه يوماً واحداً . انظر إلى ما كتبه لوالده
في عام ١٥٠٨ لا بعد : « لقد مضت الآن خمسة عشر عاماً منذ استمتعت
بساعة واحدة من الطمأنينة »^(٧٠) . ولم يستمتع بعدئذ بكثير من هذه الساعات
وإن كان قد بقي من عمره ثمان وخمسون سنة .

الفصل السابع

رفائيل وليو العاشر : ١٥١٣ - ١٥٢٠

يرجع بعض السبب في إهمال ليو ليكل أنجيلو إلى أن البابا كان يجب الرجال والنساء ذوى الخلق المعتدل المتزن ، كما يرجع بعضه الآخر إلى أنه لم يكن شديد الحب لفن العمارة أو إلى الضخامة في الفن بوجه عام ، فقد كان يفضل الجوهرة النفيسة على الكنيسة الكبرى ، ويفضل الزخارف الصغرى على الآثار الضخمة . وقد شغل كاردسا Caradossa ، وسانتى ده كولاسبا Santi de Cola Sabba ، ومشيلي نادريني Michele Nardini وغيرهم من الصياغ بصنع الجواهر ، والنقش عليها ، والمديليات ، والنقود ، والآنية المقدسة . وترك وراءه بعد وفاته مجموعة من الحجارة النفيسة ، والياقوت ، والياقوت الأزرق (الصغير) ، والزمرد ، والماس ، واللؤلؤ ، وتيجان البابوات والأساقفة ، وترك من الصور ما تبلغ قيمته ٢٠٤,٦٥٥ دوقه أى أكثر ٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار . على أننا يجب أن نذكر أن الجزء الأكبر من هذه الثروة قد ورثها من أسلافه ، وأنها كانت جزءاً من الكنوز البابوية التى لا يصيبها تخفيض قيمة العملة المتداولة .

وقد دعا نحو عشرين من المصورين إلى رومة ، ولكن رفائيل يكاد يكون هو المصور الوحيد الذى عنى به حقاً . لقد جرب ليوناردو ثم طرده لأنه كان في رأيه مهذاراً مضيقاً لوقته ، وجاء الراهب بارتولميو إلى رومة في عام ١٥١٤ ورسم صورة للقديس بطرس وأخرى للقديس بولس . ولكن هواء رومة وما فيها من حركة وما تثيره في النفس من احتياج لم توافقه ؛ فلم يلبث أن عاد إلى الهدوء الذى اعتاده في دير فلورنس . وأحب ليو عمل سودوما ؛ ولكنه لم يكند يجرر على أن يترك هذا المستهتر يحول حراً في قصر

الفاتيكان ؛ واستحوذ جوليو ده ميديتشى ابن عم ليو على سبستيانودل بيمبو .
وكان رفائيل يتفق مع ليو فى مزاجه وذوقه جميعاً ، فقد كان كلاهما
أبيقوريا ظريفاً أحال المسيحية لذّة ومتعة ، ونعم بالحنة على ظهر الأرض ،
ولكن كلاهما كان يكدر ما كان يعبث ؛ وقد أثقل ليو الفنان السعيد
بالواجبات : إتمام الحجرات ، وتخطيط الرسوم المبدئية للأقشّة التى يزدان
بها معبد سستينى ، وزخارف شرفات الفاتيكان ، وبناء كنيسة القديس بطرس ،
وحفظ التحف الفنية الرومانية القديمة . وقبل رفائيل هذه المهام كلها ،
وقبلها مسروراً بها راغباً فيها ؛ ووجد فوق ذلك من وقته مستعاً
لرسم نحو عشرين من الصور الدينية ، وعدة مجموعات من المظلمات الوثنية ،
ونحو خمسين من صور العذراء وغيرها كانت كل واحدة منها بمفردها خليفة
بأن تأتية بالثروة الطائلة والصيت العريض . واستغل ليو وداعته ولبن جانبه .
فكان يطلب إليه أن ينظم له احتفالاته ، وأن يرسم المناظر اللازمة لإحدى
التمثيلات ، وأن يصور له فيلا كان يحبه (٧١) . ولعل الإجهاد والحب هما
الذان قصرا أجل رفائيل .

ولكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه فى عنفوان القوة ونعيم الرخاء .
وقد كتب فى أول يولية سنة ١٥١٤ رسالة إلى عمه « العزيز سيمون . . . الذى
أعزه كما أعز أبى » ، وكان سيمون هذا قد لاهمه لإصراره على البقاء عزباً ،
وكانت رسالته إلى عمه هذا تنم عن ثقته بنفسه واعتباطه بهذه الثقة قال :
أما عن الزوجة ، فلا بد أن أخبرك أنى أحمد الله كل يوم على أنى
لم أتزوج بمن قدرت لى أن أتزوجها ، أو بغيرها من النساء . . . ولقد
كنت فى هذه المسألة بالذات أعقل منك . . . ولست أشك فى أنك سترى
الآن أننى بحالى التى أنا عليها خير مما كنت أكونه لو تزوجت . . . إن لى
مالاً فى رومة يبلغ ٣٠٠٠ دوقّة ، ودخلاً مؤكداً لا يقل عن خمسين دوقّة
أخرى . وقد وظف لى قداسة البابا مرتباً قدره ٣٠٠ دوقّة نظيراً لإشرافى

على إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ولن ينقطع عنى هذا المرتب طول حياتى وهم يعطوننى فوق هذا كل ما أطلبه نظير عملى ، ولقد شرعت فى زخرفة ردهة كبيرة لقداسة البابا سأتقاضى من أجلها ١٢٠٠ كرون ذهبى . ومن هذا ترى حتما يا عمى العزيز أننى أعمل ما يشرف أسمى وبلدى (٧٢)

ولما بلغ الواحدة والثلاثين من عمره أدرك أنه دخل « الرجل » فى لحيه سوداء لعله أراد أن يستر بها شبابه ، وعاش فى رغد ، بل قل فى أبهة فى قصر شاده برامنتى وابتاعه رفائيل بثلاثة آلاف ذوقه ، وارتدى من الثياب ما يرتديه شباب الأمر الشريفة ، وكان إذا زار قصر الفاتيكان صحبته حاشية كحاشية الأمراء من تلاميذه وعملائه . وأنه على هذا ميكى أنجيلو بأن قال له : « إنك تسير ومن خلفك حاشية كأنك قائد جيش » ، فرد عليه رفائيل بقوله : « وأنت تسير وحدك كالجلاد » (٧٣) . وكان لا يزال وقتئذى طيب القلب ، مبرءاً من الحسد ، ولكنه شديد الحرص على أن يمسو على غيره من الناس ، ولم يكن من التواضع بالقليل الذى كان عليه من قبل (وأنى له أن يكون كذلك) ولكنه كان على الدوام يقدم العون لغيره ، ويهدى أصدقائه روائع فنه ، ولقد بلغ من أمره أن كان معيناً ونصيراً للفنانين الأقل منه حظاً وموهبة . ولكن فكاهته كانت لاذعة فى بعض الأحيان ؛ مثال ذلك أن كردنالىن زارا مرسمه فى يوم من الأيام ، فأخذنا يتسليان بذكر عيوب فى صورته - فقالا مثلاً إن وجوه الرسل مسرفة فى الاحمرار - فرد عليهم بقوله : « لاتعجبوا من هذا ، يا صاحبي العظيمة » فلقد رسمتها بهذا الشكل عامداً ، أليس من حقنا أن نظن أن أصحابها ستعلوهم حمرة الحجل فى السماء حين يرون الكنيسة يحكمها رجال من أمثالكم ؟ » (٧٤) . على أنه مع ذلك كان يقبل ما يصحح له من أغلاط من غير أن يغضب ، كما حدث فى تصميم بناء كنيسة القديس بطرس . وكان فى وسعه أن يثنى

على طائفة من الفنانين بتقليد روائع فهم ، دون أن يفقد مع ذلك استقلاله . وما يمتاز به من موهبة الابتكار ، ولم يكن في حاجة إلى الوحدة يرجع فيها إلى نفسه .

على أن أخلاقه لم تسم كما سمت آدابه ؛ ولم يكن في مقدوره أن يصور النساء بتلك الصور الجذابة لو لم يكن قد افتتن بمحاسنهن ، وقد كتب أغاني في الحب على ظهر رسومه ؛ واتخذ له طائفة من العشيقات واحدة بعد واحدة ؛ ولكن يبدو أنه ما من أحد - بما في ذلك البابا نفسه - يظن أن من كان مثالا عظيما مثله لا يحق له أن يستمتع بمثل هذه المتع . وهاهو ذا فاسارى ، بعد أن وصف شذوذ رفائيل الجنسي لا يرى فيما يبدو أى تعارض في أن يقول بعد صفحتين من هذا الوصف إن « الذين يحاكونه في حياته الفاضلة سيثابون على ذلك في الجنة » (٧٥) . ولما أن سأل كستجيولوفى رفائيل أين يجد نماذج النساء الحسان اللاتي يصورهن ، أجابه بأنه يخلقهن خلقاً في خياله بأن يجمع عناصر الجمال المختلفة التي تمتاز بها مختلف النساء (٧٦) ؛ ومن ثم كان في حاجة إلى أمثلة منهن متعددة . ومع هذا فإن في أخلاقه وفي أعماله طابعاً صحيحاً يرفع من قدر الحياة ، ووحدته وطمأنينة وصفاء في سيرته . وسط ما كان يحيط به من نزاع ، وفرقة وحسداً ، ومثالب كانت تسود ذلك العصر . ولم يكن يعبأ بالشئون السياسية التي يحترق باظها ليو وإيطاليا كلها ، ولعله كان يشعر بأن الخصومات التي تتكرر من حين إلى حين بين الأجزاء والدول الطامعة في السلطان ، وفي الامتيازات ، إن هي إلا الزبد الذي يعلو أمواج التاريخ ، والذي لابد أن يذهب جفاء ، وأن ليس لشيء ما قيمة ونفع إلا الإخلاص للكمال ، والجمال ، والحق .

وترك رفائيل البحث عن الحقيقة لمن كانوا أكثر منه جرأة وحاسة ، زقنغ بخنمة الجمال دون غيره ؛ فواصل في السنة الأولى من حكم ليو نقش ! حجرة إليودورو Stanza d'Eliodoro . فقد شاعت الظروف أن يختار

يوليوس منظر الالتقاء التاريخي بين أتلا Atilia وليو الأول (٤٥٢) .
 ليكون النقش الثاني من أهم النقوش الجدارية في حجراته ، وليجعله رمزاً
 لطرد البرابرة من إيطاليا . وكان رفائيل في تصويره قد جعل ملامح
 ليو الأول هي بعينها ملامح يوليوس الثاني ، ولكن حدث وقتئذ أن اعتلى
 عرش البابوية ليو العاشر . فما كان من رفائيل إلا أن عدل رسمه فجعل ليو هو
 ليو . وكان أكثر من هذه المجموعة الكبيرة نجاحاً صورة أصغر منها رسمها
 رفائيل في عقد فوق نافذة في هذه الحجرة نفسها : وهنا اقترح البابا الجديد أن
 يكون موضوع الصورة نجاة بطرس من السجن على يدى أحد من الملائكة ؛
 ولعله أراد بهذا أن يخلد ذكرى نجاته من الفرنسيين في ميلان . واستعان
 رفائيل بكل ما وهبه الفن من قدرة التأليف والتكوين ليبحث الوحدة والحياة
 في الصورة اتى قسمتها النافذة إلى ثلاثة مناظر : منظر الحراس النائمين إلى
 اليسار ، وملك يوقظ بطرس في أعلى النافذة ، وملك إلى اليمين يقود الرسول
 الحائر الذى يداعب النعاس أجفانه إلى الحرية . وإن ما يشع في حجرة
 السجن من تألق الملك يسطع على دروع الجند ويعشى أبصارهم ؛ والحلال
 الذى ينعكس نوره على السحب فيجعلها ناصعة البياض ، إن هذا وذاك
 ليجعلان هذه الصورة نموذجاً فنياً للدراسة الضوء .

وكان الفنان الشاب ظمناً إلى تطبيق للفن جديد . وكان برامتى قد أخذ
 صديقه في السر ، دون إذن من ميكل أنجيلو ، ليشاهد المظلمات التى في
 قبة مسيتينى قبل تمامها . وتأثر رفائيل بمنظرها أشد التأثر ، ولعله أحس ،
 بما لا يزال يصحب كبرياه من تواضع ، بأنه مائل في حضرة فنان أعظم
 منه عبقرية وإن كان أقل منه رقة ولطافة . وترك رفائيل هذه المؤثرات
 الجديدة تحركه في موضوعات المظلمات التى صورها على سقف حجرة
 هليدورس وفي أشكال هذه المظلمات : فقد مثل فيها الله يظهر إلى نوح ؛
 وإبراهيم يضحى بولده ، وإلهم يعقوب ، والوصية المحترقة . وتظهر أيضاً

في صورة النبي إشعيا التي رسمها لكنيسة القديس أوغسطين .

وشرع في عام ١٥١٤ ينقش الحجرة التي عرفت باسم **هجرة صربو**.

المدينة Stanza dell' Incendio del Borgo ، ويريد بالمدينة الجزء المحيط بالفاثيكان من رومة . وتفصيل هذا أن إحدى قصص العصور الوسطى تروى أن البابا ليو الثالث أطفأ حريقاً كان ينذر بالتهام هذا الجزء من المدينة ، ولم يكلفه هذا أكثر من أن يرسم بيده في الهواء شكل الصليب . وأكبر الظن أن رفائيل لم يرسم أكثر من الصورة التمهيدية لهذا الرسم الجداري ، ثم عهد إلى تلميذه جيان فرانتشيسكو بنى **Gianfrancesco Penni** بإتمامها وتلوينها . وهي مع هذا صورة قوية في تأليفها ، ومن طراز رفائيل الممتاز الذي يروى فيه حادثات الأيام . وقد مزج رفائيل في هذه الصورة القصة الرمانية القديمة بالقصة المسيحية ، فصور إلى اليمين إينياس وسياً مفتول العضلات يحمل أباه إنكيسيز **Anchises** الشيخ ذا العضلات القوية لينجيه من اللهب ، وهناك أيضاً صورة أخرى متقنة الرسم إلى أبعد حد تمثل رجلاً عارياً يتعاق في أعلى جدار البناء المحترق ، ويتأهب لإلقاء نفسه على الأرض ؛ ويظهر في هذه الصور الثلاث العارية تأثير ميكل أنجيلو في رفائيل . لكن ثمة صوراً أكثر انقفاً مع نزعة رفائيل نفسه ، منها صورة أم مرتاعة تطل من فوق الجدار لتسلم طفلها إلى رجل يقف فوق الأرض على أطراف أصابع قدميه . وترى بين عمد فخمة جماعات من النساء يلتمسن معونة البابا ، فيأمر من إحدى الشرفات النار أن تخمد . ولا يزال رفائيل في هذه الصورة في عنفوان مجده .

ورسم رفائيل الرسوم التمهيدية لبقية الصور التي في هذه الحجرة ؛ ولعل تلاميذه قد ساعدوه حتى في هذه الصور الباقية نفسها . ومن الرسوم التمهيدية رسم **بيرينو دل فاجا Perino del Vaga** فوق النافذة صورة **قسم ليو الثالث** وهو يرى نفسه أمام شارلمان (٨٠٠) ؛ وصور **جويلو رومانو** وهو تلميذ

آخر أعظم من التلميذ السابق على الجدار المجاور لباب الحجرة واقعة أسفياً التي رد فيها ليو الرابع (وهو يظهر في الصورة شديد الشبه بليو العاشر) الغزاة المسلمين (٨٤٩) . وجويليو رومانو هو الفنان الوحيد من أهل رومة الذي علا نجمه في فن النهضة . وصور أولئك التلاميذ النابهون في أماكن أخرى صوراً للملك أحسنوا إلى الكنيسة ، وجعلوا هذه الصور مثالية لا واقعية . وفي الصورة الأخيرة صورة تتويج شارلمان يصبح ليو العاشر هو ليو الثالث بعينه ، ويصور فرانسس الأول كأنه شارلمان يحقق (بالنيابة عن شارلمان) أمله في أن يكون إمبراطوراً . والحقيقة أن هذه الصور تمثل اللقاء ليو بفرانسس في بولونيا في العام السابق (١٥١٦) .

ورسم رفائيل رسوما تخطيطية مبدئية للحجرة الرابعة وهي المعروفة بردهة قسطنطين Sala Constantino ، وقد رسمت هذه الصورة ولونت بعد وفاته برعاية البابا كلمنت السابع . وكان ليو في هذه الأثناء يستحثه على أن يبدأ بزخرفة الشرفات المكشوفة التي بناها برامنتي لكي تحيط بفناء القديس دماسوس St. Damasus بالفاتيكان . وكان رفائيل نفسه هو الذي أكمل تشييد هذه الشرفات ، ثم صمم وقتئذ (١٥١٧ - ١٥١٩) لسقف واحدة منها اثنتين وخسين مظلاً تروى قصص الكتاب المقدس من خلق العالم إلى يوم الحساب . وقد عهد بالتصوير نفسه إلى جويليو رومانو ، وجيان فرانشيسكو بيني ، وپرينو دل فاجا ، وپليدورو كلدارا داکر فجيرو Polidoro Caldara da Caravaggio ، وغيرهم ؛ بينما قام جيوفاني دا يوديني Giovanni de Udine بزخرفة العمود المربعة ، والأجزاء الداخلية من العقود بصور رائعة ونقوش عربية الطراز في الجص وبالألوان . وقد استخدمت أحياناً في مظلمات الشرفات هذه موضوعات مما عولج في سقف سستيني ، ولكنها أخف منها يداً ، وأقل منها تصنعاً ، وأكبر مرحاً . لا تهدف إلى الفخامة أو التعالي بل تصور حداثات لطيفة كصورة آدم وحواء

وأبنائهما يستمتعون بفاكهة الجنة ، وصورة إبراهيم يستقبل الملائكة الثلاثة ، وإسحق يعاقب رفقة ، ويعقوب ورا حيل عند البئر ، ويوسف وزوجة فرعون ، والتقاط موسى ، وداود وباشيع ، وعبادة الرعاة . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الصور الصغيرة لا يمكن أن تضارع صور ميكيل أنجيلو فهذه في عالم غير عالم تلك ومن صنف غير صنفها - لأنها تمثل عالما ذا رشاقه نسوية ، لا عالما ذا قوة عضلية ؛ وهي شاهد على رفاثيل المرح في الخمس السنين الأخيرة من حياته ؛ على حين أن سقف سستيني إنما يمثل ميكيل أنجيلو في عنفوان قوته .

ولعل ليو قد دبَّ في قلبه شيء من الغيرة من جمال هذا السقف ، وما أفاءه على حكم يوليوس من مجد ، فلم يكذب يعتلى العرش حتى فكّر في تخليد عهده بنقش جدران معبد سستيني بصور الطنافس المزركشة . ولم يكن في إيطاليا من النساخين من يضارعون تساجي فلاندرز ، وظن ليو أنه لم يكن في فلاندرز من المصورين من يضارعون رفاثيل . ولهذا عهد إلى هذا الثنان (١٥١٥) ، أن يرسم عشر صور تمهيدية تمثل مناظر من أعمال الرسل . وقد ابتاع روبنز (١٦٣٠) ستا من هذه الصور في بركسل لتشارلس الأول ملك إنجلترا ، وهي الآن محفوظة في متحف فكتوريا وألبرت بلندن ، وتعد من أحسن ما رسم من الصور في أى عصر من العصور . وقد أعاد عليها رفاثيل كل ما لديه من علم في التأليف ، والتشريح ، والتأثير المسرحي ؛ وقلما يوجد في ميدان التصوير كله قطع تفوق صورة معجزة جر السمك ، أو عمره المسيح إلى بطرس ، أو موت أنانياس ، أو بطرس يردى الأخرج ، أو بولس يعظ في أثينة - وإن كان شكل بولس الجميل في هذه الصورة الأخيرة مسروق من مظلمات مساتشيو في فاورنس .

وأرسات الرسوم التمهيدية العشرة إلى بركسل . حيث أشرف برنارت

فان أورلي Bernaert van Orley ، الذى تتلمذ على رفائيل فى رومة ، على نقل هذه الرسوم على الحرير والصوف . وتمت سبع من هذه الطنافس فى فترة قصيرة لاتتجاوز ثلاث سنين ، وتم صنع العشر كلها قبل عام ١٥٢٠ ؛ وفى السادس والعشرين من ديسمبر عام ١٥١٩ علفت سبع منها على جدران سستينى ودعى لمشاهدتها الصفوة المختارة من أهل رومة . وذهل الحاضرون من جمالها ورؤعتها ، فقال باريس ده جراسيس Paris de Grassis فى يومياته : « وذهل كل من فى الكنيسة حين وقعت أعينهم على هذه الستر ، وأجمعوا كلهم بلا استثناء على أنه ليس فى العالم كله ما هو أجمل منها » (٧٧) . وقد أنفق على كل واحدة منها ألفا دوقه (٢٢٥,٠٠٠ دولار) ، وكانت نفقاتها جميعاً من أسباب إقفار خزائن ليو وإغرائه على بيع صكوك الغفران والمناصب الكنسية(*) . وما من شك فى أن ليو قد أحس وقتئذ بأنه التقي هو ورفائيل مع يوليوس وميكل أنجيلو فى معركة فنية فى كنيسة واحدة وأنهما قد انتصرا فى هذه المعركة .

وان ما يتصف به رفائيل من خصب فى الإنتاج وهو فى سن السابعة والثلاثين أعظم من خصب ميكل أنجيلو فى سن التاسعة والثمانين - نقول إن ما يتصف به من خصب فى هذه السن ليجعل من الصعب علينا أن ننصفه حين نصف روائع أعماله الفنية وصفاً موجزاً شاملاً ، وذلك لأن كل عمل من أعماله تقريباً كان آية خليقة بأن نخاد . لقد رسم صوراً فى القسيفساء ، والخشب ، والجواهر ، وعلى المدليات ، والفخار ، والآنية البرنزية ،

(*) رهنّت هذه الطنافس عند موت ليو ليخفف ثمنها من الضائقة المالية التى حلت بالبابوية ؛ ثم أصابها تلف شديد فى أثناء انهب رومة ، فزقت إحداها إرباً ، وبيعت اثنتان منها إلى التسلطنينية ، ثم ردت كلها إلى معبد سستينى فى عام ١٥٥٤ ؛ وصارت تعرض فى كل عام فى عيد الجسد الطاهر على الشعب فى ميدان القديس بطرس . وقد أمر لويس الرابع عشر أن ترسم لها صورة بالرت . اعصبا القرنليون فى عام ١٧٩٨ ، وأعيدت مرة ثانية إلى العاتيكخان فى عام ١٨٠٨ . وهى معروضة هناك الآن فى قاعة خاصة بها تدعى ردة الطنافس .

والتموش المحفورة البارزة ، وصناديق العطور ، وعلى التماثيل ، والقصور . واضطرب ميكل أنجيلو حين سمع أن رفائيل صنع نموذجاً لتمثال يونس راكباً حوتاً ، وأن الممثل الفلورنسى لورندستو لتي Lorenzetto Lotti نحت من هذه النماذج تمثلاً رخامياً له . ولكن النتيجة أعادت إليه سكينته لأن رفائيل بعمله هذا قد خرج من ميدانه الخاص وهو ميدان التصوير الملون ، ولم يكن في خروجه هذا حكماً . لكنه كان أكثر توفيقاً في ميدان العمارة لأن صديقه برامنتي كان يرشده في هذا الميدان . ولما عهد إليه حوالى عام ١٥١٤ العمل في كنيسة القديس بطرس ، طلب إلى صديقه فابيو كلفو Fabio Calvo أن يترجم له كتاب فثروفيوس Vitruvius إلى اللغة الإيطالية ، وشغف منذ ذلك الحين حباً بالطرز المعمارية الرومانية القديمة . وسر ليو من استمراره في العمل في شرفة برامنتي سروراً جعله يعينه مديراً لجميع المصالح المعمارية والفنية في الفاتيكان . وشاد رفائيل بعض القصور الممتازة في رومة ، واشترك في تخطيط فلادامادام Villa Madama للكردينال جويليو ده ميديتشى . على أن هذا العمل يرجع معظم الفضل فيه إلى جويليو رومانو المهندس المعماري والمصور ، وإلى جيوفاني دا أوديني Giovanni da Udine الذى قام بزخرفته . ولم يبق من آيات رفائيل المعمارية إلا قصر بندلفيني Palazzo Pandolfini الذى بنى بعد موته على أساس رسومه التخطيطية ، ولا يزال هذا القصر معدوداً من أجمل القصور في فلورنس . وسخر رفائيل بعدئذ مواهبه لخدمة صديقه المصر فى تشيجى Chigi وكان ذلك منه تضحية تلي من قدره . وقد شاد لهذا الصديق معبداً فى كنيسة سانتا ماريا دل بوبولو ، وبني بجياده اسطبلات (الاسطبلات الشجيانية Stalle Chigiani ١٥١٤) تليق لأن تكون قصوراً . وإذا شئنا أن نفهم رفائيل ، ورومة فى عهد ليو ، حق الفهم ، وجب علينا أن نتربث قليلاً لنلقى نظرة على ذلك الرجل العظيم تشيجى .

الفصل الثامن

أجستينو تشييجي

يمثل أجستينو تشييجي طائفة جديدة من أهل رومة : طائفة أغنياء التجار أو رجال المصارف ، وأصلهم عادة من غير أهلها علا شأنهم على شأن نبلاء الرومان الأقدمين ، ولم يكن يعلو عليهم في سخائهم على الفنانين والكتاب إلا سخاء الكرادلة والبابوات . وكان مولده في سينا ، وكأنما طعم الدهاء في الشئون المالية مع طعامه اليومي . وقبل أن يبلغ الثالثة والأربعين من عمره أصبح أكبر مقرضى المال الإيطاليين إلى الجمهوريات والممالك مسيحية كانت أو غير مسيحية . وكان يمول التجارة المتبادلة بين أكثر من عشرة بلاد من بينها تركيا ، وحصل بعقد من يوليوس الثاني على احتكار الشب والملح (٧٨) . وفي عام ١٥١١ أتاح ليوليوس سبباً جديداً من أسباب الحرب على فيرارا — ذلك أن الدوق ألفنسو قد جرؤ على أن يبيع الملح بثمان أقل مما يستطيع أجستينو أن يتقاضاه (٧٩) . وكان لشركته فروع في كل مدينة إيطالية كبيرة ، كما كان لها فروع في القسطنطينية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وليون في فرنسا ، ولندن ، وأمستردام ، وكانت مائة سفينة وسفينة تمخر عباب ألم رافعة رايته ، كما كان عشرون ألف رجل عمالا مأجورين عنده . وكان بضعة ملوك وأمراء يبعثون إليه بالهدايا ، وكان أحسن جواد عنده هدية من سلطان تركيا ، ولما زار البندقية (وكان قد أقرضها ١٢٥,٠٠٠ دوقه) وضع مقعده بجوار مقعد الدوق نفسه (٨٠) . ولما سأله ليو العاشر عن مقدار ثروته أجابه أن الرد على ذلك مستحيل ، ولعل الباعث له على هذا الجواب هو التهرب من الضرائب ، على أن دخله السنوي كان يقدر بنحو ٧٠,٠٠٠ دوقه (٨٧٥,٠٠٠ ؟ دولار) . وكانت صحافه الفضية

وجواهره تعدل ما عند نبلاء رومة كلهم مجتمعين . وكان سريره مخفورا في العاج ومرصعاً بالذهب والحجارة الكريمة ، وكانت أدوات حمامه من الفضة المصمتة^(٨١) . وكان له اثنا عشر من القصور والبيوت الريفية ذات الحدائق ، أجملها كلها بيت تشيجى الريفى القائم على الضفة الغربية لنهر التير . وكان الذى خططه هو يلدسارى پروتشى ، وزينه بالصور پروتشى ورفائيل ، وسودوما ، وجوليو رومانو ، وسيستيانو دل پيمبو ؛ وقد وصفه الرومان حين تم بأنه أفخم قصور رومة بأجمعها .

وكان لموائد تشيجى من الشهرة ما يضارع شهرة موائد لوكلس Lucullus في أيام قيصر . ولما أتم رفائيل بناء اسطبلاته وقبل أن توضع فيها جياد أجمل من الرجال ، استقبل فيها أجستينو البابا ليو وأربعة عشر من الكرادلة في عام ١٥١٨ ، وأقام لهم فيها مأدبة كان يتباهى بأنها كلفته ألفى دوقية (٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) . وقد سرقت في أثناء هذه الحفلة الممتازة صحاف قضية كبيرة ، وأكبر الظن أن الذين سرقوها خدم في حاشية بعض المدعوين . وأمر تشيجى ألا يجرى أى تفتيش ، وأظهر دهشته في لطف ومجاملة من قلة ما سرق^(٨٢) . ولما انتهت المأدبة ، ورفعت الطنفسة الحريرية ، وطنافس الجدران ، والأثاث الدقيق ، ملأت الاسطبلات بمائة جواد :

وأقام المصر فى الثرى بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت حفلة عشاء أخرى ، وأقامها هذه المرة فى شرفة القصر الريفى المطل على نهر التير ، وكانت الصحاف الفضية ، بعد الفراغ من كل صنف من الطعام ، تاقى فى النهر على مشهد من المدعوين ، حتى يتأكدوا من أن أية صفحة منها لن تستعمل أكثر من مرة واحدة . ولما انتهت المأدبة استخرج نخدم تشيجى الصحاف من النهر بشبكة كانت قد وضعت سراً فى مجراه تحت نافذة الشرفة^(٨٣) . وحدث فى مأدبة عشاء أقيمت فى قاعة القصر الريفى فى ٢٨ أغسطس ١٥١٩ أن قدم الطعام لكل مدعو وفيهم البابا ليو واثنا عشر كرادلا - فى صحاف من

الفضة أو الذهب نقش عليها شعاره ، وتاجه ، ودرعه ، وأطعم كل واحد منهم نوعاً خاصاً من السمك ، واللحم ، والخضر ، والفاكهة والمشروبات ، والنيذ المستورد حديثاً من بلده أو منطقتة لهذا الغرض خاصة .

وحاول تشيجي أن يكفر عن هذا التظاهر الوضع بالثراء ، بمناصرته الأدب والفن مناصرة سخية كريمة — من ذلك أنه أدى إلى العالم كرنيليو بنينيو Cornelio Benigno من فيتربو Viterbo نفقات طبع أشعار بنندار ، وأنه أنشأ في بيته مطبعة لطبع تلك المؤلفات ؛ وكانت الحروف اليونانية التي عملت لتلك المطبعة تفوق في جمالها الحروف التي استخدمها ألدوس مانوتيوس في نشر قصائده قبل ذلك بعامين . وكان هذا أول نص يوناني طبع في رومة (١٥١٥) . وبعد عام من ذلك الوقت أصدرت المطبعة طبعة صحيحة من ثيوقريطس . وكان أجستينو نفسه واسع المعرفة ، ولكنه كان يفخر بأن من أصدقائه بمبو ؛ وچيوفيو ، وأرتينو نفسه . وقد أغدق أرتينو هذا المال بسخاء ، وكان يتباهى بإنفاق هذا المال . وكان أكثر ما يحبه بعد المال وعشيقته هو جميع أنواع الجمال التي يستطيع الفن أن يصورها . وكان ينافس ليو فيما يعهد به من الأعمال إلى الفنانين ، وقد فاقه كثيراً في تفسيره الوثني للنهضة ، وجمع في قصوره في المدينة وضواحيها مقادير من التحف الفنية تكفي لإنشاء متحف من المتاحف . ويبدو أنه كان يعتقد أن قصره ليس بيتاً فحسب ، بل هو إلى ذلك معرض عام للفن يسمح للجماهير أن تدخله من حين إلى حين :

وحدث في ذلك القصر الذي أقيمت فيه مأدبة العشاء السالفة الذكر في ٢٥ أغسطس سنة ١٥١٩ ، أن تزوج تشيجي بعشيقتة الوفية التي ظل يعيش معها طوال الست السنين السابقة ، وقام بمراسم الزواج البابا ليو نفسه . لكنه توفي بعد ثمانية أشهر من ذلك الوقت بعد أيام قليلة من موت رفايل .

١٩ - ج ٣ - مجلد ٢٥

وقسم الجزء الأكبر من ثروته التي قدرت بثمانمائة ألف دوقة (١٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار) بين أبنائه . وعاش لورندسو أكبر هؤلاء الأبناء عيشة البذخ والفساد ، وحكم عليه بالجنون في عام ١٥٥٣ . أما بيت تشيحي الريني الواقع على ضفة التيبر فقد بيع إلى الكردنال ألسندرو فرينزي الثاني بثمان زهيد حوالي عام ١٥٨٠ ، وأطلق عليه من ذلك الحين اسم الفارنيزينا

• Farnesina

الفصل التاسع

رفائيل : خاتمة المطاف

وكان رفائيل قد قبل أن يقوم للمصر في المرح الظريف بأعمال فنية منذ عام ١٥١٠ ، وفي عام ١٥١٤ رسم له صوراً جصية ملونة في كنيسة سانتا ماريا دلا باتشي Santa Maria della Pace . وكان المكان الذي خصص لهذه الصور ضيقاً غير منتظم ؛ ولكن رفائيل جعله يبدو صالحاً للرسم بأن وزع عليه صوراً لأربع عرافات - تومائية ، وفارسية وفريجية ، وتيبورتية ، وهن متنبئات ونبيات سلبتهن قواهن في هذا الرسم الملائكة المحيطة بهن . وصورهن رشيقاً لأن رفائيل كان يصعب عليه أن يصور شيئاً خالياً من الرشاقة : ويظن فاسارى أنهم أجل ما أنتجه الفنان الشاب ، والصور جميعها ما عدا صورة العرافة التيبورتية محاكاة ضعيفة لعرافات أنجيلو . أما صورة هذه الكاهنة الأخيرة الهزيلة الجسم التي أوهنها الكبر ، وروعها المستقبل البشع الذي تنبأ به ، فهي صورة ذات قوة مبتكرة مسرحية . وتقول قصة لا يمكن الرجوع بها إلى ما قبل القرن السابع عشر ، إن شيئاً من سوء التفاهم حدث بين رفائيل والقائم على أموال تشيجي خاصاً بالأجر الذي يتقاضاه الفنان عن هذه الصور . وكان رفائيل قد أخذ منه خمسمائة دوقية ، ولكنه طلب المزيد من الأجر بعد أن أتمها ، وظن خازن أموال تشيجي أن الخمسمائة من اللدقات التي أخذها رفائيل هي كل ما يحق له أن يأخذ . وعرض رفائيل أن يعين الخازن فناناً خبيراً ليقدر قيمة الرسوم ؛ فاختار الخازن ميكل أنجيلو لهذا الغرض ووافق رفائيل على هذا الاختيار . وحكم ميكل أنجيلو ، رغم ما يزعم الناس وجوده بينه وبين رفائيل من غيرة ، أن كل رأس في الصورة يساوى مائة دوقية . ولما جاء الخازن

المذهول بهذا الحكم إلى تشيحي أمره المصر في بأن يودى إلى رفائيل أربعائة دوقه أخرى وحذره قائلاً : « واستعمل معه الرفق حتى يرضى بهذا القدر ، لأنه إن اضطررتى إلى أداء أجر الأثواب التى تلبسها العرافات أفاست لا محالة » (٨٤) .

وكان من واجب تشيحي أن يصطنع الحذر ، لأن رفائيل كان فى ذلك العام نفسه يرسم مظلماً أنيقاً فى قصر تشيحي الريفى - هو مظلم غلاطية . وقد أخذ قصته من جيوسترا Giostra تأليف بولتيان ، ومضمون القصة إن بوليفيموس Polyphemus السيكلوب (*) Cyclops الأعور يحاول إغراء الحورية غلاطية بأغانيه ومزماره ، ولكنها تبتعد عنه فى ازدراء - كأنها تقول : من هى التى ترضى أن تزوج فناناً ؟ - ثم تسلم الزم إلى دلفينين يجذبان سفينتها الصدفية الشكل إلى البحر . وتقف إلى جانب غلاطية حورية ممتلئة الجسم مريحة يمسك بها تريتون قوى ، وفى السحب عدد من آلهة الحب (كيوبد) يطلقون سهاماً كثيرة يؤيدون بها الحب القائم بينهما . وتتجلى النهضة الوثنية فى هذه الصورة بأجلى مظاهرها ، ويغلبت رفائيل إذ يصور النساء كما يجب أن يكن حسب ما يصورهن خياله الساطع .

وفى عام ١٥١٦ نقش حمام الكردنال بيينا بمظلمات تمجد فينوس وانتصار الحب . وفى عام ١٥١٧ نقش سقف القاعدة الوسطى فى قصر تشيحي الريفى وزواياه بصور أكثر من الصور السابقة تبذلاً . فقد هداه خياله المرح فى هذه المرة إلى قصة استمدها من كتاب الفانسح لأبوليوس Apuleius . وخلاصة هذه القصة أن سيبكى Psyche ابنة أحد الملوك تستثير بجمالها حسد فينوس ، فتأمر هذه الإلهة الحقود ابنها كيوبد أن يوحى إلى سيبكى بأن تحب أحقر رجل فى الوجود . ويهبط كيوبد إلى

الأرض ليؤدي رسالته ، ولكنه لا يكاد يمس سيكي حتى يهيم بها حباً .
ويزورها في ظلمة الليل ، ويأمرها أن تكبت في نفسها غريزة حب الاستطلاع
غلا تسأله من هو . غير أنها لا يسمعها إلا أن تنهض من فراشها ذات ليلة ،
وتضئ مصباحاً ، فتنبين أنها تنام مع أجل الأرباب كلهم . ولكنها في
اضطرابها تسقط منها نقطة من الزيت على كتف إله الحب ، فيستيقظ من
نومه ويوثنها لفرط تشوفها ، ويتركها وهو غاضب غير عالم أنه إذا حرمت
المرأة من غريزة حب الاستطلاع في مثل هذه الأحوال أدى هذا إلى فساد
أخلاق المجتمع . وتخرج سيكي هائمة على وجهها في الأرض محزونة يائسة
وتضع فينوس كيويدي في السجن لأنه عصي أمه ، وتشكو إلى جوبيتر من
ضعف النظام السماوي ، فيرسل جوبيتر عطاردي ليأتيه بسيكي وتصبح بعدئذ
أمه مغرورة عند فينوس . ويهرب كيويدي من سجنه ويرجو جوبيتر أن يهبه
سيكي . ويقع الإله في حيرة إذ يجد نفسه وسط مطالب متعارضة فيدعو
أرباب أولمبس للنظر في هذا الأمر . وينحاز هو إلى كيويدي مدفوعاً إلى هذا
بما جبل عليه من التأثير بمفاتيح الذكور أما الآلهة الآخرون ذوو القلوب
الرفيقة فيطلبون إطلاق سراح سيكي ، ورفعها إلى مقام الإلهات ، وإعطائها
لكيويدي ، ويحتفلون في المنظر الأخير بزواج كيويدي وسيكي ويقىون لهذه
المناسبة وليمة يطعمون فيها طعام الآلهة . ويؤكد رواة القصة أنها كلها
رموز واستعارات ، وأن سيكي تمثل النفس البشرية ، التي تدخل الجنة
بعد أن يطهرها العذاب . لكن رفائيل وتشيجي لم يريا في هذه القصة أية
رموز دينية ، وإنما هي فرصة أتاحت لهما ليتأملوا كمال الأجسام البشرية في
الذكور والإناث على السواء . لكننا نرى مع ذلك في نزعة رفائيل الشهوانية
رقة وطرفاً يفلان نقد المتزمتين . ويبدو أن ليو المتسامح الدمث
المرح لم يجد في هذه الرسوم ما يأخذه على الرجلين . وليس لرفائيل في هذه
الصور إلا الأشكال والتأليف . أما فيما عدا هذا فإن جوايو رومانو

وفرانثيسكو بنى هما اللذان صوروا المناظر المألوفة بعد أن خططها رفائيل ، ثم أضاف إليها جيوڤانى دا أودينى أكاليل جذابة مغرية مثقلة بالأزهار والثمار . وهكذا نرى مدرسة رفائيل الفنية قد أصبحت منطقة انتقال لا يكاد يوجد أدنى شك في أن ثمارها النهائية ستكون صورة من صور الجمال .

ولم تمتاز الوثنية والمسيحية امتزاجاً ممتعاً كامتزاجهما في صور رفائيل . فهذا الفتى ذو النزعة الدنيوية الذى كان يعيش كما يعيش الأمراء . ويجب كثيراً من النساء حباً عابراً مؤقتاً ، والذى كان يعث على السقف (إذا جاز هذا التعبير) بالذكور العراة والنساء العاريات ، نقول إن هذا الفني نفسه رسم في تلك السنين (١٥١٣ - ١٥٢٠) عدداً من أكثر الصور جاذبية في التاريخ كله . وكان رغم شهوانيته الظاهرة المكشوفة يعود دائماً إلى العذراء موضوعه المحبب ، فقد رسم لها خمسين صورة ، يساعده فيها أحياناً أحد تلاميذه كما في صورة مادونا دل أمبانانا *Modonna dell' Impannata* (العذراء الموفخرة) (*) ؛ ولكنه كان في معظم الأحيان يعمل في هذا الطراز من الصور بيده هو ، وفي قلبه مسحة من توى أمبريا *Umbria* القديم . وفي هذه السنة التى نتحدث عنها (١٥١٥) رسم عذراء سستينى لدير سان سستو *San Sisto* القائم في پياتشندسا (**) ، وهى فى الواقع مجموعة من الأشكال فى شكل هرم كامل يحتوى على صورة الشهيد القديس سكستس الطاعن فى السن ، والقديسة بربارا المتحاشمة المفرطة قليلاً فى الجمال وفى

(*) («) الأتغر من الأفغانسانة وهو المذهب الغائى إن المسيح يسجد فى انعاء الربابى من غير أن يصيه تغبر فى الجوهر . (المنرحم)
(**) («) وقد استريت هذه الصورة فى عام ١٧٥٣ لمردياك أنغسور الثانى ملك سكسونيا بمبلغ ٦٠.٠٠٠ ثالر *Thaler* (أى نحو ٤٥٠.٠٠٠ ؟ دولار) ، وطلب مائتى عام تقريباً أشهر كوز معرض درسدن *Dresden* . وقد اعتصب الروس المنتصرون من ألمانيا هذه الصورة مع صورة « الليلة المقدسة » لكريچيو ، وصررة فيوس لجيرچيوني ونحو ٩٢٠.٠٠٠ نسخة .
فنية أخرى بعد الحرب العالمية الثانية (٨٥) .

فخامة الملبس ؛ وثوب العذراء الأخضر اللون فوق مسة من الاحمرار ،
تهفهفه ريح السماء ، وصورة المسيح الطفل الذى يبدو إنساناً يحق فى سداجته
وشعره الأشعث ؛ ووجه العذراء الوردى الساذج تعلوه مسحة من الحزن
والدهشة (كأن لافرنرينا التى ربما كانت نموذج هذه الصورة قد أدركت
أنها غير أهل لهذا الوضع) ، والسجف التى يزيجها الملكان وراء العذراء
لتسير بينهما إلى الجنة : هذه هى أحب الصور إلى العالم المسيحى كله ، وأحب
ما رسمته يد رفائيل إلى العالم أجمع ، ولاتكاد تقل عن هذه ظرفاً ودقة رغم
التزامها الشكل التقليدى صورة الأسرة المقدسة تحت شجرة البلوط
(المحفوظة فى پرادو Prado) ، وهى التى تسمى أيضاً لا پيرلا La Perla

(عذراء اللؤلؤة) . وفى صورة عذراء سيبيريا أو سيجيولا Seggiola (الموجودة
فى پتى) نرى النزعة الدينية أقل منها فى الصورة السابقة والنزعة البشرية
أكثر ظهوراً . فالعذراء أم إيطالية صغيرة السن مريحة ذات عواطف هادئة
تضم طفلها السمين ويبدو على محياها الحب المتزج بغريزة الملكية والرعاية ،
وهو يلتصق فى وجل بجسمها ، كأنه قد سمع بإحدى الأساطير التى تروى
قصة قتل الأطفال البريئين ، إن صورة للعذراء بهذا الشكل تغفر له كثيراً
من صور فرنارين .

والصور التى رسمها رفائيل للمسيح قليلة إذا قورنت بغيرها من الصور .
ذلك أن روحه المريحة كنت تأبى أن تفكر فى تصوير العذاب والألم ، أو لعله
كان يدرك كما يدرك ليوناردو استحالة تصوير الموضوعات الإلهية . وكان
من هذه الصور التليدة صورة المسيح يحمل الصليب التى رسمها فى عام ١٥١٧
لدبرسانتا ماريلا دلو اسپازيو Santa Maria dello Spasino فى مدينة بالرم ،
والتي سميت من أجل ذلك لواسپازيمو دى تشيتشيليا La Spasimo di Cicilia
وأكبر الظن أن نتي كان يساعده فى رسمها . ويقول فاسارى إنه كان لهذه

الصورة تاريخ ملء بالمغامرات : فقد هبت عاصفة على السفينة التي كانت تحملها إلى صقلية فحطمتها ؛ وطفقت الصورة الموضوعة في قفص على سطح الماء ووصلت سالمة إلى جنوى ؛ لأن « الرياح والأمواج النائرة نفسها قد أكرت وأجلت هذه الصورة الرائعة » . كما يقول فاسارى . ونقلت الصورة سفينة أخرى وأقيمت في بالرم حيث « أضحت أوسع شهرة من جبال فلكان » (٨٦) . وفي القرن السابع عشر أدر بها فليب الرابع ملك أسبانيا فنقلت سرّاً إلى مدريد . وليس المسيح في هذه الصورة إلا رجلاً مغلوباً منهوك القوى لا يلوح عليه أنه يحمل رسالة ارتضاها وقام بأدائها . لكن رفايل وفق أكثر من هذا في الإيحاء بالالوهية في صورة أخرى هي صورة رؤيا هرقيال وإن كان يستعير آلهة الأجل في هذه الصورة من صورة خلق آدم لميكل أنجيلو .

ومن الصور التي رسمت في هذه الفترة أيضاً صورة القديسة تشيتشيليا التي لا تكاد تقل شهرة عن صورة غنراء سيموني . وكان سبب رسمها أن سيدة من بولونيا أعلنت في خريف عام ١٥١٣ أنها سمعت أصواتاً سماوية تأمرها بأن تقيم معبداً للقديسة تشيتشيليا في كنيسة سان جيوفني دل منتي San Giovanni del Monte . وتعهد أحد أقاربها بأن يبني المعبد ، وطلب إلى عمه الكردنال لورنزو بيتشي Lorenzo Pucci أن يطلب إلى رفايل صورة قياسية للمذبح نظير ألف اسكودي Scudi ذهبي . وأتاب رفايل عنه جيوفني دا أوديني في رسم الآلات الموسيقية ، وأتم هو الصورة في عام ١٥١٦ وأرسلها إلى بولونيا مع رسالة رقيقة إلى فرانتشيا كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ولا حاجة بنا إلى أن نعتقد أن فرانتشيا قد ذهل بجمال هذه الصورة ذهولا أحسن معه بما فيها من روعة ، وشعر بأن ما ينبعث من نغمت من آلاتها الموسيقية يكاد يكون نغمت سماوية ، وأدرك جمال صورة القديس

بولس في « حلم البقطة » ، والقديس يوحنا في نشوة لا تكاد تقل عن نشوة البنات ، وتشيتشيليا الجميلة ، ومجدلين الأجل منها - والتي خلعت عليها هنا طهرًا ساحرًا - والأضواء الحية والظلال الملقاة على الأثواب وعلى قدمي مجدلين .

وفي هذه الفترة أيضاً رسمت صورة أخرى رائعة منها صورة بارساري كسجلبوني (متحف اللوفر) وهي إحدى الصور التي عمل فيها رفايل بدمعة وضمير حتى ، وهي قوية الإغراء ، ولا تزيد عليها في قيمتها من صور رفايل إلا صورة يوليوس الثاني . وفيها تقع عين الإنسان أولاً على غطاء الرأس الزغبى ، ثم يستلفته بعدئذ ثوب الفراء ، واللحية الكثية ، فيخيل إليه أن الرجل أحد شعراء المسلمين أو فلاسفتهم . أو حاخام إسرائيل صوره رمبرانت Rembrandt ، وبشاهد بعد ذلك العينين الرقيقتين : والفم : واليدين المقبوضتين ، وكلها تكشف عن وزير إزبلا الثاقل ذى العقل للرحيم ، والعاطفة الجاثمة ، وقد انتقل إلى بلاط لبو . وخلق بالإنسان أن يطيل التأمل في هذه الصورة قبل أن يقرأ كتاب « حامل الرسائل The Courier » . وتظهر صورة بيينا Bibbiena الكردينال في آخر سني حياته وقد مل رؤية صور قينوس وارفضى المسيحية .

ولسنا نستطيع الجزم بأن صورة *La donna Velata* من صنع رفايل ، ولكنا نكاد نجزم بأنها هي التي يقول فاساري إنها صورة عشيقه رفايل ؛ فلاحظها حتى الملامح التي استعان بها على رسم صورة مجدلين وصورة تشيتشيليا نفسها في صورة *تشيتشيليا* التي سبق الكلام عليها ، ولعلها أيضاً الملامح التي نشاهدتها في *عز اوسيني* - وهي هنا سمراء محتاشمة ، يتدل من رأسها قناع طويل ، وحول جديدها عقد من الجواهر ،

وتلتف على جسمها أثواب فضفاضة تستهوى العين . وأكبر الظن أن صورة
فرنيرينا La Fornarina المحفوظة في المعرض البرغيزى Borghese هي
أيضاً من صنع رفايل ، ولكنها لا تمثل عشيقته في وضوح كما كان يظن الخبراء
القديمون . ومعنى كلمة فرنيرينا الخبازة أو زوجة الخباز أو ابنته ، ولكن
هذا الاسم وأمثاله كحداد أو نجار لا يعنى حتماً أن صاحبه ينتسب إلى هذه
المهنة . وليست هذه السيدة فاتنة ساحرة إلى حد كبير ، ذلك أن المرء
لا يجد فيها النظرة المتواضعة التي تجعل هذه الإيحاءات غير المتواضعة أكثر فتنة
وسحراً* . ويبدو أن من غير المعقول أن تكون صورة السيدة ذات القناع
المتواضعة هي صورة لنفس هذه السيدة التي توزع المتع السريعة في جراحة
على طالبها ؛ ولكننا لسنا بحاجة إلى البحث في هذا فقد كان لرفايل أكثر
من عشيقة .

بيد أنه كان أكثر وفاء لعشيقته مما ينتظره الإنسان من الفنانين الذين
تأثرون بالجمال أكثر مما يتأثرون بالعقل . وشاهد ذلك أنه لما حثه الكردنال
بيينا على أن يتزوج ماريا بيينا ابنة أخيه لم يقبل رفايل إلحاحه إلا وهو كاره
(١٥١٤) مع أنه كان مديناً للكردنال بأعمال درت عليه المال الكثير ، ثم أخذ
يتملص من إتمام الزواج شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة ، وتقول الرواية
الماثورة إن ماريا أثرت فيها هذا الإرجاء فانت حزينه كسيرة القلب (٨٧) .
وبشير فاسارى إلى أن رفايل كان يرجئ هذا الزواج أملاً منه بأنه سيصبح
كردنالا ؛ والزواج عقبة كبرى في سبيل هذا المنصب السامى ؛ أما العشيقة
فإنها من العقبات التي يمكن التغلب عليها . ويبدو أن الفنان كان يجعل عشيقته
قريبة منه يسهل عليه الوصول إليها حينما كان يقوم بعماله . ولما أن وجد
تشيجي أن المسافة بين قصره الربيعي الذي كان رفايل يصور فيه تاريخ سيكي

(*) وفي معرض أبهى غفارة أخرى أجمل من هذه من صنع بي. يانو دي. و .

ومسكن عشيقته تضيق على الفنان كثيراً من وقته ، جاء المصرقي بالسيدة وأسكنها في شقة من هذا القصر ؛ ويقول فاسارى إن « ذلك هو السبب في إتمام العمل » (٨٨) . ولسنا نعرف هل هذه هى السيدة التى انغمس معها رفائيل في « الدعارة المطلقة غير المألوفة » هى التى يعزو إليها فاسارى سبب موته (٨٩) .

وكانت آخر صورة له لإحدى تفسيراته السامية لقصة الإنجيل . ذلك أن الكردنال جوبليو ده ميديتشى كلف رفائيل وسبستيانودل ييمبو في عام ١٥١٧ أن ينقشوا ستار مذبح الكنيسة نربونة التى عينه فرانسيس الأول أسقفاً لها ، وكان سبستيانو يحس من زمن بعيد أن موهبته الفنية لا تقل عن موهبة رفائيل إن لم تسم عليها ، وإن لم يكن مثله معترفاً له بهذه الموهبة . وها هى ذى الفرصة قد لاحت له لإثبات موهبته . واختار لموضوعه « ارتفاع المجنوم الأبرص » واستعان بميكل أنجيلو في رسم الصورة الأولية . واستثارت المنافسة رفائيل فسما إلى فوزه النهائي ، واختار لموضوعه رواية متى لحادث جبل تابور :

« وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم ، وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور . وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل بجاثيا له وقائلاً يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديداً ، ويقع كثيراً في النار وكثيراً في الماء . وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدرُوا أن يشفوه » (٩٠)

وأخذ رفائيل هذين المنظرين كليهما ووحدهما ، وتعسف كثيراً في وحدة الزمان والمكان . فالمسيح يظهر فوق قمة الجبل يسبح في الهواء . وقد تبدل وجهه من فرط النشوة ، وظهرت ثيابه بيضاء فاصعة لسقوط الضوء عليها من السماء . وعلى أحد جانبيه موسى وعلى الجانب الآخر إيليا ،

ومن تحتهم الرسل الأربعة المحبون يرقدون فوق هضبة . وعند سفح الجبل يظهر أب يائس يدفع إلى الأمام ابنه المسلوب العقل ، وتركع الأم هي وامرأة أخرى ، وكلتاها رائعة الجمال ، إلى جانب الغلام وتطلبان إلى الرسل التسعة المجتمعين إلى اليسار علاجاً للغلام . ويفزع أحد أولئك الرسل وهو منكب على كتاب يقرؤه ، ويشير رسول آخر إلى المسيح الذى بدلته النشوة ، ويقول إنه هو وحده الذى يستطيع أن يعالج الغلام . وقد اعتاد النقاد أن يثنوا على الجزء الأعلى من الصورة ويصفوا المجموعة السفلى منها بالخشونة والعنف ؛ وهذه المجموعة هي التي رسمها جويليو رومانو ؛ ولكن الحقيقة أن مقدمتها السفلى تحتوى صورتين من أجمل الصور هما صورة القارئ الفزع ، والمرأة الرائعة ذات الكتف العارية والأكواب المتلألئة الساطعة .

وبدأ رفائيل العمل في صورة **مجدى المسيح** عام ١٥١٧ ولكنه توفي قبل الفراغ منها . ولسنا نعرف ما في قصة فاسارى من الصديق لأنه كتبها بعد ثلاثين عاماً من وقوع الحادث . وإلى القارئ هذه القصة :

« اتهم أطلق رفائيل العنان للملذاته الخفية إلى أقصى حد ؛ وحدث بعد نية حمراء صاحبة أنه عاد إلى بيته وقد انتابته حمى شديدة ، واعتقد الأطباء أن قد أصابه برد شديد ، ولم يعترف هو بسبب اضطرابه ، فحججه الأطباء خطأ منهم وقلة دراية ، وبذلك أضعفوا جسمه وهو في أشد الحاجة إلى ما يعيد إليه قوته ، فما كان منه إلا أن كتب وصيته ، بعد أن أخرج عشيقته من بيته ، كما يفعل المسيحي الصادق ، وترك لها من المال ما تستطيع به أن تعيش عيشة شريفة ، ثم قسم ما عنده بين تلاميذه جويليو رومانو الذى كان وثره بحبه على الدوام ، وجيوڤانى فرانتشيسكو بنى من أهل فلورنس ، وفس من أربينو ، وأحد أقاربه وبعد أن اعترف وتاب وأناوب

اختتم حياته في مثل اليوم الذى ولد فيه وهو يوم الجمعة الحزينة ، ولما تتجاوز السابعة والثلاثين من عمره (٦ أبريل سنة ١٥٢٠) (٩١) .

ورفض القس الذى جاء ليتلقى اعترافه أن يدخل حجرة المريض قبل أن تخرج عشيقه رفايل من بيته ؛ ولعل سبب ذلك الرفض هو شعور القس بأن استمرار وجودها في البيت قد يوحى بأن رفايل تعوزه الندامة التى لا بد منها قبل أن تغفر له ذنوبه . ولهذا منعت حتى من الاشتراك في تشييع الجنازة ، فانتابها الحزن والكمد حتى كادت تصاب بالجنون لولا أن أقنعها الكردينال بيينا بأن تترهب . وسار جميع الفنانين في رومة في جنازة الشاب الراحل حتى وورى الثرى ، وحزن ليو على فقدان مصوره المحبوب ؛ وأخرج أمين سر البابا وشاعره ، وهو بمبو Bembo الذى تنقصه البلاغة الممتازة في اللغتين اللاتينية والإيطالية ، أخرج بمبو هذا كل ما أوتى من فصاحة وكتب قبرة لرفايل في البنثيون لم يزد فيها على أن

قال : Ille Hec est Raphael

« إن الذى هنا هو رفايل » وكفاه هذا ؛

وبعد فقد كان رفايل بإجماع معاصريه أعظم المصورين في عصره . نعم إنه لم يخرج شيئاً يضارع في سموه سقف سستينى ، ولكن ميكل أنجيلو لم يخرج قط شيئاً يضارع في جماله الكلى صور العنراء الخمسين التى أخرجها رفايل . ولقد كان ميكل أنجيلو أعظم الفنانين لأنه كان عظيماً في ميادين ثلاثة ، وكان أعمق من سائر الفنانين في تفكيره وفي فنه . ولما أن قال عن رفايل : « إنه مثل لما نستطيع الدراسة العميقة أن نسمه » (٩٢) كان يعنى في أكبر الظن أن رفايل قد نال بفضل المحاكاة كل الصفات الممتازة التى يتصف بها كثيرون من المصورين ، وإنه صاغها بفضل ما وهب من الجلد والمثابرة حتى أصبحت طرازاً بلغ ذروة الكمال . على أن ميكل أنجيلو لم يشعر أن رفايل قد أوتى تلك القوة العاصفة المبدعة

التي تطرح المحاكاة وتشق لنفسها طريقاً خاصاً بها ، تتجازه بقوة تكاد تصل إلى حد العنف ، وتصل به إلى ما تريد . ويبدو أن رفائيل قد بلغ من السعادة حداً يمنعه أن يكون عبقرياً بالمعنى التقليدي لهذا اللفظ ؛ وهو المعنى الذي يجعل العبقرية تشرف على الجنون . ولقد تخلص رفائيل من صراعه الداخلي حتى لم تعد تظهر عليه إلا قلة من أعراض الروح أو القوة الشيطانية التي تحرك أعظم النفوس ، فتدفعها إلى الإبداع والمآسى ؛ ولهذا كان عمل رفائيل ثمرة الخلق الكامل المصقول لا الشعور العميق أو العقيدة . وقد كيف نفسه لحاجات يوليوس وأهوائه في أول الأمر ، ثم لحاجات ليو وأهوائه من بعده ، ومن بعدهما لتشيجي ، ولكنه ظل على الدوام الشاب الذي لا يعرف الخلل والحداع ، والذي يتقلب وهو مغتبط بين صور العذارى وبين العشيقات ؛ وكانت هذه هي وسيلته المرححة للتوقيق بين الوثنية والمسيحية .

وإذا فهمنا من لفظ الفنان معناه التطبيقى الآلى كان رفائيل أبرع الفنانين لا يعلو عليه واحد منهم . ذلك أن أحداً لم يضارعه قط في ترتيب عناصر الصورة ، ولا في انسجام أجزائها ، أو الانسياب الهادئ لخطوطها . وكانت حياته كلها مكرسة لإتقان الشكل ، ولهذا كان ينزع إلى البقاء على ظاهر الأشياء ، فنحن لا نراه يسر غور ما في الحياة أو العقيدة من أسرار خفية أو متناقضات . وكان دهاء ليوناردو ، وإحساس ميكيل أنجيلو بمآسى الحياة عديمي المعنى بالنسبة له ، وكان حسبه بهجة الحياة ومتعتها ، وخلق الجمال وتملكه ، ووفاء الصديق والحبيب . وكان رسكن Ruskin صادقاً حين قال إنه كانت تظهر من حين إلى حين في النحت القوطي ، وفي التصوير بإيطاليا وفلاندرز « قبل عصر رفائيل » بساطة ، وإخلاص وسمو في الإيمان والأمل ، يتعمقان النفس أكثر مما تتعمقها صور العذراء وقينوس الجميلة التي أبدعها رفائيل . ومع هذا فإن صورتى يوليوس الثاني وعذراء [

اللولوة لا يمكن وصفهما بأنهما من الصور السطحية غير ذات العمق الكبير :
ذلك أنهما تصلان إلى لب مطامع الذكور وحنان الاناث ، فصورة
يوليوس أعظم وأعمق من صورة موالبرا :

وليوناردو يبعث في نفوسنا الحيرة ، وميكل أنجيلو يبعث فيها الخوف ،
أما رفاثيل فيبسط علينا السلام ، وهو لا يلقي أسئلة ، ولا يثير شكوكاً ،
ولا يستثير مخاوف ، بل يعرض علينا جمال الحياة كأنه شراب الآلهة ،
وهو لا يقر بوجود صراع بين العقل والشعور ، أو بين الجسم والروح ؛
بل كل شيء فيه توافق وتناسق بين الأضداد ، تتألف منه موسيقى فيثاغورية ،
وفنه يسمو بكل ما يمسه فيجعل منه مثلاً أعلى ، سواء كان هذا ديناً ،
أو امرأة ، أو موسيقى ، أو فلسفة ، أو تاريخاً ، أو حتى حرباً ، وإذا كان
هو سعيداً محظوظاً فقد كان يشع على كل ما حوله كل ما أوتي من نعمة
وصفاء نفس . ومكانه في سلم العبقریات التعسفي إلى أعظم عطاء العباقرة
مباشرة ، ولكنه في زميرهم : دانتى وجيته ، وكيكس ، وبيتهوفن .
وباخ ، وموزار ، وميكل أنجيلو ، وليوناردو ، ورفاثيل .

الفصل العاشر

ليو السياسى

وكان من دواعى الأسف أن ليو اضطر وهو بين كل هذا الفن والأدب أن يخوض ببحر السياسة الخضم . ولكن عذره فى هذا أنه رئيس دولة ، وأنه يعيش ، وأن الدول التى وراء الألب كان رأسها جميعاً زعماء ذوو مطامع ، ولها جيوش جرارة ، وقواد أشداء ؛ ولم يكن يستبعد أن يتفق لويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وفرديناند الكاثوليكي ، فى أى وقت من الأوقات على اقتسام إيطاليا كما اتفقا من قبل على اقتسام مملكة نابلى . وأراد ليو أن يواجه هذا التهديد ، وأن يقوى فى الوقت ذاته البابوية ويعلى شأن أسرته ، فعمل على أن يضم فلورنس (التى كان يحكمها وقتئذ على يد جوليانو أخيه ولورندسو ابن أخيه) وميلان ، وبياتشندسا ، وبارما ، ومودينا ، وفيرارا ، وأربينو فى اتحاد قوى جديد يحكمه أفراد من آل ميديتشى الموالين له ؛ وأن يجمع بين هذه الولايات وبين ولايات الكنيسة الموجودة وقتئذ ، لتكون حاجزاً يصد المغيرين من الشمال ، وأن يحصل بزواج أحد أعضاء أسرته إن استطاع على عرث نابلى بعد خاوه من شاغله . فإذا تم له بهذه الطريقة توحيد إيطاليا وتقويتها ، أمكنه أن يقود أوروبا فى حرب صليبية أخرى ضد الأتراك الذين لا يفتشون يهددون بها الغزو . ورحب مكيفلى ، وهو الرجل الذى لم يكن يميل إلى المسيحية ولا إلى البابوات . بهذه الخطة ، أو أنه فى القليل رحب بما يتصل منها بتوحيد إيطاليا وحمايتها ، وكانت هذه هى الفكرة الأساسية فى كتاب الأمير .

وسعى ليو لتحقيق لتحقيق هذه الأغراض بما كان تحت تصرفه من الموارد

العسكرية المحدودة ، فاجأ إلى جميع الأساليب السياسية والدبلوماسية التي كان ياجأ إليها أمراء زمانه . نعم إنه لم يكن من اليسير على رئيس الكنيسة أن يكذب ، ويحث بالوعد ، ويسرق ويقتل ؛ ولكن الملوك كلهم كانوا مجتمعين على أن هذه الأساليب لاغنى عنها لحفظ كيان الدولة ؛ واندفع ليو ، وهو الميديتشى أولاً والبابا بعدئذ ، في هذه الخطوة بالقدر الذي تسمح له به بدانته ، وناسوره ، وصبيده ، وسخاؤه وأمواله . وندد به كل الملوك لأنه لم يسلك مسلك القديسين ، وقال في ذلك جوتشيارديني : « إن ليو قد خيب الآمال المعقودة عليه وقت تنويجه ، فقد بدا أنه ذو بصيرة نفاذة ، ولكنه أقل صلاحاً مما كان يتصوره جميع الناس » (٩٣) . وطل أعداؤه وقتاً طويلاً يظنون أن دهائه المكيف إلى أنما يرجع إلى نفوذ جوبيلو ابن عمه (الذي أصبح فيما بعد كلمنت السابع) أو إلى الكردينال بيينا ، لكن تطور الحوادث فيما بعد أوضح أنهم لا بد لهم أن يحسبوا حساب ليو نفسه ، وأن ليو هذا ليس أسداً بل ثعلباً ، وأنه لين زلق ، مكر لا يسبر غوره ، نهاز زائف ؛ يخاف في بعض الأحيان ويتردد في أغابها ؛ ولكنه إذا جد الجدد قادر على اتخاذ القرار الحاسم ، ماض في عزيمته ؛ عنيد في خططه السياسية .

وسنرجئ الحديث عن علاقاته بالدول الواقعة شمال جبال الألب إلى فصل آخر من هذا الكتاب ، ونقصر بحثنا هنا على الشئون الإيطالية ، فنتحدث عنها بإيجاز لأن فنون عهد ليو أبقي على الزعن من سياسته . لقد كان يمتاز كثيراً عن أسلافه ، لأن فلورنس التي قاومت من قبل الإسكندر ويوليوس كانت وقتئذ جزءاً من دولته ، ولأنه أفاء على أهلها كثيراً من نعمه . ولما أن زار المدينة التي حكمها أسلافه أقامت له أكثر من عشر أقواس فنية ترحيباً به . ومن هذه القاعدة ومن رومة نفسها استخدم رجاله الدبلوماسيين ومن يدينون له بالفضل ، كما استخدم جنوده ، في توسيع رقعة دولته ؛ واستولى أولاً على مودينا في عام ١٥١٤ ، ولما أن تأهب فرانسيس الأول

في عام ١٥١٥ لغزو إيطاليا والاستيلاء على ميلان ، حشد ليو لمقاومته جيشاً وعقد حلفاً إيطالياً ، وأمر دوق أرينو ، بوصفه تابعاً للكرسي البابوي وقائداً في خدمة الكنيسة ، أن ينضم إليه في بولونيا على رأس أكبر قوة يستطيع حشد ها . ولكن الدوق رفض المحيىء رفضاً صريحاً ، وإن كان ليو قد حياه من وقت قصير بما يلزمه من المال لأداء رواتب جنوده . وظن البابا ، وله بعض الحق في أن يظن ، أنه قد تفاهم في السر مع فرنسا (٩٤) ؛ فلم يكذ يتخلص من مشاكله الخارجية ، حتى استدعى فرانتشيسكو إلى رومة ؛ فلم يسع الدوق إلى أن يفر إلى مانتوا . فحرمه ليو من حظيرة الدين وأصم أذنيه عن سماع تضرع الزبنا جنلماجا ولزبلا دستا وتوسلاتهما ، وكانت أولاهما عمة الأمير الطائش وثانيتها أم زوجته . واستولت جنود البابا على أرينو دون أن تلقى مقاومة ، وأعلن خلع فرانتشيسكو ، كما نودى بلورندسو ابن أخى ليو دوقاً على أرينو (١٥١٦) . لكن أهل المدينة ثاروا بعد عام من ذلك الوقت وطرّدوا لورندسو ، وحشد فرانتشيسكو جيشاً استعاد به دوقيته ؛ ولاقى ليو أشد الصعاب في جمع المال والجنود لاستعادتها لنفسه ، ونجح بعد ذلك في حرب دامت ثمانية أشهر ، ولكن نفقات الحرب أفقرت خزائنه البابوية ، وأحفظت قلوب الإيطاليين على ليو وأسرته الطامعة المغتصبة .

وانتهز فرانسيس الأول هذه الفرصة لكسب صداقة البابا . وعرض أن يتزوج لورندسو دوق أرينو الذى عاد إلى عرشه من مادلين ده لا فور دو فرني Madeleine de La Four d'Auvergne التى كان لها دخل كبير لا يقل عن عشرة آلاف كرون (١٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) في العام . ووافق ليو على هذا العرض ، وسافر لورندسو إلى فرنسا (١٥١٨) ، كأنه صدى صوت بورچيا ، وعاد بمادلين وبائنتها . ومات مادلين بعد عام من ذلك الوقت أثناء وضعها بنتاً هى كترينا Caterina التى صارت فيما بعد كترین

ده ميديتشى ملكة فرنسا ؛ ثم مات لورندسو بعد ذلك بقليل ، ويقال إن سبب موته مرض سرى أصيب به وهو فى فرنسا (٩٥) . وحينئذ أعلن ليو أن أرينو ولاية بابوية وأرسل مندوباً من قبله ليحكمها .

وكان لابد له أثناء هذه الارتباكات أن يعانى الأمرين من مسألتين تفضيان مضجعه وتشهدان بضعفه السياسى وكره الشعب إياه كرهاً مطرد النماء . أما أولاهما فهى أن قائداً من قواده هو چيان باولو بجليونى حاكم پروچيا برضاء البابا كان قد انضم هو وپروجيا نفسها إلى فرانكشيسكو ماريا ؛ فما كان من ليو إلا أن خدع چيان باولو فأغراه بالجمعى إلى رومة بعد أن أمنه على نفسه بالجمعى والعودة ، فلما جاء أمر به فقتل (١٥٢٠) . وكان بجليونى هذا قد اشترك فى مؤامرة تهدف إلى اغتيال البابا يتزعمها ألفنسو پيروتشى وغيره من الكرادلة (١٥١٧) . وكان أولئك الكرادلة قد أنقلوا على كرمه بمطالب لا يستطيع مع سخائه العظيم أن يجيبهم إليها ؛ كما أن پيروتشى كان فوق ذلك غاضباً مغتاضاً لأن أخاه أبعد عن حكم سينا ، ولأن البابا قد غص النظر عن هذا العمل فلم يتدخل لمصلحته . ولهذا فكر أولاً فى قتل ليو بيده ، ولكنه أشير عايه بدلا من هذا أن يرشو طبيب ليو ليدس السم للبابا وهو يعالجه من ناسوره . وكشفت المؤامرة ، وقتل الطبيب وپيروتشى ، وسجن عدد من الكرادلة الذين اشتركوا فيها ، وعزلوا من مناصبهم ، ثم أطلق سراح بعضهم بعد أن أدوا غرامات باهظة .

وكانت حاجة ليو إلى المال تنغص عليه وقتئذ حكمه الذى كان من قبل موقفاً سعيداً . ذلك أن عطاياه للأقارب والأصدقاء ، والفنانين ، والكتاب ، والموسيقين ، ونفقات بلاطه الذى لم يكن له من قبل مثيل ، ومطالب كنيسة القديس بطرس الجديدة التى لا حد لها ، ونفقات حرب أرينو والاستعداد إلى حرب صليبية ، كل هذا كان يقود خزينة البابا إلى هاوية الافلاس . ولم يكن لإبراده العادى البالغ ٤٢٠,٠٠٠ دوقة (٢,٢٥٠,٠٠٠ ؟

دولار) في العام والنمى يستمد من الأجور ، والمرتب الأول اوظف الكنيسة ، والعشور ، لم يكن هذا الإيراد العادى يكفى هذه النفقات . على أن هذا الإيراد نفسه كان يصعب دائماً تحصيله من أوروبا التى لم تكن راضية عن انسياب هذه الأموال الكنسية إلى رومة : وأراد ليو أن يملأ خزائنه بالمال فأنشأ في عام ١٣٥٣ مناصب جديدة يبيعها لطلابها وبلغ مجموع المال الذى جمع ممن عينوا في هذه المناصب ٨٨٩,٠٠٠ دوقه (١١,١١٢,٥٠٠ ؟ دولار) . على أننا يجب ألا نغالى في استنكار هذا العمل ؛ ذلك أن معظم هذه المناصب لا يؤدى من يشغلها عملاً ، وإن تطلبت شيئاً قليلاً منه فقد كان من المستطاع أن يعهد به إلى من ينوبون عن أصحابها ؛ وكانت الأموال التى يقدمها شاغلوها في واقع الأمر قروضاً للبابوية ، وكان متوسط راتبها البالغ عشرة في المائة كل عام من المال الأصيل المدفوع عنها بمثابة فائدة لهذه القروض . فكان ليو في الحقيقة يبيع ما نسميه في أيامنا هذه سندات حكومية (٩٦) ، وكان من حقه بلا ريب أن يقول إنه يؤدى عنها فوائد أكثر مما تؤديه أية حكومة عن أوراقها المالية في هذه الأيام . على أنه لم يبع هذه المناصب الإسمية وحدها ، بل باع أيضاً أعلى المناصب الكنسية كوظيفة رئيس التشريفات البابوية (٩٧) . وفي شهر يولية من عام ١٥١٧ رشح واحداً وثلاثين كردنالا جديداً ، كثيرون منهم ذوو كفايات عظيمة ، ولكن الكثرة الغالبة منهم قد اختير أفرادها لقدرتهم على أداء ثمن ما يستمتعون به فيها من الجاه والسلطان . ولنضرب لذلك مثلاً الكردينال پندستى - الطبيب ، والعالم ، والمؤلف - النمى أدى ثمناً لمنصبه ٣٠,٠٠٠ دوقه . وبلغ مجموع دخل ليو في هذه المرة بجرة قلم نصف مليون دوقه (٩٨) . وروعت لذلك إيطاليا نفسها وهى التى فسدت عقليتها في هذه الناحية فلم تعد تفرق بين ما هو خير منها وما هو شر ؛ وكانت قصة هذا العمل بعد أن وصلت إلى ألمانيا مما زاد من حدة غضب لوثر وثورته . (أكتوبر ١٥١٧) . وكان

من جراء هذا أنه لما فتح السلطان سليم بلاد مصر في تلك السنة الحاسمة في التاريخ وضمها إلى أملاك الأتراك العثمانيين ، ونادى البابا بحرب صليبية ، لم يلب أحد ندائه . ودفع البابا تهوره الأعمى إلى أن يبعث بعالمه في جميع أنحاء البلاد المسيحية يعرضون صكوك غفران واسعة المدى إلى درجة غير عادية على من يتوبون ، ويعترفون ، ويتبرعون بنفقات الحرب الصليبية ،

وكان في بعض الأحيان يقترض المال من مصارف رومة بفائدة تبلغ أربعين في المائة . وكان أصحاب هذه المصارف يتقاضون منه هذا السعر المرتفع لأن إهماله في إدارة الشؤون المالية البابوية لا بد أن يؤدي في رأيهم إلى الإفلاس . ورهن البابا ضمناً لبعض هذه القروض صحافه الفضية ، وطفافس جدران قصره ، وجواهره . وقلما كان يفكر في مراعاة الاقتصاد في الإنفاق ، فإذا ما اقتصد كان ذلك بالشح على مجمه العلمى اليونانى ، وجامعة رومة ، فلم يكده محل عام ١٥١٧ حتى أغاق المجمع لحاجته إلى المال . ومع هذا فقد واصل البابا خيراتة بلا حساب ، فكان يرسل الأموال الطائلة إلى الأدبرة ، والمستشفيات ، والمعاهد الخيرية في جميع أنحاء العالم المسيحى ، ويغدق المال وألقاب الشرف على آل ميديتشى ، ويولم الولائم الفخمة إلى أضيافه يقدم لهم فيها الأطعمة الشهية النادرة على حين أنه هو نفسه كان يراعى جانب الاعتدال في طعامه وشرابه^(٩٩) . وقد بلغ مجموع ما أنفقه خلال جلوسه على كرسى البابوية ٤,٥٠٠,٠٠٠ دوقة (٥٦,٢٥٠,٠٠٠ ؟ دولار) ، ومات وعليه فوق ذلك دين يبلغ ٤٠٠,٠٠٠ دوقة . وقد هجاه أهل رومة بقصيدة تفصح عن رأيهم فيه فقالوا : « لقد ألهم ليو ثلاث باهوات : أموال يوليوس الثانى ، وإيراد ليو ، ودخل من خلفه من البابوات »^(١٠٠) . ولما مات عانت رومة أزمة من شر ما حدث في التاريخ كله من أزمات .

وكانت آخر سنة في حياته سنة اشتعلت فيها نار الحرب . ذلك أنه قد بدا

له ، بعد أن استرد أرينو وپروجيا ، أن لا بد له من السيطرة على فيرارا ونهر الپو لضمان سلامة الولايات البابوية ، وتمكينها من صد فرنسا عند ميلان . وكان الدوق ألفنسو قد خلق هو نفسه سبب الحرب بإرساله الجنود والسلاح إلى فرانثيسكو ماريا ليستخدمها ضد البابا ، وحارب ألفنسو بشجاعته المألوفة مع أنه كان مريضاً منهوك القوى بعد أن ظل جيلاً كاملاً يتناصب البابا العداء حتى أنجاه موت ليو من سوء المصير .

وانتاب المرض البابا أيضاً في أغسطس عام ١٥٢١ ؛ وكان بعض سببه الآلام الناشئة من ناسوره ، وبعضه الآخر متاعب الحرب وما تسببه من قلق واضطراب بال . وشفي من مرضه ، ولكنه عاوده في شهر أكتوبر من ذلك العام نفسه . واسترد صحته في نوفمبر بالقدر الذى أمكن معه نقله إلى قصره الرينى في مجليانا ؛ وفيه ترامت إليه الأنباء أن الجيش البابوى - الإمبراطورى قد استولى على ميلان من الفرنسيين . وعاد الخامس والعشرين من ذلك الشهر إلى رومة واستقبل فيها ذلك الاستقبال الرائع الصاحب الذى لا يستقيل به إلى الغزاة الفاتحون . وأجهد نفسه في السير على قدميه في ذلك اليوم ، وتصيب عرقه حتى ابتلت منه ملابسه ، فلما كان صباح اليوم التالى لزم الفراش مصاباً بالحدس ، وسرعان ما زادت حالته سوءاً وأدرك أن منيته قد اقتربت . وفى أول يوم من ديسمبر جاءتة الأنباء بأن الجيوش البابوية استولت على بياتشندسا وپارما فعلا وجهه البشر ، وكان قد أعان في يوم من الأيام أنه يسره أن يضحى بحياته ثمناً لضم هاتين المدينتين إلى ولايات الكنيسة . ومات في منتصف ليلة ١ - ٢ من ديسمبر سنة ١٥٢١ قبل أن يتم السنة الخامسة والأربعين من العمر بعشرة أيام . ونقل كثيرون من الخدم ، وبعض أفراد آل ميديتشى من الفاتيكان كل ما يستطيعون الاسيلاء عليه من الكنوز . وظن جوتشياردينى ، وچيوفيو ، وكستجليونى أنه مات مسموماً ؛ وأن ذلك ربما كان بتحريض ألفنسو أو فرانثيسكو ماريا .

ولكن يلوح أنه مات بجمي المالاريا كما مات بها الإسكندر السادس (١٠١) .

وابتهج ألفنسو حين بلغه النبأ ، وضرب مدلاة جديدة كتب عليها « من أنياب الأسد » : وعاد فرانتشيسكو ماريا إلى أربينو وجلس مرة أخرى على عرشه ، واستولى رجال المال على ما استطاعوا الاستيلاء عليه . وكان مصرف بيتي قد أقرض ليو ٢٠٠,٠٠٠ دوقه ، ومصرف جدى Gaddi قد أقرضه ٣٢,٠٠٠ ، ومصرف ريكاسولى Ricasoli ١٠,٠٠٠ ؛ وفوق هذا فإن الكردينال پتشى أقرضه ١٥٠,٠٠٠ والكردينال سلفياتى ٨٠,٠٠٠ (١٠٢) وكان من حق البابوات أن يستولوا قبل غيرهم على كل ما أنقذ من أملاك البابا ؛ ولكن ليو مات وهو شر من المفلس . واشترك غير هؤلاء في التشجيع على البابا واتهامه بسوء الإدارة المالية ، ولكن رومة كلها تقريباً حزنت عليه ، وكانت تعده أكرم من رأته من المحسنين في تاريخها كله . وأدرك الفنانون ، والشعراء ، والعلماء ، أن يوم سعدهم قد مضى ، وإن لم يكونوا قد فكروا بعد في مدى خسارتهم ، وفي ذلك يقول پاولو جيوفيو : « إن المعارف ، والفن ، ورغاية الشعب بأكمله ، ومباهج الحياة ، — وملاك القول إن كل ما هو خير — قد وورى التراب مع ليو » (١٠٣) .

وبعد فقد كان ليو رجلاً صالحاً قضت عليه فضائله . وقد أثنى لازرس على رحمته وإنسانيته ، وشهامته ، وعلمه الغزير ، ومناصرته للفنون ، ووصف عهد ليو بأنه الذهب (١٠٤) . ولكن ليو كان قد اعتاد التصرف في الذهب حتى فقد عنه قيمته . فقد نشأ في القصور . فتعلم الترف كما تعلم النمن ، ولم يستغل قط ليكسب المال ، وإن كان قد واجه الأخطار يجران ثابت ، ولا وضعت موارد البابوية تحت إشرافه انزلت من بين أصابعه لقلة عنايته بشأنها ؛ بينما كان ينعم بالسعادة التي ينعم بها من يتلقاها أو بعد العدة لحرب لا تبقى ولا تد . وسار ليو على الخطى التي سلكها الإسكندر ويولبوس ، وورث ما قاما به من بلائل الأعمال ؛ ورفع الولايات البابوية

إلى درجة من القوة لم تشهد لها من قبل ، ولكنه خسر ألمانيا بتبذيره وتشدده في جمع المال . وكان في وسعه أن يشاهد جمال وعاء من أوعية الزهر ، ولكنه لا يستطيع رؤية الإصلاح الديني البروتستنتي بتشكيل وراء الألب ، وأصم أذنه عن سماع مئات النذر التي كانت ترسل إليه ، بل ظل يطلب المزيد من الذهب من أمة تائرة عليه ، فكان بذلك سبب مجلد الكنيسة ونكبتها معاً .

وكان أكرم أنصار العلم والأدب ، ولكنه لم يكن أكثرهم استنارة ، ولم يزدهر قط أدب عظيم في أيامه رغم سخائه على الأدباء . فقد كان أريستو ومكيثلي فوق مداركه وإن كان في وسعه أن يقدر بمبو Bembo وپولتيان . ولم يكن تذوقه للفن سامياً أكيداً كما كان تذوق يوليوس له ؛ ولم يكن هو الذي ندين له بكنيسة القديس بطرس أو بـ صرصة أئيمية . وكان مسرفاً في حبه جمال الشكل مقلاً في إدراك المعاني التي يكشف عنها الفن العظيم الذي يغشى الشكل الجميل . وقد انهك رفائيل بكثرة العمل ، وكان سبباً في انهيار صحة ليوناردو ، ولم يستطع كما استطاع يوليوس ، أن يجد سبباً إلى عبقرية ميكيل أنجيلو بعد أن يجتاز إليها مزاج هذا الفنان الحاد . وكان مفرطاً في حب النعيم إفراطاً يحول بينه وبين العظمة . ويوسفنا أن يكون هذا هو حكمنا عليه لأنه كان خليقاً بجننا .

وسمى العصر الذي كان يعيش فيه باسمه ، ولعله كان خليقاً بأن يسمى به ؛ ذلك بأنه وإن طبع بطابع العصر ولم يطبع العصر نفسه بطابعه ، كان هو الذي جاء من فلورنس إلى رومة بما خلفه آل ميديتشي من الثروة وحسن الذوق ، وما شاهده في بيت أبيه من مناصرة للعلم والأدب والفن خليفة بالملوك والأمراء ؛ وبفضل هذه الثروة والرعاية البابوية وجد الحافز القوي الذي رفع الأدب والفن إلى ما بلغاه من جمال الأسلوب والشكل . وكان هو مثلاً احتذاه غيره من الرجال ، فأخذوا يبحثون عن المواهب ويمدونها بالعون ، ويضربون بدورهم لأوروبا الشمالية مثلاً في تقدير القيم العالية ومستوى

رفيعاً يجعله نصب عينها . وقد عمل أكثر مما عمله غيره من البابوات لحماية بقايا الآداب الرومانية القديمة ، وشجع الكتاب على محادثاتها . وقد ارتضى متع الحياة الوثنية ولكنه بقي في مسلكه الخاص عفيفاً في عصر أطلق لشهواته العنان . وساعد بفضل تأييده للكتاب الإنسانيين في رومة على غرس بذور الآداب والأشكال القديمة في فرنسا ، وأصبحت رومة برعايته قلب الثقافة الأوروبية النابض ، يهرع إليها الفنانون ليصوروا ، أو يحفروا ، أو يشيدوا ، والعلماء ليدرسوا ، والشعراء لينشدوا ؛ « يون ليتلأثوا ؛ وفي ذلك يقول إرزمس : « علىّ قبل أن أنساك يا رومة أن أغرق في نهر النسيان(*) » ألا ما أعظم ما فيك من حرية ثمينة ، وما حوته خزائنك من كتب قيمة ، وما أغزر ما في صدور علمائك من معارف ، وما فيك من صلات اجتماعية نافعة ! وهل يستطيع الإنسان أن يجد في غيرك من المدائن مثل ما يجد فيك من مجتمع أدنى راق ، أو تعدد في المواهب مجتمعة كلها في مكان واحد ؟ « (١٠٥) . « وأنى يستطيع الإنسان أن يجد مرة أخرى وفي مدينة واحدة ، وفي عقد واحد من السنين ، مثل هذا الحشد العظيم من الأعلام : كستجليوني ، الظريف ، وبعبو المذهب ، ولسكارس العالم ، والراهب جيوكندو ، ورفائيل ؛ وآل سانسوفيتي ، وسنجلي ، وسبستيانو وميكل أنجيلو .

(*) نهر في الجحيم في الأساطير اليونانية القديمة . (المترجم)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب، كاملة توجد في المراجع المجسلة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويلوها رقم الفصل أو الآية في الكتاب المقدس .

CHAPTER XIV

1. Pastor, I, 117; Creighton, I, 566-6.
2. In Pastor, I, 124.
3. Coulton, *Medieval Panorama*, 484.
4. Pastor, VII, 330; Creighton, I, 161.
5. I. a. C. C., *History of Auricular Confession*, III, 65.
6. Creighton, I, 147.
7. Ibid., 168
8. Gierke, *Political Theories of the Middle Age*, 52, 59; Hearnshaw *Medieval Contributions to Civilization*, 67.
9. Emerlou, E., *Defensor Pacis of Marsiglio of Padua*, 70-2.
10. Pastor, I, 184.
11. Niem in Milman, VII, 235n
12. Creighton, I, 273.
13. Milman, VII, 460.
14. Figgis, J. N., *From Gerson to Grotius*, 41.
15. In Ogg, F. A., *Source Book of Medieval History*, 391.
16. Creighton, I, 297.
17. *Cambridge Medieval History*, VIII 8m.
18. Crighton, IV, 8.
19. In Pastor, I, 240.

20. Creighton, II, 272; Pastor I, 284.
21. Creighton. IV, 41.
22. Ogg, 393-7.
23. Pastor, II, 215.
24. *Cambridge Medieval History*, IV, 62 of; Pastor, II, 258.
25. Creighton, IV, 71.

CHAPTER XV

1. Gibbon, *Decline and Fall*, VI, 554.
2. Lavaciani, *Golden Days of the Renaissance*, 78-80
3. Burckhardt 105.
4. Roscoe, *Leo X*, I, 435.
5. Cf. Pastor VII, 104.
6. Pastor, I, 167.
7. Pastor, II, 180; Hare, *Walks in Rome*, 167
8. In Creighton, III n.
9. Pastor, II, 14; Symonds, *Revival*, 292 5
10. Ibid, 226.
11. Pastor, II, 193.
12. Pastor, II, 200.
13. Burckardt, 188.
14. Pastor, II, 198.
15. Sismondi, 613.
16. Vasari, II, 31, *Bernardino Rossetti*.
17. Lea, *Auricular Confession* III, 202.

18. Pastor, III, 102.
19. Creighton, II, 808f.
20. Pastor, II, 27-2f.
21. Ibid., 313.
- 21a. La Tour, P. imbart, de, *Les origines de la Réforme*, II, 7, 14.
22. Creighton II, 245.
23. Ibid., 246.
24. Ibid., 247.
25. Platina in *vitas summorum pontificum* in Whitcomb. *Source Book*, 69.
26. Creighton, 483.
27. Ibid.
28. Burckhardt, 305.
29. Creighton. II. 483.
30. Sellery. 289.
31. Platina in Whitcomb. 65.
32. Creighton. II, 488.
33. Platina, I. c.
34. Ibid., 99.
35. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, II, 442.
36. Pastor, III, 324.
37. Ibid., 236.
38. Creighton, IV, 209.
39. Thompson. J. W., 207.
40. Pastor. IV. 41-5; Villari, *Machiavelli*, I, 106 7; Burckhardt, 280, 505.
41. Ferrara, O, *The Borgia Pope* 95.
42. Pastor IV, 238-44; Creighton, III.
43. Ibid., 75.
44. Symonds, *Despots* 388.
45. Ibid., 398n.
46. Cf. Creighton, III, 115, 285; Pastor, IV, 416.
47. Soriano in Symonds, *Despots* 394n; Pastor, IV, 428.
48. Symonds, *Despots*, 394.
49. Pastor. V, 236-8.
50. Vesucci in *Cambridge Modern History*, I, 222.
51. Creighton III, 120.
52. Ibid, 154-5; Pastor, V, 351.
53. Ibid., 352-4; Creighton. IV. 318.
54. Creighton, III, 126.
55. Ibid.
56. Burckhardt 108; Pastor, V, 354.
57. Pastor, V, 317; Creighton, III, 176.
- 57a. La Tour, II, 13.
58. Pastor, V, 361-2.
59. Creighton, IV, 297-8.
60. Creighton, III. 126.
61. Ibid., 135.
62. In Taine, *Italy - Rome and Naples*, 171.
63. Creighton, III, 153; *Cambridge Modern History*, I, 225.

CHAPTER XVI

1. Ferrara, *Borgia Pope*, 55-62; Pastor, II, 541-2.
2. Creighton, III, 162
3. Pastor. II, 455.
4. Beuf, *Cesare Borgia*, 19, Gregorovius, *Lucrezia*, 10.
5. Ibid, 18, 20.
6. Roscoe, *Leo X*, I, 24.
7. Gregorovius, *Lucrezia*, 352.
8. Id, IV, 324.
9. *Cambridge Modern History*, I, 225; Ferra, 66; Creighton, III, 169.
10. Ferrara. 51; Pastor. V., 366; Gregorovius, 17
11. Creighton, III, 160n.
12. *Cambridge Modern History*, I, 226.
13. Pastor, V, 385.
14. Sacerdote, O., *Cesare Borgia*, 94.
15. In Creighton, III, 47.
16. *Cambridge Modern History*, I, 234.

17. Vasari, II, 116, *Pinturicchio*.
18. Ferrara, 310
- 18a. La Tour, II, 89.
19. Pastor, V, 396; Burckharpt, 109.
20. Portigliotti, 28f.
21. Guicciardini, I, 19-20.
22. Creighton, III, 168.
23. Ibid., 194-5, quoting the letters as given in Burckhard's *Diorium*,
24. Creighton, III, 196; Pastor, V, 429; *Cambridge Modern History*, I, 229
- 24a. Guicciardini, I, 209.
25. Creighton, III, 206; *Combridge Modern History*, I, 231.
26. Ibid., 230
27. Pastor, V, 381.
28. Ferrara, 168.
29. Roscoe, *Leo X*, I, 394.
30. Guicciardini, I, 29.
31. Gregorovius, 75.
32. Creighton, III, 175; Gregorovius, 39, 62; Portigliotti, 47.
33. Ferrara, 164.
34. Creighton, III, 176; Gregorovius, 65.
35. Portigliotti, 45, 48, 61.
36. Burckhard, *Diarium*, iii, 227, in Creighton, IV, 49n.
37. Boccaccio, Ferrarese ambassador, in Symond, *Despots*, 417; Portigliotti, 56.
38. Gregorovius, 75.
39. Lea, *Auricular Confession*, III, 211f.
40. Guicciardini, III, 26; Pastor, VI, 153-4.
41. Guicciardini, III, 26; Creighton, IV, 13-4.
42. Portigliotti, 66.
43. In Villari, *Machiavelli*, I, 321.
44. Portigliotti, 66.
45. Ferrara, 318.
46. Villari, I c.
47. Cf. Ferrara, ch. xxi.
48. Ibid., 309.
49. Ferrara, 246; Sacerdote, 198f.
50. Ibid., 221.
51. Ibid., 202:
52. Ferrara, 246; Pastor, V, 512, and Roscoe, *Leo X*, I, 154 acquit Caesar Borgia; Gregorovius, *Lucrezia*, 109; Beuf, 76-8; and Symonds, *Despots*, 425 accuse him; Creighton, III, 258, concludes that "it is impossible to pronounce any certain opinion."
53. Pastor, V. sol.
54. Gregorovius, 220; Burckhardt, 110.
55. Beuf, 41.
56. Gregorovius 57.
57. Beuf, 97.
58. Cartwright, *Isabella*, I, 278.
59. Beuf, 7; Sacerdote, 207.
60. Ferrara, 291.
61. Burckhardt 112; Creighton, IV, 3-4.
62. Id., III, 6n; Ferrara, 203.
63. Richard Garnett in *Cambridge Modern History*, I, 238.
64. In Beuf, 155
65. Ferrara, 308.
66. Beuf, 194.
67. Ibid., 228.
68. Creighton, IV, 27.
69. Ibid.
70. Ibid., 29; Sacerdote, 806.
71. Guicciardini, III, 137; Machiavelli, *Relation of the Murder of Vitellazzo* in Appendix to *History of Florence*, pp. 401-6.

72. Beut 292.
73. Ibid.
74. Ibid and 296.
75. Creighton IV, 36.
76. Ibid, 40.
77. Beuf, 290.
78. Beuf, 252-8.
79. Beuf 131.
80. Beuf, 66, 177; Guicciardini, III, 126.
81. Portigliotti, 83.
82. Villari, *Machiavelli*, I, 328.
83. Burckhardt, 116.
84. Pastor, VI, 158.
85. Beuf, 305-7.
86. Ferrara, 326.
87. Burckhardt, 115. Villari, *Machiavelli*, I, 323.
88. Cartwright, *Isabella*, I, 327.
89. Creighton IV, 30-40, *Cambridge Modern History* I, 247; Beuf, 307.
90. Symonds, *Despots* 426.
91. Burckhardt *Diarium* ed. Celani, II, 303, in Portigliotti, 54.
92. Ferrara, 337; Gregorovius, *Lucrezia*, 178.
93. Ferrara, 337.
94. Gregorovius, 177; Ferrara, Creighton, IV, son, accepts the tale.
95. Gregorovius, 189.
96. Ferrara, 262.
97. Ibid., 251.
98. Gregorovius, 108, 330.
99. Creighton, III, 264.
100. There are different account of Alfonso's death; the text follows the despatches of the Venetian ambassador Capello as given in Creighton, IV, 257-62. Pastor (VI, 77) suggests that Alfonso was slain by his own bodyguard.
101. Cf. Gregorovius. *Lucrezia*, 175.
102. Cartwright, *Isabella*, I, 205.
103. Creighton, IV, 21; Pastor, 300; Gregorovius, 175.
104. Ibid., 167.
105. Ibid., 213.
106. Ibid., 222; Frjeplander, *L., Roman Life and Manners*, II, 176.
107. Gregorovius, 246-8.
108. Ibid., 290.
109. *Cambridge Modern History*, I, 241; Pastor, VI, 132; Sacerdote, 683; Villar, *Machiavelli*, I, 327; Lanciani, 76; Ferrara, 400; Roscoe, *Leo X*, I, 469; Beuf 318. Portigliotti, 129-37, defends the poison theory.
110. Ldnciani, 76:
111. Portigliotti, 127.
112. Gregorovius, 289.
113. Guicciardini III, 228.
114. Machiavelli, *Prince*, ch. xviii.
115. Pastor, VI, 187.
116. Roscoe, *Leo X*, 195.
117. Creighton, IV, 44-50.
118. *Cambridge Modern History*, I,
119. Creighton, IV, 57.
120. Pastor, VI, 208.
121. Gregorovius, *Lucrezia*, 310.
122. Ibid., 31.
123. Roscoe, *Leo X*, 195.

CHAPTER XVII

1. Pastor, V, 369.
2. Paris de Grassis in Roscoe, *Leo X*, I, 300.
3. Pastor, I, c.
4. Villari, *Machiavelli*, I, 367.
5. Pastor, VI, 215.
6. Ibid., 223.
7. Beuf, 364.

8. Machiaveli, *Discourses*, i, 27.
9. Creighton, IV, 117.
10. Ibid., 123.
11. Ibid., 124.
12. Ibid., 127.
13. Guicciardini V, 90.
14. Creighton, IV, 163n.
15. Ibid., 130n.
16. Guicciardini, VI, 111.
17. Müntz, *Raphael*, 293.
18. Symonds, *Michelangelo*, 92-4.
19. Pastor, VI, 469f.
20. New York *World*, May 12. 1928.
21. Nietzsche, Letter to Brandes, in Huneker, *Egoists*, 251.
22. Vasari, ed., Blashfield and Hopkins, IV, 37n, *Michelangelo*.
23. Ibid., 38.
24. In Symonds, *Michelangelo*, 7.
25. Cellini, *Autobiography*, i, 13.
26. Symonds, *Mich.*, 134
27. Ibid., 44.
28. Ibid., 45.
29. Maulde, 3:3.
30. Symonds, *Mich.*, 58.
31. Vasari, IV, 59.
32. Symonds, 70.
33. Ibid., 100.
34. Cellini, i, 12.
35. Condivi in Symonds, III.
36. Symonds, 125.
37. Vasari, IV, 89.
38. Condivi in Symonds, 139.
39. Faure, E., *Spirit of Forms*, 139.
40. Vassari, IV, 91.
4. Roscoe, *Leo X*, I, 344.
5. Guicciardini, VII, 68.
6. Ibid., VI, 117.
7. Creighton, IV, 182.
8. *Cambridge Modern History*, II, 14; Gregorovius, *History, of City of Rome*, VIII, 294; Creighton, IV, 181n. All these rest on the *Relazione* of Marino Giorgio, the Venetian ambassador, and on Prato's *Storia Milanese*; probable but inconclusive, since, since Giorgio did not take up residence in Rome till 1515.
9. Pastor, VIII, 391.
10. Ibid.
11. Ibid., 84.
12. Roscoe, *Leo X*, II, 259.
13. Ibid., 388; Pastor, VIII, 79.
14. Müntz, *Raphael*, 409.
15. Taine, *Italy : Rome and Naples*, 185.
16. Pastor, VIII, 74.
17. Roscoe, II, 391.
18. Burckhardt, 185.
19. Pastor, VIII, 160, 162.
20. Ibid., 163-4
21. Lanciani, *Golden Days of the Renaissance in Rome*, 321.
22. Burckhardt, 387.
23. Gregorovius VIII, 467.
24. Lanciani, 58.
30. Roscoe, II, 87; Pastor, VIII, 127.
31. Gregorovius, VIII, 302.
32. Lanciani, 108.
33. Pastor, VIII, 121.
34. Cartwright, *Isabello*, II, 116.
35. Gregorovius, VIII, 309, 311.
36. Rashdall, H., *Universities of Europe in the M. A.*, II, 39.

CHAPTER XVIII

1. Montalembert, *Monks of the West*, I, 81.
- . Roscoe, *Lorenzo*, 285.
8. Guicciardini, VI, 114.

37. Roscoe, I, 342.
38. Huizinga, *Waning of the Middle Age*, 62.
39. Pastor, VIII, 268.
40. Roscoe, I, 357.
41. Ibid., 287.
42. Ibid.
43. Maulde, 432.
44. Roscoe, II, 173.
45. Müntz, *Raphael*, 405; Symonds, *Italian Literature*, II, 147.
46. Roscoe, II, 299-302; Pastor, VIII, 238.
47. Ibid., 270.
48. Roscoe, II, 176.
49. Ibid., 110; Pastor, VIII, 184.
50. Roscoe, II, 110.
51. In Symonds, *Revival*, 499.
52. Ibid., 500.
53. Ibid., 503.
54. Ibid., 478.
55. Lanciani, *Ancient Rome*, 1954f.
56. In Pastor VIII, 362.
57. Symonds, *Michelangelo*, 195.
59. Pastor, VIII, 435.
60. Symonds, 219.
61. Ibid., 51.
62. Ibid., 52.
63. Vasari, IV, 218.
64. Ibid., 218.
65. Ibid., 212.
66. Symonds, *Elne Arts*, 268.
67. Symonds, *Michel*, 203.
68. Ibid., 529.
69. 535.
70. 149.
71. Müntz, *Raphael*, 421.
72. Ibid., 422.
73. 420.
74. Ibid.
75. Vasari, II.247-9. *Raphael*.
76. Wmckelmann, *History of Ancient Art*, II, 316.
77. Müntz, *Raphael*, 462.
78. Roscoe, *Leo*, X, I, 347.
79. Lanciani, *Golden Days*, 279-80
80. Friedländer, II, 136; Pastor, VIII.
81. Friedländer. I.c.
82. Ibid., 157.
83. Lanciani *Golden Days* 302.
84. Müntz, *Raphael*, 401.
85. *Time Magazine* April 30, 1961,
86. Vasari, II, 238.
87. Lanciani, 230.
88. Vasari, II, 241.
89. Ibid., 247.
90. Matt. 17 : 1-3, 14f.
91. Vasari, II, 247.
92. In Mantegna *L'oeuvre*, Introd., x.
93. Guicciardini, VII, 287; VIII, 11.
94. Ibid., VI, 412.
95. Ibid., VII, 120; Roscoe, *Leo* X, II, 200.
96. Cf. Ranke, *History of the Popes*, I, 309.
97. Pastor VIII, 81, 151.
98. Thompson, J. W., 423.
99. Pastor, VIII, 81, 151.
100. Ibid., 102.
101. 63-5.
102. Thompson, 423.
103. Pastor, VIII, 460.
104. Young, *Medici*, 296.
105. Pastor, VIII, 190.

الفهرس

الكتاب الرابع - النهضة فى رومة

الصفحة

الموضوع

الباب الرابع عشر - أزمة الكنيسة

٣	العصل الأول . الانشقاق البابوى
٨	الفصل الثانى : المجالس والباباوات
١٥	الفصل الثالث . انتصار البابويه .

الباب الخامس عشر - النهضة تستحوذ على إيطاليا

٢٤	الفصل الأول : قضية العالم
٣٢	الفصل الثانى : نقولاس الخامس
٤١	الفصل الثالث : كلكتس الباب
٤٣	الفصل الرابع . بيوس الثانى
٥٨	الفصل الخامس . بولس الباقى
٦٢	الفصل السادس . سكستس الرابع
٧٢	الفصل السابع . إنوسنت الثامن

الباب السادس عشر - آل بورچيا

٧٩	الفصل الأول . الكردناز بورچيا
٨٤	الفصل الثانى اسكندر السادس
٩٢	الفصل الثالث . الآنم
١٠٣	الفصل الرابع : بيزارى بورچيا
١٢٢	الفصل الخامس . لكريدسبا
١٣٠	الفصل السادس : امپيار سلطان آل بورچيا

الباب السابع عشر - يوليوس الثانى

١٤٤	الفصل الأول . المحارب
١٥٦	الفصل الثانى . العماره الرومانية

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : رفاثيل	١٦٣
١ - الشاب	١٦٣
٢ - رفاثيل ويوليوس الثاني	١٧٣
الفصل الرابع : ميكل أنجيلو	١٨٤

الباب الثامن عشر - ليو العاشر

الفصل الأول : الكردفال الفلام	٢٠٧
الفصل الثاني : البابا السعيد	٢١٥
الفصل الثالث : العلماء	٢٢٤
الفصل الرابع : الشعراء	٢٣٤
الفصل الخامس : صحوة إيطاليا	٢٤٠
الفصل السادس : ميكل أنجيلو وليو السادس	٢٤٦
الفصل السابع : رفاثيل وليو العاشر	٢٥٣
الفصل الثامن : أجستينو تشيحي	٢٦٣
الفصل التاسع : رفاثيل : خاتمة المطاف	٢٦٧
الفصل العاشر : ليو السادس	٢٨٠
المراجع	٢٩٠

فهرس الصور

رقم الصورة	مدلولها	رقم الصفحة
١ - التحلى	في أول الكتاب
٢ - مادفادجل البرقى	أمام ص ٣٤
٣ - الدوج ليوناردو لوريدانو	» » ٢٤
٤ - فينوس النائمة	» » ٧٦
٥ - السفوتية الرعوية	» » ٧٦
٦ - الحب الطاهر والحب اللدن	» » ١٠٢
٧ - فينوس وأدنيس	» » ١٠٢
٨ - حلم القديس أرسولا	» » ١٣٤
٩ - صمود العذراء	» » ١٣٤
١٠ - القديسان يوحنا وأوغسطين	» » ١٦٦
١١ - زواج سانت كترين	» » ١٦٦
١٢ - عذراء الورد	» » ١٩٨
١٣ - قتيبتا خل وزهرية	» » ١٩٨
١٤ - عذراء اللؤلؤة	» » ٢٣٠
١٥ - ايبابا يوليوس الشافى	» » ٢٣٠
١٦ - التلى	» » ٣٦٢
١٧ - خلق آدم	» » ٣٦٢